طموحنا كقيادة ، وشعب ، هو خلق مجتمع متطور ونظيف .



● الاسلام يجب أن يلعب دور المحرك فى حاضرنا و مستقبلنا •

● الميثاق يرسم استراتيجية البلاد، ويعطى للثورة محتواها النظرى ، ويحدد المبادىء الدائمة لمسيرتنا •

أيهـا الاخـــوة والاخـــوات ،

ها نحن مرة اخرى على موعد مع التاريخ ، التاريخ الذى يقيم الحاضر ويلقى الاضواء على المستقبـــل .

لقد التقينا فى هذه الايام الثلاثة فى ندوة وطنية تختلف عن كل الندوات الوطنية التى شهدتها هذه القاعة ونختتم أعمالنا فى يوم 19 يونيو الذى يمثل بالنسبة لنـــا وبالنسبة للبلاد حـدثا تاريخيا هاما .

وها قد حان الوقت لكى نفترق بعد هذه الايام الحافلة بالنشاط والمناقشات الجادة المثمرة على أمل اللقاء فى الشهور القادمة وفى المرحلة القادمة لتناول مواضيع هامـــة جدا بالنسبة لمستقبل البلاد ولمستقبل الثـورة .

ولقد كنا أعلنا فى نفس التاريخ من العام الماضى باننا مع 19 يونيو 1976 على موعد وها نحن نحتفل اليوم بالمصادقة على المشروع التمهيدى للميثاق الوطنى الذى تحـول منذ لحظة مصادقتكم عليه الى ـ مشروع الميثاق الوطنى .

وقبل بداية الحملة الوطنية لمناقشة الميثاق وفى خطـــاب أول مايو قلت بأن ذلك المشروع التمهيدى هو حصيلة تقييم لتجربة وتحديد لاستراتيجية المستقبل فى كـــل الميادين وقلنا باننا نضع التجربة بكل ما تحتويه من معالم القوة ونقاط الضعف بـين يدى الشعب الجزائرى ليقول فيها كلمته ، وهذا ما حدث بالفعـــل ، بل ان المساهمة الشعبية قد تجاوزت كل التقديرات وحماسة الجماهير قد فاقت كل التوقعات وكان هذا دليلا قاطعا على عمق الثقة المتبادلة بين القيادة والقاعدة ، وأثبتت هذه العملية الرائدة والفريدة من نوعها بان اختيارنا كان اختيارا سليما وبأن الثقة كانت فى محلها وبان تقديرنا لارادة الجماهير الشعبية ولوعيها والتزامها كان تقديرا صائبا .

(*) نص خطاب رئيس مجلس الثورة والحكومة الذى القاه بقصر الامم فى اختتـــام اشغال الندوة الوطنية يوم 19 جوان 1976 .

المناقشات كانت عبارة عن مؤتمر موسع للثورة

ان الحماس الذى شهدته البلاد كان حماسا رائعا عبرت عنه تلك المناقشات الحرة العميقة التى دارت بدون أية حواجز أو قيود ، ولقد أظهرت الاحصائيات التى تقدمتم بها الى هذه الندوة بان حوالى أربعة ملايين مواطن ومواطنة قد شاركوا فى المناقشات عبر أكثر من مائة ألف اجتماع وتجمع تضاف الى الرسائل وما كتب ونشر وأذيع فى أجهزة الاعلام الوطنية بحيث يمكننا اليوم أن نقول ان الثورة الجزائرية قد عقدت اجتماعا شعبيا كانت قاعدته هى الشعب الجزائرى كله ، وكان بمثابة مؤتمر موسع شاركت فيه كل فئات الشعب الجزائرى من عمال وفلاحين وطلبة وجنود وكل الاعمار من شبان وكهول وشاركت فيه المرأة على قدم المساواة مع الرجل ، وكان هذا كله علامة صحة بالنسبة للشعب وبالنسبة لنظام الحكم الذى يعبر دائما عن وفائه لمبدأ ـ الثورة من الشعب والى الشعب ـ والتجربة التى تمت فى الجزائر لم تعرفها بلدان تدعى الديمقراطية وتتهم نظامنا بالحكم الفردى حيث كانت تجربة ثورية رائدة ووسيلة لتعميق التكوين السياسى على نطاق واسع ولخلق المفهوم الواحد والموحد .

ثم أن هذه التجربة عبرت تماما عن قوة الثورة ، ولو لم تكن الثورة قوية بمبادئها وأهدافها وانجازاتها لما استطاعت أن تخوض مثل هذه التجربة الديمقراطية الشعبية بحيث خرجت بعد كل تلك المناقشات الجماهيرية الواسعة وهى أقوى مما كانت عليها قبلها اذ ثبتت سلامة الاختيار وتأكدت الثقة المتبادلة .

ولقد تتبعنا حصيلة المناقشات التى دارت والآراء التى أذيعت ونشرت بقدر الوقت الذى أتيح لنا وأطلعنا على كل الافكار والاقتراحات بل وبعض التيارات والتناقضات بحيث يمكننا القول بان الجزائر كانت عبارة عن بيت زجاجى الجدران كل شىء فيه كامل الوضوح .

ولقد أثبتت المناقشات بأن كل الذين يؤمنون بالشعب وبمصلحته العليا قالوا نعم للميثاق ولجوهر الميثاق رغم التحفظات أو الملاحظات التى قدمها البعض ولست أعنى هنا أولئك الذين اتخذوا من المنابر الاجنبية مكانا مختارا يبثون منه سمومهم فيومنا هذا أعظم من أن ندنسه بذكرهم .

أقول بأن الجزائر عرفت اجماعا شعبيا على جوهر الميثاق رغم بعض الملاحظات التى أبداها عدد من المواطنين وتطرقت الى مواضيع شتى ، غير أن علينا أن ننظر الى الميثاق كوثيقة تحدد الجوهر والخط العام لا كتقرير يقوم بحصر كل المشاكل اليومية والمحلية ·

ان الميثاق بجانب تقييمه للتجربة يرسم استراتيجية البلاد ويعطى للثورة محتواها النظرى ، ويحدد المبادىء الدائمة لمسيرتها ·

وابتداء من هذه اللحظة فان الفرز سيكون على أساس الميثاق الذى صادقتم على مشروعه وعلى أساس الالتزام بما جاء فيه وينطبق هذا على كل أجهزة البلاد وتنظيماتها سواء أكانت حزبية أم ادارية ·

وهذا لايعنى اهمال الآراء التى صدرت عن بعض المواطنين وكانت خارجة عن أبواب الميثاق وكل المشاكل التى اثيرت ستتم دراستها وتتخذ فيها الاجراءات اللازمة ·

وقبل أن أتطرق الى بعض المواضيع التى أثيرت خلال المناقشات ـ وأنا أدرك بأننى أتحدث الى شعب واع مسؤول ـ ألاحظ بأن الانتقاد طغى أحيانا على النقد الذاتى · ان النقد الموضوعى هو غير الانتقاد والتشهير · والنقد الموضوعى هو علامة الصحة للشعب ولنظام الحكم ونحن نوصى به كما نوصى بالنقد الذاتى فى الاجتماعات المقبلة سواء الاجتماعات النظامية أو الشعبية ·

هذه ملاحظة عابرة ، أما بالنسبة للمواضيع التى تطرق اليها النقاش الجماهيرى فهناك كلمات لابد أن تقال ·

لقد دار نقاش طويل حول مكونات الشخصية الوطنية مثلا وأنا أعتقد بأن الشعب الجزائرى كان دائما فى مسيرته التاريخية شعبا منسجما الى درجة أنه فى الوقت الذى ثار فيه الجدل حول تفسير القرآن والسنة ، وتكونت مذاهب كثيرة كانت لهذا انعكاسات على كل الدول العربية والاسلامية باستثناء منطقة المغرب العربى والجزائر بالذات ، حيث أن المذهب الوحيد السائد فى بلادنا هو المذهب المالكى ·

الجزائر مسلمة وستبقى كذلك

ان الجزائر مسلمة وستبقى كذلك ولقد قامت القيادة بأهم واجباتها فى هذا المجال والاسلام الذى كان درعا واقيا حفظ الشخصية الوطنية وحافظ عليها لابد له أن يلعب فى الحاضر وفى المستقبل دور المحرك ·

ولقد كان الحاح المواطنين على قضية الاسلام تعبيرا قويا عن التمسك بشخصيتهم وأصالتهم ومن الخطأ الفادح أن يعتبر البعض ذلك من قبيل الافكار الرجعية ٠

هناك حقيقة بعض المتزمتين الذين عجزوا عن فهم الدين فهما حقيقيا وعن مسايرة العصر والتجاوب مع التطور وظلوا متشبثين بأفكار وخرافات وأوهام ليست من الدين فى شىء أو حاولوا استخدامه لمصالحهم الخاصة ولكن هؤلاء لا يمثلون الاسلام على حقيقته كما يؤمن به ويتطلع اليه الشعب الجزائرى ، الاسلام الذى يدعو للعدل والمساواة وعدم استغلال الانسان لاخيه وينادى بتوزيع الثروة الوطنية بصفة عادلة ولا يقبل بأى واسطة بين العبد وربه ٠

ان الجزائر المتمسكة بأصالتها وشخصيتها تريد أن تبقى هى الجزائر ٠ ولكن هذا لا يعنى ان ننغلق على أنفسنا ونتقوقع لاننا جزء من الوطن العربى الذى تربطنا به أربعة عشر قرنا من حضارة كنا جزءا منها عندما كانت فى القمة وانعكست علينا أثارها عندما أصيبت بالانحطاط وابتليت بالتخلف والاستعمار ٠

ان اعتزازنا بتاريخنا العربى الاسلامى لا يعنى أن نتنكر لماضينا البعيد منذ ماسينيسا وقبله كما أشار الى ذلك الميثاق وكما ندافع عن ماضينا ونفخر به علينا الا ننسى تاريخ بلادنا وخاصة التاريخ العربى الاسلامى وعلينا أن ننظر الى المستقبل ونتعرف جيدا على مقومات شخصيتنا وعلى المحيط الذى يجب أن نحافظ على ارتباطنا به دون أن نضيع الوقت والجهد فى نقاش لا طائل وراءه ولا يستند الى معطيات تاريخية حقيقية ، يمكننا للتعرف على هذا ان نتساءل عن سر الحماس البالغ الذى يتفجر به الشعب الجزائرى كلما ذكرت فلسطين والمرارة التى تجرعها والالم الذى عبر عنه عندما وقعت الهزيمة فى فى المشرق فى ـ 67 ٠

لا شك فى سيادة اللغة العربية
ولا منازع لها فى بلادنا

السر هو أن الشعب الجزائرى يدرك فى أعماقه بانه جزء من كل وأنه عضو من جسد واحد ٠

لقد دار نقاش طويل حول تفسير كلمة الامة الجزائرية الواردة فى الميثاق ، ربما كان هناك فى المشرق العربى من يعتبرها ضد الاتجاه الوحدوى كما أن هناك الذين أعربوا

عن تخوفهم أن يكون هذا بابا للنعرات الجهوية وهنا أوضح الامر رفعا لكل التباس ولان على جيلنا مسؤولية توضيح كثير من المفاهيم ذات الصلة بالماضي • ان المقصود بالامة هو الوطن ، والشعب ، والتاريخ •

ولقد كان الصراع حول بلادنا قائما منذ عهد الرومان وقبله ثم انصهرت الجزائر فى الحضارة العربية الاسلامية وهناك نظريات تقول بأن بعض ملوك البربر قد ساهموا فى تحقيق عروبة البلاد •

وهكذا أصبحت الجزائر جزءا من كل وساهمت فى بناء الحضارة العربية الاسلامية واثرائها •

واننا نتحمل تاريخنا كله وتفسير الميثاق يأخذ كل تلك المعطيات بعين الاعتبار ونحن اليوم أكثر من أى وقت مضى موجودون كشعب قوى متلاحم متكاتف متضامن من أجل بناء مستقبله •

وربما كان من الضرورى أن أتحدث عن هذا الموضوع ولاول مرة بهذه المناسبة التاريخية لوضع الامور فى مكانها الصحيح حيث أننا نقوم بهذه التجربة الشعبية الاولى من نوعها من أجل تنظير الثورة وتقنينها واعطائها مفاهيمها الحقيقية الموحدة وبحيث لا يبقى مجال للتفسيرات الفردية وكثرة الآراء وتناقضها وبعثرة الجهود •

فيما يتعلق باللغة القومية يجب أن يكون واضحا بان سيادة اللغة العربية لا شك فيها ولا منازع لها وهى ان صح التعبير سيدة لا تقبل أن تكون لها ضرة واقصد بالضرة اللغة الفرنسية ، وهناك لهجات محلية نقول بأنها جزء من تاريخنا الثقافى •

الارتفاع بمستوى اللغة العربية رفع للمستوى الثقافى للجماهير

ولكن السؤال المطروح ما هى السياسة التى يجب أن تتبع ، هل هى السياسة التى تدعم وحدة الشعب والامة وتقوى أساس الدولة أم السياسة التى قد تخلق مشاكل نحن فى غنى عنها ؟

وهناك مشكل الجهوية مثلا ولعل روح الجهوية موجودة ولا ينطبق هذا على جهة بعينها لكنها مرض قد يعانى المجتمع من أثاره خاصة وأن هناك بجوارنا من يعتمدونها

كسياسة ويتعمقون فى بحثها بهدف ـ فرق تسد ـ لقد اخترنا السياسة التى تدعم وحدة الشعب والامة وسرنا قدما فى سياسة التعريب ، ولعل من أكثر الامور التى تبعث على البهجة سيادة اللغة العربية على المناقشات التى دارت وخصوصا بالنسبة للشباب الذين كانوا يتحدثون لغة عربية سليمة وراقية فى أدق المواضيع وأكثرها صعوبة ٠

ولقد كان المستوى الـذى يجب أن تكون عليـه لغتنـا العـربية من القضايا التى استقطبت اهتمامنا وكان السؤال المطروح هل نرتفع بمستوى اللغـــة العربيـة التى نستعملها ليرتفع معها المستوى الثقافى العام أم ننزل بها الى المستوى الثقـافى الحالى للجماهـــير ٠

ان هناك دعاة اللهجات المحلية واللغة الدارجة والتى تختلف من جهة الى أخرى شرقا وغربا وجنوبا ، لكن السؤال ، ما الذى سيبقى من الرابطة القومية بعد خمســين سنـة اذا كان استعمال اللغات الدارجة هى القاعدة ، وفهم لهجة محلية لمنطقة ، قد يتعســر على سكان منطقة أخرى ٠

بل اننا نعجز عن التفاهم مع الاخوة فى دمشق أو العراق أو مصر أو غيرها مـــن البلدان العربية اذا استخدم كل منا لهجته المحلية فى التخاطب ومعنى هذا ان اختيــار اللغة العربية الفصحى هو اختيار سياسى يحتم رفع مستوى اللغة العربية للجماهــير لتكون لغة سليمة راقية لا تعقدها الكلمات المندثرة والمصطلحات غير المألوفة ٠

المـرحلة القادمـة ستتميـز بانضمام الملاكـين الصغـار والحـرفيين كحلفـاء للثـورة

قضية أخرى كان لها مكانها فى النقاش الذى دار حول المشروع التمهيدى وهى قضية الملكية الخاصة ، وهناك ، من طالب بالغائها وبالقضاء على القطاع الخاص ٠

وانني أقول هنا باسم القيادة بانه فيما يتعلق باستراتيجيتها لسنا نفكر فى القضاء على الملكية الخاصة غير المستغلة لان اتخاذ مثل هذا القرار فى هذه المرحلة بالذات مـن تطور الثورة هو تطرف وتشنج ، وهذا ليس من الثورة فى شىء ، بل اننا نعتقد بـأن المرحلة القادمة يجب أن تتميز بانضمام كل الحرفيين وكل الملاكين الصغار للمعركـة وكسبهم كحلفاء للثورة وسيصدر قانون يحدد بصفة مدققة المفهوم الذى جاء به الميثاق ٠

فيما يتعلق بالملكية الخاصة غير المستغلة ونحن نعتقد بأن لهذه الملكية مكانها فى تجربة الجزائر الاشتراكية ٠

ولقد حدد الميثاق الموقف فيما يتعلق بالملكية الخاصة المستغلة وغير المستغلة ، أن هناك ملكية كبيرة مستغلة وهناك ملكية صغيرة ٠

ولقد حاولت بعض البلدان الاشتراكية تأميم كل شيء لكن هذا أدى الى تفاقم البيروقراطية وتعقيد الحياة ٠

وأنه لمن غير المنطق أن يعتبر الحلاق أو الحرفى الصغير الذى يعكف طوال يومه لانتزاع قوته وقوت عياله انسانا مستغلا يجب القضاء عليه ٠

ان الذين يستغلون غيرهم معروفون ووضعيتهم واضحة وهناك الذين تمكنوا بطرق غير شريفة من تهريب أرباحهم التى حققها فى الجزائر بل وجزءا من رأس مالهم ليقيموا بها فى بلدان أجنبية معامل لا تستفيد منها الجزائر ولا العامل الجزائرى وهذه من سمات الملكية المستغلة ٠

ان للثورة منطقها ، وان ما يهمنا هو أن تنجح الثورة ولقد حاربنا سبع سنوات ونصف لانتزاع الاستقلال ثم وضعنا فى العشرية الماضية أسس المجتمع الجديد وعلينا فى المرحلة القادمة أن تسير بكيفية منتظمة مضبوطة تكفل تحقيق الاهداف الثورية ٠

جبهة التحرير الوطنى جزء من تراثنا
وليست هناك قوة يمكن أن تعزلنا عنه

ان الثورة الزراعية لم تطبق فى 1965 أو فى 1966 رغم ان هناك من كان يقول بغير ذلك ٠

لكننا كنا نرى أنه لابد من ايجاد الشروط الموضوعية لكى ينجح تطبيق الثورة الزراعية ، وقد بدأ تطبيقها فعلا يوم تمكنا من توفير تلك الشروط ، ونجاح الثورة الزراعية اليوم دليل على سلامة الخط الذى انتهجناه حيث بدأت ثمارها تبرز وبدأ الفلاحون فى الاستفادة من خيراتها ٠

أيهـــا الاخـــوة ،

جرى حديث كثير حول الحزب وهناك من نادى بتطهيره ، وان كنت أفضل ان تستعمل عبارة أخرى حتى لا نمس عواطف الناس ، ومن طالب باعادة تنظيمه ليتماشى مع الواقع الجديد للبلاد ومع تطور الثورة ، ولا بد عند الحديث عن الحزب أن ننظر للامور نظرة شاملـــة ٠

لقد كان عملنا تحقيقا لترابط تاريخي بحيث جعلنا من تطور البلاد سلسلة تمثل كل حلقة فيها مرحلة من المراحل التاريخية التى عرفتها بلادنا ٠

أن مليون ونصف من الشهداء قد سطروا بدمائهم كلمات جبهـة التحرير الوطنى التى رفعوا لوائها وسقطوا تحته ، وبهذا فان جبهة التحرير جزء من تراثنا الثـــورى الذى يجب أن نحافظ عليه ولا توجد هناك أية قوة يمكن أن تعزلنا عن هذا التـــراث الذى سجلناه بالدمـــاء ٠

ان جبهة التحرير الوطنى تعيش فى ضمير كل المواطنين ، لانهـا تعنى بالنسبـة للمواطن الاستقلال فهى التى طردت الاستعمار وهى التى وحدت الشعب فى معـركة من أكبر المعارك التاريخية فى بلادنا ، ولقد قلت يوما بأن أعظم جيل فى تاريخ البلاد هو الجيل الذى حقق المعجزة التاريخية والذى كافح تحت لواء جبهة التحرير وضحـى بمئات الآلاف من ابنائه لرفع ذلك اللواء ٠

ان العبرة ليست بالاسم وانما بدلالاته ومعانيه ولا يمكن ان نهدم اليوم ما بنيناه بالامس بدمائنا وتضحياتنا ونقوم بالتجديد لمجرد التجديد ٠

النضـــال يفقـد مضمونـه اذا لـم يتجـــدد

والثـــورة ليست احتكـارا لافـــراد

لقد تحملنا مسؤولية 19 يونيو 1965 ولكننا لم نستعمل يوما تعبير ثورة 19 يونيو كما حدث فى بلدان أخرى لاننا نؤمن بثورة واحدة هى ثورة أول نوفمبر ونؤمن بضرورة استمراريتها ومن هنا كان التعبير الذى استعملناه هو انتفاضة أو تصحيح 19 يـونيو

الثورى لانه كان فعلا تصحيحا لمسار ثورة أول نوفمبر ونترك للتاريخ مهمة الحكم على هذا الاختيار ·

غير ان تعبير جبهة التحرير بعد الاستقلال لا يعنى ولن يعنى باى حال من الاحوال تجمع احزاب وهذا ما نقوله اليوم على الملا وسوف نرى فى 27 يونيو القادم بان الشعب الجزائرى فى هذه المرحلة من تاريخه قد اختار نظام الحزب الواحد وهو ما اثبتته كل المناقشات التى دارت بحرية وعلنية عبر التراب الوطنى ، ولن تكون جبهة التحرير الوطنى أبدا تجمع احزاب وهذا مطروح فى الميثاق ، يبقى موضوع المحتوى البشرى وهو محتوى زائل لا يدوم ·

ان هناك الذين مهدوا لثورة 54 ومن بينهم الذين استشهدوا فى 8 مايو 1945 لتلحق بهم قافلة شهداء حرب التحرير الكبرى وهناك الذين كانوا من الاوائل غير ان الثورة ليست احتكارا لافراد والنضال يفقد مضمونه اذا لم يجدد كل يوم ميدان العمل.

اننى أعتقد بأن أحسن وسيلة لتقوية الحزب واستبعاد العناصر التى قد لا تتوفر فيها كل شروط النضال هو انخراط كل العناصر الملتزمة فى اطار الحزب وهنا يتم الفرز من الداخل ويمكن أن تبرز العناصر القيادية الصالحة التى تضمن للحزب قوته وتمكنه من أداء دوره على الوجه الاكمل ·

وعلى اطارات البلاد بوجه خاص أن تكون منخرطة فى الحزب ولعل منهم من لم يتمكن من ذلك قبل اليوم ربما لظروف العمل وكثرة المسؤوليات ، غير ان احتكاك الاطارات العليا بجماهير الشعب المناضلة فى خلايا الحزب هى الطريق الامثل لتفادى وجود هوة بينهم وهو يسمح لهم بالاقتراب أكثر فأكثر من الواقع الشعبى بالاضافة الى ما يحققه من اثراء للمحتوى البشرى لحزب جبهة التحرير ·

هدفنا خلق مجتمع متطور وخال من الامراض الاجتماعية

ان أبواب الحزب مفتوحة لكل الاشتراكيين ، ولكل اشتراكى ومخلص مكانه · والمفاهيم اليوم واضحة سواء فيما يتعلق بالنسبة لمعتقداتنا كشعب أو بالنسبة للسلاح النظرى ومكان كل من يؤمن بهذه الوثيقة وبهذا الاتجاه هو فى داخل صفوف الحزب ·

واذا كنت أقول بان المفاهيم ايوم واضحة فانني أعني بذلك ضرورة اعطاء كل كلمة دلالاتها الحقيقية دون غموض يسمح بأى لبس ٠

ان تعبير الجبهة يعنى جبهة قوات الثورة الاساسية من عمال،وفلاحين،وشبيبة،وجنود. وتعبير تحالف القوى الثورية الذى نستعمله أحيانا يجب أن يعنى تحالف القوات الاساسية للثورة وقاعدة العمل بالنسبة لنا جميعا هى بناء البلاد وتطويرها والقضاء على رواسب الماضى ومخلفاته ٠

لن أحاول أن أتطرق الى كل المواضيع التى تطرق اليها النقاش الجماهيرى والتى سجلت بكيفية أمينة وكاملة ستتيح الرجوع اليها لتتم معالجتها حسب الاسبقيات التى تفرضها أهميتها ٠

ان ما نطمح اليه ، كقيادة وكشعب ، هو خلق مجتمع متطور حديث يكون فى الوقت نفسه مجتمعا نظيفا لا يعانى من الامراض الاجتماعية ، واننى أحاول هنا أن أقدم رأى القيادة فى بعض المواضيع التى طرحت وعلى ضوء الممارسة والتجربة ٠

ان المشاكل التى يشكو منها المواطن ليست قليلة ومنها البيروقراطية ثم المحسوبية والرشوة ٠ ولست أرى داعيا لتذكير المواطن بان عمر الدولة الجزائرية بعد الاستقلال لا يمكنها من الوصول الى حلول جذرية للمشاكل التى تكاد تعانى منها كل المجتمعات والناتجة عن التركة الثقيلة التى ورثناها والظروف القاسية التى عاشها الشعب الجزائرى أثناء العهد الاستعمارى ٠

لكن الثورة تسير قدما فى طريق تغيير الاوضاع والقضاء على تلك المخلفات وعلى الامراض التى يمكن أن يفرزها مجتمع جديد ناشىء يتطور باستمرار وبسرعة كبيرة ٠

حتى تكون الرقابة ناجعة يجب أن تكون شعبية وسيعاقب الراشى والمرتشى

واذا كنت أطالب الاطار مهما كان بأن يدرك بانه خادم للشعب وليس سيدا له فان على المواطنين أيضا ان يتفادوا التعميم عند نقدهم لبعض ما قد يتعرضون له فى معاملاتهم اليومية مع مصالح الدولة ٠

اننى أقول بكل صراحة وبكل موضوعية وبدون أية محاولة للدفاع عن الاطارات لان موقفنا من الاطار ومن المواطن موقف واحد أقول بأنه من الجحود أن يشمل الانتقاد كل الاطارات الوطنية التى بذلت الكثير من أجل بناء هذا الوطن .

ان علينا أن نقضى على الامراض الاجتماعية بطريقة موضوعية تضع كل شىء فى مكانه الصحيح ، ان الرشوة مثلا يجب أن تحارب بالحجة والبينة ويجب أن يعاقب الراشى والمرتشى على حد سواء . ومن هنا فان الرقابة ضرورية ولكى تكون ناجعة يجب أن تكون رقابة شعبية واذا كانت الثورة الجزائرية هى ثورة المجالس الشعبية حيث كونت مجالس منتخبة من القاعدة على كل المستويات وخاصة فى الميادين الاقتصادية والتجارية التى تسير بأموال الشعب . وعلى هذه المجالس ان تقوم بدورها المنوط بها والذى تستجيب فيه للآمال التى يعلقها عليها الناخبون وللثقة التى تتمتع بها من القيادة .

ان أول مراقبة يجب أن تكون عبر المجالس المنتخبة التى يجب أن تتحمل مسؤولياتها كاملة ولعل هذا لم يتحقق بعد على الصورة المرجوة وهنا يتعين على القاعدة أن تقوم بدورها ليتحسن مستوى المجالس باستمرار وتتزايد فعاليتها أكثر فأكثر .

ان قضية الرقابة ومحاربة الامراض الاجتماعية من رشوة ومحسوبية هى قضية الجميع وسنبذل من جهتنا كل جهد لاختيار أحسن الوسائل والطرق لكى تصبح الرقابة حقيقية وفعالة وسيساهم الحزب مساهمة ناجعة فى هذا المجال بعد تقويته وأدائه لدوره الكامل .

لقد سجلت الايام الماضية وقوع حدث بالغ الاهمية فى تاريخ البلاد ولقد عبر الشعب عن رأيه بكل صراحة ودون قيود كما برزت اهتماماته الرئيسية وتأكد التزامه مع الخط الثورى الذى تنتهجه البلاد وسيكون كل ما ورد فى ذلك النقاش الحى موضوع اعتبار .

أول اجراء تطبيقى للميثاق هو الدستور المنبثق منه والمعبر عنه

أيها الاخوة والاخوات ،

ان الاشتراكية يطبقها الاشتراكيون وهذا مبدا مسلم به والسؤال المطروح الآن هو كيف ومن سيطبق الميثـاق ؟

أول اجراء تطبيقي للميثاق هو الدستور ، لان دستور الجزائر يجب أن ينبثق من الميثاق ويعبر عنه ، سواء فيما يتعلق بالحكم وتنظيمه أو بالحزب وأولويته ، أو بالنسبة للميادين الاخرى الاقتصادية والاجتماعية ·

واذا كان الدستور هو الخطوة الاولى فان الذي سيقوم بتطبيق الميثاق كاجراء ثـان هو الحزب المدعم الذي تنخرط فيه كل العناصر المنسجمة مع الميثاق وخصوصا نضـال وكفاح القـوى الاساسية للثـورة ·

وتحضرني هنا اجابة فلاح متعاون على سؤال ، من يطبق الميثاق ، كنت قد استمعت اليهـا في التلفـــزة ·

قال الفلاح ببساطة رائعة : الناس يتساءلون ترى هل سيطبق الميثاق أم ســوف لا يطبق ، لقد كافحنا سبع سنـــوات ونصف وانتزعنا الاستقلال ، وكافحنا سنوات عديدة لكي نبرز القرية الاشتراكية التي نتمتع بها اليوم الى الوجود ، وعلينا اليوم أن نكافح ونناضل لنضمن للميثاق التطبيق العملي الكامل ·

ان أهمية هذه الاجابة التي صدرت عن مواطن يعيش انجازات الثورة وتهمه حماية مكاسبها هي انها الامل الحقيقي الذي يعبر عن ســـلاح التطبيق الفعال وهــو التجنيد الجماهيري حيث لا أحد يقول : « ··· اذهب أنت وربك فقاتلا...»·

ان الميثاق هو ميثاق كل المناضلين وتطبيقه يجب أن يكون الشغل الشاغل للجميع ، ومن هنا لا يجب أن يكون طرح السؤال حول التطبيق بصيغة ، كيف ستطبق القيادة الميثـــاق ؟

كل الاهداف الواردة في مواثيقنا انجزت

وعلينا جميعا تطبيق هـذا الميثاق الذي هـو ربـاط بيننا

ان تطبيق الميثاق الوطني هو أمر لا ريب فيه لان الثورة الجزائرية تغلبت دائما على كل التحديات ، ولقد حققنا كل الاهداف التي سطرناها بل وتجاوز التحقيق الاهداف المعلنة نفسهـا ·

ان الاهداف التى جاءت فى بيان 1954 قد تحققت وزيادة ، وأهداف ميثاق الصومام قد تحققت وزيادة ، والاهداف التى احتـوى عليها ميثاق طرابلس مـن أجل ثـورة ديمقراطية شعبية قد تم تحقيقها بل وتجاوزها ، وكذلك ما جاء فى ميثاق الجزائر الذى صدر فى ظروف تعرفونها جيدا ، والذى تجاوزته بكثير ، الانجازات والتغييرات العميقة التى تمت فى السنوات العشر الماضية ٠

كما يمكننا القول بأن محتوى بيان ـ 19 يونيو 1965 ـ قد انجز وطبق ، علينا اذن أن نستعد لتطبيق هذا الميثاق وهذا يتطلب التعبئة والتجنيد والالتفاف حـول هذه الوثيقة التاريخية ، وليكن موعدنا عام 1982 عام العيد العشرين للاستقلال ولنتم بتحد جديد يكلل بنجاح كما كللت به كل التحديات لنستطيع ان نقفز ببلادنا وثورتنا قفزة جـديـدة ٠

أيهـا الاخـوة ،

كان وعدنا فى مثل هذا اليوم من العـام الماضى أن نقدم هذه الوثيقة التى تمـت المصادقة عليها اليوم ، وان نستكمل مؤسسات الدولة ، وهو ما سيتم قبل نهايـة هذا العام لنتجه بعد ذلك الى تحقيق بقية البرنامج المتعلق ببناء الحزب ليكون فى مستوى عظمة الثورة الاشتراكية ٠

ان المرحلة التى نعيشها اليوم هى مرحلـة ممارسة الديمقراطية الاشتراكية فى اسمى معانيها ونحن على يقين بأن النصر سيكون حليفنا فى هذه المعركة الجديدة ويكون الميثاق الوطنى الرباط الوثيق الذى يجمع بيننا والوثيقة التى نلتف حولها كمناضلين اشتراكيين ، والمجد والخلود لشهدائنا الابرار ٠

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ٠

في هذا العدد

لقد أفردنا هذا العدد الخاص من مجلة « الأصالة » لمدينة عنابة بمناسبة انعقاد الملتقى العاشر للفكر الاسلامى بها . وهذا اتباعا لنهج سرنا عليه منذ الملتقى السادس في العاصمة وذلك بمناسبة العيد الألفى لتأسيس الجزائر من طرف بلكين بن زيرى، ومليانة ، والمدية ، والعيد العاشر لاسترجاع الاستقلال ، وفاتنا أن نفعل ذلك في الملتقى السابع في تيزى وزو . ولكن عدنا اليه في الملتقى الثامن في بجاية ، والتاسع في تلمسان وفى العاشر هذه المرة في عنابة .

ونرجو أن نستمر على هذا التقليد الحسن .

وأخيرا ننوه بجهود جميع الاساتذة الافاضل الذين لبوا دعوتنا وساهموا في هذا العدد مساهمة هامة ومشرفة .

الأصالة

عنابة عبر التاريخ

يحيى بوعزيز
أستاذ بالمعهد التكنولوجى للتربية
وهران ـ الجزائر

تقع عنابة فى شرق البلاد على ساحل البحر فى خليج عريض يعطى وجهه الى الناحية الشرقية ، ويشرف عليها من الجنوب جبل ايدوغ الاشم بغاباته الجميلة المتناسقة ، وحقوله وبساتينه الخلابة الساحرة ،وفندقه السياحى الضخم « سرايدى » الذى يجثم على قمته كانه درة فى جبين عروسة شابة ، وبثرواته الطبيعية المعدنية النحاسية الهامة التى يزخر بها باطنه ، ويزود بها صناعة البلاد الوطنية الشابة الناهضة التى تمثل احلى مفاخر الجزائر الحديثة .

ويشق عنابة من زاويتها الشمالية الشرقية وادى سيبوس بجسوره الجميلة ، ومياهه المتدفقة ، وسده الضخم بونا موسة . وتنفتح المدينة من الجنوب وراء جبل ايدوغ على

ترتيب دراسات هذا العدد روعى فيه التسلسل التاريخى .

سهل فسيح الارجاء ، بديع الجمال ، خصب التربة ، عالى الرطوبة ، غنى بالثروات الفلاحية المتنوعة والمتعددة ، من حبوب ، وخضر ، وفواكه ، ونباتات صناعية ، كالتبغ ، والكاوكاو (فول سودانى) ، ودوار الشمس ، وحيوانات خاصة الابقار الحلوبة ، مما جعل هذا السهل فى مستوى سهل متيجة أو لربما أحسن منه ·

ومما زاد فى أهمية هذا السهل ، سد بونا موسة الذى يزوده بمياه السقى والرى ، وأدى الى مضاعفة انتاجه وتمويعه أكثر بمرور الزمن · وترتبط مدينة عنابة بمناطق تعدينا لحديد فى الوانزة وبوخضرة ، والسماد الطبيعى (فوسفاط) فى الكويف وجبل العنق ، بخط سكة حديدية مكهرب ينقل تلك الثروات اليها لتسويقها سابقا وتكييفها وتصنيعها حاليا فى المعامل التى أقيمت بها خاصة مصنع الحجار للحديد والصلب · ومصنع تكييف السماد الطبيعى ·

نشاة مدينة عنابة وتطورها التاريخى :

كانت عنابة فى القديم تدعى : هيبو ريجيوس : Hippo-Régius ،ونواتها القديمة تقع على بعد كيلومترين اثنين، من عنابة الحديثة، ويرجح الآن أن تكون ضمنها ، ولا يعلم بالضبط متى تأسست ، ولكن الفينيقيين استقروا بها منذ أواخر القرن التاسع قبل الميلاد بعد أن أسسوا مدينة قرطاجنة فى خليج تونس · واكتسبت أهميتها من مينائها الذى يوجد فى مأمن من الرياح الغربية ، ويسهل على السفن الرسوب دون أن تتعرض لخطر الزوابع ، ولذلك كثر ارتياد الاساطيل الفينيقية والقرطاجية اليها لممارسة العمل التجارى مع السكان ، وبمرور الزمن تحولت الى سوق تجارى وفلاحى فى عهد القرطاجنيين · (1)

وخلال العهد الرومانى واصلت هذه المدينة نموها وتطورها ، واتخذها يوليوس قيصر، هى وقالمة، الحد الغربى والجنوبى الغربى لولاية افريقيا الجديدة التى أسسها،وربطها الرومان بمدينة تبسة الى الجنوب بطريق معبد كبير ، ووضعوا بها وبمداوروش حاميات عسكرية ، وانشأوا بها صهاريج كبيرة لحفظ مياه الامطار لغرض تزويد السكان بمياه الشرب تسع لحوالى اثنى عشر ألف متر مكعب ·

(1) شارل أندرى جوليان : تاريخ شمال افريقيا . ترجمة محمد مزالى ، والبشير ابن سلامة · (الدار التونسية للنشر 1969) ، ص 109 و 234 ·

وعندما اقتطع الامبراطور الرومانى كاليكولا ، نوميديا من ولاية افريقية اتخذ عنابة الحد الفاصل بينهما غربا • (2)

وكما ازدهرت الفلاحة والتجارة فى عنابة القديمة ، ونما العمران وتطور ، أخصب الفكر كذلك ، وشاركت عنابة فى الابداع الثقافى ، والدينى ، والاجتماعى ، وبرز بها مفكرون عالميون تجاوز تأثيرهم الفكرى هذه المنطقة ليعم كل اصقاع أوروبا فى تلك العصور القديمة •

ففى مطلع القرن الثالث الميلادى برز بها الكاتب المداوروشى الشهير أبوليوس المولود حوالى عام 125 م ، بقرية مداوروش قرب عنابة ، والذى كان يعتبر أكبر كتاب افريقيا آنذاك (3) فقد استقر هذا الكاتب بمدينة قرطاجنة فترة من الزمن للدراسة ، ثم رحل الى ايطاليا ، واليونان ، وآسيا الصغرى ، فى رحلة دراسية طويلة لطلب العلم ، والاستزادة من المعارف ، والاطلاع على نشاط الحواضر الكبرى • واعجب بالافكار الافلاطونية الرائجة آنذاك ، واتخذها لنفسه أسلوبا ومنهجا • وعند ما عاد استقر بعض الوقت فى طرابلس ، وتزوج هناك ، وتفرغ للكتابة والتاليف حول عدة مجالات واعتبر فيما بعد أديبا وقصاصا عاليا وعالميا • وفى قرطاجنة الف قصته المشهورة : المسوخ : les métamorphoses أو الحمار الذهبى (4) • وفى منتصف القرن الرابع الميلادى انجبت مدينة تاجاست : Thagaste (سوق أهراس) رائدا آخر من رواد الفكر الافريقى العالمى ، احتضنته فيما بعد عنابة ، وجعلت منه زعيما روحيا وسياسيا ، وأكسبها هو أيضا شهرة واعتبارا ، ذلك هو القديس أوغسطين الذى ولد بسوق أهراس عام 354 م ، وقضى صدر شبابه بها • ثم انتقل الى مداوروش موطن الكاتب أبوليوس ، ليواصل تعلمه هناك ودراسته • ومن هناك انتقل الى قرطاجنة ، واعتكف بها حوالى خمس سنوات كاملة على الدراسة والتعلم فى جو من التحرر وعدم التقيد ببعض التقاليد الشائعة ، واتخذ لنفسه خليلة على غير عادة المسيحيين ، ولم يتخل عنها ، الا بعد تدخل أمه لديه عدة مرات ، والحاحها عليه فى ذلك •

---

(2) نفس المصدر ، ص 168 و 196 ــ 198 و 212 •
(3) نفس المصدر ، ص 251 ــ 252 •
(4) أحمد صفر : مدينة المغرب العربى في التاريخ (تونس 1959) ج 1 ، ص 253 ــ 254

ومن قرطاجنة شد الرحال الى روما ، وميلانو ، سنة 383 أو 384 ، وتجول فى بلاد الرومان ، واستعمل عقله وفكره حتى عاد اليه هدوؤه النفسى ، وزال عنه تشككه السابق فآمن عن عقيدة وايمان بالمسيحية ، وعـاد الى افريقيا ، واستقر بقريته سوق اهراس لمدة ثلاث سنوات فقد خلالها أمه وبنته ، ولكن الاقدار كانت تهيئه لمناصب عالية (5) ٠

ففى عام 391 انتقل الى عنــابة ، واختير مستشارا لاسقف قرطـاجنة أوريليوس Aurélius ، ثم معاونا له عام 396 (6) ، وأخيرا عين أسقفا لمدينة عنابة نفسها بعد أن رقى الى هذا المنصب ، ومن يومئذ ارتبط تاريخ هذا الرجل لمدينة عنابة وترأس بهـــا عدة مجاميع دينية فى أعوام 393 و 395 و 426 (7) ، لمواجهة تيار مذهب الدوناتية أو الدوناتوسية الذى اعتبر هرطقة وابتداعا فى المسيحية ، وشنت عليه الكنيسة حــــربا شعواء ٠ وشارك أوغسطين فى مؤتمر قرطاجنة عام 405 (وقيل عام 411 م) الذى اعتبر الدوناتوسية تيارا ملحدا يجب مقاومته بكل الوسائل ٠

وكان أوغسطين خطيبا مصقعا ، فصيح اللسان ، قوى التأثير (8) ، خلف لنا وراءه عـددا من الرسائل والكتب فى مجالات فكــرية ودينية متعـددة منها : مدينة اللـه : la cité de Dieu ، واعترافاتى : mes confessions ، وحوالى 276 رسالة أخرى ٠ ولم تكتسب المسيحية سمعتها وقيمتها بافريقيا الا بفضل هذا الرجل (9) ، لانه هو الشريان الرئيسى الذى حمل فلسفة افلاطون وآراءه الى الغرب الاوروبى المسيحى ، بعد أن اطلع عليها هو من كتابات شيشرون ، وافلاطون ، واتخذها منطلقا لوضع فلسفته الدينية ٠

فالفلسفة الاوروبية التى بلغت الذروة على أيدى ديكارت مصدرها الاول هو القديس أوغسطين ، وتقوم على أساس الايمان بوجود الفكر الذى يستلزم وجود العقل الذى يعتمد على أساس الثالوث المشهور : « المعرفة والادراك والارادة » ٠ ومما جعل الاهمية

(5) نفس المصدر ، ص 104 ـ 118 ٠
(6) نفس المصدر ، ص 368 ـ 369 ٠
(7) عبد الرحمن بن محمد الجيلالى : تاريخ الجزائر العام (الجزائر 1954) ج 1 ، ص ، 105 ـ 106
(8) الدكتور سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربى (دار المعارف 1965) ص 67 ـ 68 ٠
(9) جوليان ، ص 314 ـ 327 ٠

لافكار أوغسطين هو أنه كان الواضع الاول للمذهب الايرادى فى الفلسفة المسيحية ، وهو الذى عالج مشكلة الشر ، كما أن بذور مذهب القضاء والقدر فى المسيحية تعود الى أفكاره وآرائه (10) ٠

وعندما غزا الوندال هذه البلاد فى مطلع القرن الخامس الميلادى اقتحم أوغسطين ميدان السياسة ، وشارك فى محاولة انقاذ بلاده من وحشية الغزاة الجدد ، فتدخل لـــدى الامبراطورة الرومانية بلاسيديا من أجل اعادة الوالى الرومانى بونيفاس الى منصبه بعد أن عزل لاتهامه بالتواطىء مع الوندال ، فأعادته استجابة لتدخلاته ، وعندما انهـزم هذا الوالى أمام الوندال انسحب الى عنابة واعتصم بها ، وتصدى معه أوغسطين للمقاومة طيلة أربعة عشر شهرا الى أن توفى فى أوت 430 (11) ٠ فاتخذها الوندال عاصمة لهم بعد احتلالها ، وأبرموا لها مـع الرومان اتفاقية 11 فيفرى 435 م ، التى خـــولت لهم امتيازات خاصة بالبلاد ٠ وبقيت عنابة عاصمة للوندال حتى احتلوا قرطاجنة عام 439 ، فنقلوا عاصمتهم اليها (12) ٠

وتمضى السنون والاحقاب ، ويدخل الاقليم تحت السيطرة الاسلامية ، وتسير عنابة مع الركب الحضارى ، ويبرز بها الاعلام والمفكرون ، ويشاركون فى خلق وبناء حضارة هذا الاقليم ، ويظهر الشيخ أبو عبد المالك مروان بن على الاسدى القطان البونى العنابى كفقيه ومحدث بارز ، وبارع ، فى كنف الصنهاجيين الحماديين ، فتنقل هـــذا الرجل بين قرطبة بالاندلس ، وعواصم الشرق والقيروان، للدراسة والاطلاع والتأليف . وكان من نتيجة اعماله العلمية شرحه لموطا مالك فى الفقه والعبادات الذى نال شهرة واسعة فى الاوساط العلمية والثقافية والدينية شرقا وغربا وبقى يواصل نشاطه العلمى والثقافى حتى توفى بالقيروان عام 1047 (439 هـ) (13) ٠

(10) الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشــور : أوروبا العصور الــوسطى (القاهرة 1959) ج 2 ، ص 154 ــ 156 ٠
(11) يحيى بوعزيز : الموجز فى تاريخ الجزائر (الجزائر 1965) ج 1 ، ص 26 و 60 ــ 61
(12) مبارك بن محمد الهلالى الميــلى : تاريخ الجــزائر فى القديم والحــديث ، ط 2 ٠ (الجزائر 1963) ، ج1 ص 96 ٠
(13) الجيلالى ، ج 1 ، ص 355 ــ 356 ٠

والى جانب النشاط الثقافي ، كانت عنابة مركزا اقتصاديا هاما ، نشطت بها التجارة والصناعة ، واشتهر ساحلها وساحل الخزر (القالة) بوفرة أصداف المرجان التى دأب سكانها على اصطيادها واستخراجها للاتجار به مع الخارج خاصة الهند والصين (14) ·

ولاهمية ميناء عنابة ، ووفرة المعادن والاخشاب حولها، اتخذها الفاطميون هى والقالة مركزين هامين لصناعة السفن ، واصلاحها ، وقاعدة لرسو الاساطيل البحرية الحربية منها والتجارية ·

وعندما قامت دولة الموحدين، قضى عبد المؤمن بن على الكومى على كل الامارات المحلية الحمادية ، ومنها امارة عنابة التى كانت تتبع بجاية الحمادية ، فاصبحت من القواعد الهامة بعد ذلك للاسطول الموحدى الكبير الذى تصدى لنشاط النورمان البحرى التوسعى ، وقضى على بقاياهم بالمهدية التى كانوا يحتلونها لعدة سنوات هى وبعض الموانى التونسية الاخرى ·

لقد استغاث حاكم عنابة الحمادى الحارث بن العزيز ، بالنورمان ضد الموحدين ، فلبوا نداءه ، وانزلوا قواتهم بعنابة عام 1153 ، وبقوا بها حتى عام 1136 ، ثم داهمهم الموحدون وقضوا عليهم ، وقتلوا الامير الحمادى ، وحرروا عنابة من نيرهم بصورة نهائية، واتخذوها قاعدة هامة لصناعة السفن واصلاحها ، هى والقالة ، ولرسو الاساطيل ، فأصبحت فى عهدهم ثالثة الاثافى للقواعد البحرية الموحدية مع وهران ، وهنين ، ولعبت دورا بارزا فى مقاومة الغزاة النورمان فى الحوض الغربى للبحر المتوسط · وبلغت قدرة استيعابها للسفن الى مائتى سفينة مع القالة (15) ·

ومما زاد فى أهمية عنابة ومنائها ، توفرها على معدن الحديد لصناعة بعض الادوات الضرورية لصناعة واصلاح السفن ، وعلى اصداف المرجان لاستغلالها فى التجارة الخارجية مما جعل دخلها يرتفع الى عشرين ألف دينار ، ودخل القالة الى عشرة آلاف دينار سنويا من صيد المرجان (16) ·

---

(14) نفس المصدر ، ص 301 ·
(15) الجيلالى ، ج 1 ، ص 261 _ 266 و 333 _ 334 و 378 _ 379 ·
(16) عبد الرحمن بن خلدون : المقدمة (بولاق 1274 هـ) ، ص 123 ·

وقد زارها الجغرافي العربي الافريقي الشهير الشريف السبتي الادريسي في القرن الثاني عشر الميلادي ووصفها بقوله : « انها كان بها أسواق حسنة ، وتجارة مقصودة ، وأرباح موجودة ، وكان بها كثير من الخشب موجود جيد الصفة ، ولها بساتين قليلة وشجر ، وبها من أنواع الفواكه ما يعم أهلها ، وأكثر فواكهها من باديتها ، والقمح بها والشعير في أوقات الاصابات كما وصفنا كثير جدا ، وبها معادن حديد جيد ، ويزرع بأرضها الكتان ، والعسل بها موجود ممكن ، وكذلك السمن ، وأكثر سوائمهم البقر ، ولها أقاليم وأرض واسعة تغلب العرب عليها » ، وزاد البكري على هذا بأن معظم تجارها من أصل اندلسي ، وأن مواردها من غير جباية الاموال ، عشرون ألف دينار (17) ويعني بذلك مدخول صيد المرجان على ما يظهر .

وعند ما تختفي الدولة الموحدية من الميدان ، وتقوم على أنقاضها دول المغرب العربي الثلاثة : الحفصية ، والزيانية ، والمرينية ، يفرض الحفصيون سيطرتهم على شرق المغرب الاوسط (الجزائر) ، وتصبح عنابة امارة حفصية ضمن الامارات الحفصية الاربعة بهذه البلاد وهي : امارة عنابة ، وامارة بجاية ، وامارة قسنطينة ، وامارة الزاب (18) .

وتدخل عنابة معترك الصراع ، خلال هذه الفترة ، في اطار الدولة الحفصية ، مع تبعيتها لامارة بجاية المركزية وتشارك في الاحداث الجارية بالمنطقة حقبة من الزمن ، ويشارك شعبها في مقاومة حملة لويس التاسع الفرنسي الصليبية في سبتمبر 1270 م ، ويكلل بالنصر الحاسم (19) . ولا تقنع عنابة بهذه التبعية ، فتسعى للتفوق ، ويصل أمير الفضل بن بكر الى منصب الرئاسة على عرش تونس الحفصي نفسه بعد الغزو المريني للجزائر وتونس بزعامة السلطان أبي الحسن المريني عام 750 هـ (1349 م) (20) .

وهذا الخوض في غمار المعارك السياسية والعسكرية لا يمنع عنابة من مواصلة نهضتها الفكرية والثقافية ، التي استهوت الكثير من رجال العلم والادب ، فانتقل اليها

(17) عن الجيلالي . ج 2 ، ص 222 ـ 223 .
(18) الجيلالي . نفس المصدر . ج 2 ، ص 29 ـ 30 .
(19) نفس المصدر ، ص 83 .
(20) أحمد توفيق المدني : حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر واسبانيا ، 1492 ـ 1792 (الجزائر ـ بدون تاريخ) ، ص 141 .

العالم المشدالى الكبير ، أبو الفضل محمد بن محمد بن أبى القاسم المشدالى البجائى ، حوالى 1442 م ٠ واستقر بها بضع سنوات قبل ان يلتحق بمصر (21) ، وكان عالما كبيرا ، واسع الثقافة والمعرفة فى ميادين ومجالات كثيرة ٠

وتستمر عنابة فى سيرها وتطورها الى أن يرمى الاسبان بثقلهم بهذه المنطقة خلال القرن السادس عشر ، من أجل الغزو والاحتلال ، بعد أن نجحوا فى طرد مسلمى الاندلس من ديارهم أواخر القرن الخامس عشر ٠ وتكون عنابة احدى أهدافهم فيغزونها ويحتلونها بعض الوقت عام 1510 بعد احتلالهم للمرسى الكبير ، ووهران ، وبجاية ، ولكن سكان عنابة يتصدون لهذا الغزو ، ويخوضون المعارك المتعددة ، ويظهر خير الدين كبطل منقذ فى هذه البلاد ، وينتزع عنابة من الاسبان عام 1535 ، ويعيد اليها حريتها فى اطار دولة المغرب الاوسط الذى أصبح يسمى منذ ذلك التاريخ بالجزائر ٠

ولعبت عنابة نفس الدور الذى لعبته خلال صدر الدولة الحفصية ، فانطلق منها أميرها أبو العباس أحمد (حميدة) ليسيطر على عرش تونس ، وينتقم من سلطانها الخائن الحسن الحفصى ، الذى قبل حماية الاسبان قبل ذلك ، ورضى بالذل والعار ، فيسمل عينيه ، وينفيه الى القيروان ليموت هناك هما ونكدا من مصيره المظلم (22) ٠

وعندما تستقر السلطة التركية وتتركز بالجزائر ، ستصبح عنابة أهم موانى بايليك الشرق (قسنطينة) ، وتتخذ قاعدة بحرية كبيرة لاسطول الجزائر الحديث الذى سيواجه بقوة وعن جدارة وعنف غارات قراصنة أوروبا واطماعهم وحملاتهم المتكررة على هذه البلاد سنوات طويلة ٠ وتبقى هكذا صامدة حتى حملة الاحتلال الفرنسى للجزائر عام 1830 ، ثم يظهر الصراع حولها بين الحاج أحمد باى زعيم بايليك قسنطينة ورائد المقاومة الجزائرية فى الشرق الجزائرى ، وخصمه ابراهيم ، والفرنسيين الغزاة الجدد للبلاد ، وذلك لاهميتها الاستراتيجية ٠ فيحصنها الحاج أحمد باى بعض الوقت ، ثم يعتصم بها الباى ابراهيم خصمه ، وأخيرا يحتلها الفرنسيون عام 1832 ، ويتخذونها قاعدة هامة

(21) نفس المصدر ٠ ج 2 ، ص 255 ٠

(22) حسن حسنى عبد الوهاب : خلاصة تاريخ تونس (تونس ـ محرم 1373) ، ص 118 ـ 127 ٠

بحرية وبرية للهجوم على قسنطينة قاعدة بايليك الشرق . واسدها الحاج أحمد باى ، فمنها جهزوا حملة عام 1836 التى انتهت بانهزام كلوزيل ، وعزله عن الجزائر كلهـا ، ومنها جهزوا حملة اكتوبر 1837 التى انتهت بمقتل قائدها دامرمون ، وسقوط قسنطينة فى يد الغزاة الفرنسيين ، وهزيمة الحاج أحمد باى وانسحابه الى الاوراس والصحراء لمدة أحد عشر عاما أخرى قبل ان يقع فى يد أعدائه عام 1848 (23) . وتبقى عنابة ، ومعها كل البلاد ، حبيسة فى يد الغزاة الفرنسيين قرنا وثلاثين عاما ، حاولوا خلالها ايقاف عجلة التاريخ ، ولكن عنابة تصمد وتقاوم ببسالة ، وتبرز بمعاركها الكبرى فى ثـورة نوفمبر الخالدة عام 1954 ـ 1962 ، ويسجل المجاهدون بها بطولات رائعة مــن ضمنها هجومهم التاريخى عليها أيام 23 و 24 و 25 ماى 1959 التى انتهت باسقاط ثلاث طائرات وقتل عدد كبير من ضباط العدو وجنوده (24) .

وبعد تحقيق الاستقلال الوطنى ، حصلت عنابة على مكسب قومى رائـــع ، عندما اختيرت لتكون مركزا للصناعة الثقيلة الجزائرية الحديثة التى تعتبر المنطلـــق الحقيقى لثورتنا الصناعية الحديثة الشابة ، والتى بها دخلت بلادنا عـــالم الصناعة بمفهومـه الحقيقى ، ومن بابه الواسع . فعنابة فى هذا الميدان بالنسبة للجزائر ، مثل بريطانيا بالنسبة لاوروبا كلها فى القرن التاسع عشر . منها أشرق فجر الصناعة ليشع عـــلى أوروبا آنذاك ، وكل بلاد الجزائر فى عهدها الحاضر الزاهر . وستكون جامعة عنابـــة التكنولوجية ، التى افتتحت خلال العام الماضى ، مكسبا آخر لدعم صناعتها الحديثـــة ، ونهضة الجزائر كلها التى تشق طريقها نحو المستقبل بثقة وعزم وتصميم .

تلك هى الملامح العامة لعنابة عبر التاريخ ، وهى عبارة عن خلاصة مختصرة نرجـو أن تكون منطلقا للدراسات المتخصصة ، التى ستكشف المزيد من امجاد هذا البلـــد الشاب الذى حرم ، حقبا كثيرة ، من التعرف على ماضيه الحقيقى .

---

(23) محمد العربى الزبيرى : مذكرات أحمد باى وحمدان خوجة وبوضربة (الجزائر 1973) ، ص 26 ـ 27 و 33 ، وهنا وهناك .

(24) يحيى بوعزيز : ملف ثورات الجزائر فى القرنين التاسع عشر والعشرين (مخطوط 1975) ، ص 157 .

هيبون القديمة

محمد بشير شنيتى
معهد العلوم الاجتماعية
جامعة الجزائر

اذا كانت شهرة المدن التاريخية تقاس بمدى عراقتها، وبالاحداث الجسام التى مرت بها دون أن تفنيها وبالاشعاع الحضارى الذى مارسته على محيطها الجغرافى، وبمدى المساهمة الايجابية فى حركة التاريخ ، فان مدينة هيبو القديمة الواقعة على مقربة من عنابة الحالية تعتبر من بين المدن الجزائرية القليلة التى تبوأت هذه المكانة المرموقة عبر التاريخ القديم ٠

نشأة المدينة

فكيف نشأت هيبون ومن مؤسسها ؟

من الشائع ان بلاد شمال افريقيا قد خرجت من عصور ما قبل التاريخ مع دخول الفنيقيين اليها فى أواخر الالف الثانية قبل ميلاد المسيح عليه السلام ٠ أى أن التاريخ

لم ينبلج فجره على سكان بلاد المغرب القديم الا مع الرواد الفنيقيين الاوائل الذين حطوا رحالهم على شواطىء الشمال الافريقى . فاصبحت محطاتهم التجارية منبع اشعاع حضارى أزاح ضباب عصور ما قبل التاريخ من سماء المنطقة. وبذلك كانوا رسل حضارة فضلا عن كونهم رواد بحر وتجارة .

تقع هيبو على مصب وادى سيبوس عند السفوح الشرقية لمرتفعات ايدوغ العتيدة ، تنبسط حواليها سهول خصبة على امتداد يتوغل الى عمق أربعين ميلا طولا وستة وعشرين ميلا عرضا ، أى ما يساوى حوالى 64 كلم طولا و 40 كلم عرضا (1) . وعلى هامش هذه السهول تبدأ المرتفعات النوميدية فى الظهور ، حيث الغابات والاشجار المثمرة ذات الشهرة التاريخية . وتطل على هيبو من الخلف مرتفعات ايدوغ بشموخ ، تلك الحصون المنيعة للمقاومة النوميدية عبر التاريخ القديم ، وهى مرتفعات تزخر بثروة معدنية هامة كالرخام والحديد والنحاس ، مما ساهم فى تعدد الموارد الاقتصادية لهيبو ، تختفى المدينة براس الحراسة الذى يحميها من الرياح الغربية المثيرة للزوابع والامواج العاتية ، فهى على خليج هادىء المياه ، قليل العمق . انها أنسب مكان طبيعى لرسو السفن . فلا غرو ان تعلقت بذلك المكان الاعين الفاحصة للبحارة الفنيقيين الاوائل فنزلوا به واسسوا لهم أول مركز عمرانى على سواحل نوميديا الشمالية .

غير أن هناك من الباحثين من يفترض تاسيس هيبو على أيدى البحارة الكريتيين (نسبة الى جزيرة كريت) أو الايجيين (2) (وهم سكان جزر ايجى) ، على اعتبار ان هؤلاء البحارة كان لهم قصب السبق فى هذا المجال خلال الالف الثانية قبل الميلاد ، وخاصة فى عهد ازدهار الحضارة المينوية (منتصف الالف الثانية ق م .) عندما كانت السفن الكريتية والايجية تجوب الحوض الشرقى للبحر المتوسط ، محتكرة التجارة بين شعوبه .

لكن جمهرة الباحثين لا يميلون الى هذا الافتراض ، ويرجحون ادراج هيبو ضمن المنجزات الفنيقية على السواحل المتوسطية (3) ، خاصة وأن اسمها (هيبو) مشتق من

(1) أنظر Jean Léon l'Africain : Description de l'Afrique ; T. 2, p. 369

(2) أنظر Stephane Gsell : Atlas archéologique de l'Algérie ; T. 2, p. 5, F. 9.

(3) أنظر Tissot : Géographie des provinces d'Afrique : T. 2, p. 90.

لفظ (أوبون Ubbôn) الفنيقى الذى يعنى المكان الخفى أو المخبأ أو الخليج . ولعل (أبون) كان الاسم الشائع الاستعمال أثناء الفترة السابقة للرومان ، وأن التحريف داخله فيما بعد على لسان الاغريق واللاتين فأصبح هيبو Hippo.

وهناك من يذهب الى القول بان هيبو من تأسيس القرطاجيين (4) . ولعل هذا الرأى يستند الى فترة الزعامة التى مارستها قرطاجة على المستوطنات الفنيقية بالسواحل الافريقية ابتداء من القرن السادس قبل الميلاد .

ان أسباب تعدد الفرضيات حول تاريخ تأسيس هيبو والذين أسسوها يعود الى ندرة المصادر المادية (الاثريات) والكتابية (النصوص) التى يفتقر اليها تاريخ شمال افريقية العائد الى ما قبل القرن الخامس قبل الميلاد .

غير أنه يمكن القول بشىء من التاكيد ان هيبو تندرج ضمن الاسكالات (المحطات البحرية) التى أنشأها الفنيقيون على شواطىء شمال افريقيا ابتداء من القرن الثانى عشر قبل الميلاد . ثم تطورت بفعل مواردها الاقتصادية الهامة فأصبحت مركزا تجاريا ممتازا ، ما لبث ان اتسع وصار مدينة متسعة الارجاء .

كان معظم سكان هيبو فى بداية أمرهم من الجالية الفنيقية لان علاقة هؤلاء بالنوميديين كانت محدودة ، حيث اقتصرت على التعامل التجارى بالدرجة الاولى . ثم ان الفنيقيين لم يكن يهمهم فى بداية الامر تعمير المنطقة ، وانشاء سلطة مركزية فيها . ذلك أن تبعيتهم للوطن الام (فنيقية) كانت كبيرة ، بالاضافة الى حرصهم على احتكار التجارة والاحتفاظ بأسرار البحار وما وراءها من مصادر الثروة ، ومن ثم لم يحاولوا اشراك النوميديين فى اهتماماتهم .

غير أن هذا لم يمنع من تواجد نوميديين بالمراكز الفنيقية كعمال مساعدين فى تفريغ السفن أو شحنها ، وبالقيام بأعمال متنوعة أخرى كالوساطة بين التجار الفنيقيين وأهالى نوميديا من المزارعين والرعاة ، ذلك التواجد الذى مهد السبيل لتفاهم أكثر ، وتعاون أنفع ، واندماج أشد فى العهد البونى (القرطاجى) .

(4) أنظر La Grande Encyclopédie ; T. 20, p. 111.

هيبـــون البونيـــة

وابتداء من القرن السابع أخذت قرطاجة تستجمع الزعامة السياسية على المستوطنات الفنيقية بشمال افريقيا كي تتمكن من احتكار التجارة مع الداخل والخارج ·

ولم يات القرن الخامس قبل الميلاد حتى أصبحت قرطاجة تنشىء محطات تجاريـة خاصة بها على الشواطىء المتوسطية ثم الاطلسية ، فتكونت لديها امبراطورية بحرية تجارية · وفي خضم التوسع القرطاجي انضمت هيبو الى الدولة القرطاجية ، وأصبحت من أهم مدنها التجارية على الساحل النوميدي ، وأخذت أنظمة هيبو الادارية والاجتماعية تكتسي طابعا قرطاجيا ، فكان لها مجلس الكبار وقاضيان (5) · واحتكر البونيـــون المناصب السياسية والادارية ، وسيطروا على الحركة التجارية مكونين طبقة ارستقراطية ممتازة في المدينة ، وأخذ التأثير الحضاري البوني يتغلغل في أوساط المجتمع النوميدي ، فانتشرت اللغـــة البـونية بين النـاس ، وقلـد القـــوم البونيـــين في أساليـــب حياتهـــم اليـــومية ، وفي معتقـــداتهم · وتـــزايد عـــدد النـازحـين الى هيبـــو من النوميديين ، فأصبحوا يشكلون أغلبية في المدينة مما عمل على انتشار أوســـع للحضارة البونية في أوساط المجتمع النوميدي ، ليس في المدينة فحسب ، بل وفي الارياف كذلك ، تلك الارياف التي احتفظت باللغة البونية الى عهد القديس أوغسطين (القرن الخامس الميلادي) رغم جهود الرومان المكثفة في مجال « رومنة » البلاد ونشر اللغة اللاتينية بين الناس · (6)

أما الدلائل المادية على هذا التأثير فتشهد به النقوش البونية العديدة التي احتفظت بها خرائب هيبو القديمة (7) ·

وينبغي التنبيه هنا الى أن انتشار الحضارة البونية قد تجاوز الابعاد الزمنية للسيطرة القرطاجية على هيبو وضواحيها ، بحيث بلغ هذا المد الحضاري أوجه في عهد السيادة

(5) أنظر S. Dahmani : Hippo Régius ; p. 13

(6) أنظر مقـال Luis Leschi : Hippône à travers les siècles, (Bull. de l'Ac. d'Hippone) n° 38. 1961.

(7) أنظر S. Dahmani : Hippo Régius ; P. 12.

النوميدية على هيبو . مما يدل على أن الحضارة البونية فى البلاد لم تعمل على نشرها سيطرة سياسية ، أو ضغط عسكرى ، ولا ادارية قرطاجية محكمة . وهو وجه بارز من أوجه الخلاف بين الحضارتين البونية والرومانية فى بلاد المغرب .

هيبون النوميدية

ظلت هيبو تابعة للدولة القرطاجية الى الحرب البونية الثانية ويحتمل أنها تعرضت لمحاولة فتح من طرف الملك النوميدى غية Gaïa والد ماسنيسا . كما استهدفتها حملة لاليوس الرومانية عام 206 ق م. فنالت منها الكثير .

وابتداء من معركة زاما Zama الشهيرة عام 202 ق . م . التى انهزمت فيها جيوش حنبعل القرطاجى أمام جحافل سيبيون الرومانى (الملقب بالافريقى لانتصاره فى افريقيا) أصبحت هيبو تابعة لمملكة نوميديا الموحدة التى انتصب عليها ماسنيسا ملكا باعتراف رسمى من مجلس الشيوخ الرومانى ، عملا بالاتفاق الذى تم بينه وبين القائد سيبيون فى اسبانيا قبل أربعة أعوام (أى عام 206 ق م.) . وبهذه النتائج الحاسمة أصبحت مدينة هيبو نوميدية ، تمارس عليها المملكة حقوق السيادة الترابية ، وان كانت بنيتها الاجتماعية طبقية الطابع ، للبونيين فيها المركز الاول ضمن المجتمع . لكن سياسة « النومدة » التى كان ينتهجها ماسنيسا قد نالت من مركز الارستقراطية القرطاجية فى مدينة هيبو ، كما مكنته من تمتين دعائم المملكة وتقوية سمعته فى الداخل والخارج ، فضلا عن الربح الاقتصادى الكبير الذى حققه على حساب الدولة القرطاجية بسيطرته على السهول الزراعية بالدخلة ، ومحاصرة قرطاجة تجاريا بواسطة التحكم فى محاور التجارة مع افريقيا ، وفتح أسواق خارجية فى وجه المنتوجات الزراعية النوميدية ، وكان ميناء هيبو أفضل الموانىء التى يتم عن طريقها تصدير القمح النوميدى نحو ايطاليا وبلاد الاغريق .

هيبون ريجيوس

ونظرا للمكانة المرموقة التى أصبحت تتمتع بها هيبو فى نظر ملوك نوميديا أضيف لاسمها لقب ريجيوس Régius أى « الملكية » ، فاصبت تدعى هيبو ريجيوس

(هيبـو الملكيـة) • لقد كان ذلـك ابتداء من عهـد مسيبسا (148 ـ 118 ق م •) ابن ماسنيسا الذى حكم ما يقرب من أربعين سنة كلها أمن واستقرار ، هى فى الواقع جنى لثمرة الجهد الذى بذله والده فى توطيد الملك وزرع أسباب الرخاء فى المملكة •

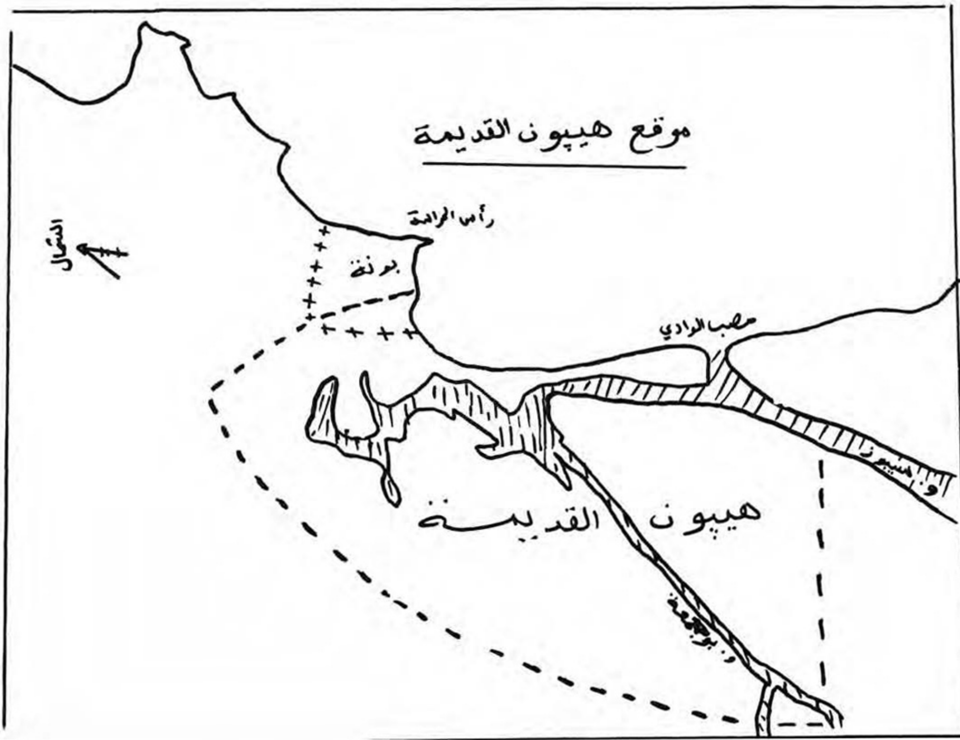
وتجدر الاشارة هنا الى أن لقب « ريجيوس » الذى أضيف لهيبو لا يعنى أنهـا اصبحت عاصمة للمملكة ، فالعاصمة كانت مدينة سيرتا ثم زاما ، ولكنه يعنى أن مدينة هيبو كانت مكانا مفضلا لدى الملك ، يقيم فيها متى شاء للراحة والاستجمام • أو أنها كانت مقرا ثانويا للعائلة المالكة (8) • ذلك أن هناك مدنا أخرى قد شاركت هيبو فى هذا الاسم ، منها بيلا ريجيا Billa Régia الواقعة شرقى شمتو على مسافة من وادى مجردة ، وكذلك زاما ريجيا Zama Régia قبل أن تصبح عاصمة ليوبا الاول •

ظل هذا الاسم المزدوج يميز هيبو النوميدية عن هيبو دياريتوس Hippo Diarrythus الواقعة ضمن الولاية الرومانية ، وهى بنزرت •

وان كان القديس أوغسطين كان يكتفى أحيانا بذكر هيبو دون ريجيوس (9) • ولعل ذلك يدل على الشهرة التى كانت تتمتع بها مدينته فى ذلك العصر ، فأصبح لقب هيبو علما على هذه المدينة وحدها •

على أن الرخاء الذى مرت به المملكة أيام مسيبسا كان مناسبة أيضا لتغلغل النفوذ الرومانى بنوميديا ، نظرا لحالة التبعية السياسية للدولة الرومانية • وقد وجد التجار الرومان فى هذا المناخ السياسى فرصة سانحة للاستقرار بالمدن النوميدية الرئيسيـة قصد توسيع مجال أنشطتهم الاقتصادية فى المملكة ، فتكونت بالمدن جاليات أجنبية من الرومان واللاتين والاغريق ، وأصبحت تلك الجاليات تشكل خطـرا عـلى السيادة الوطنية للمملكة • ومن أبرز الامثلة على ذلك دور الجالية الرومانية فى مدينة سيرتا ضد يوغرطة ، حيث شكلت تلك الجالية جهازا دفاعيا لمنع يوغرطة من دخول المدينـة ، ولم يتمكن هذا الاخير من اقتحام أسوار سيرتا الى على رقاب أولئك الرومان الامر الذى أثار حمية مجلس الشيوخ الرومانى فأعلن الحرب على يوغرطة عام 112 ق • م •

(8) أنظر لويس ليشى ـ المصدر السابق •
(9) أنظر قزيل ، المصدر السابق •


موقع هيپون القديمة
الشمال
رأس الحمراء
بونة
مصب الوادي
هيپون القديمة
و. سيبوز
و. بوجمعة

وخلال حرب يوغرطة الضروس التى تكبد فيها النوميديون الشيء الكثير لا يعرف ما حدث لهيبو ريجيوس ، فهل ظلت مستقلة عن الاحداث نظـــرا لهـامشيتها بالنسبة لمحاور القتال الاساسية بين الطرفين ؟ أم ان جاليتها الرومانية قد اعتصمت بها ولـــم يحاول يوغرطة اخضاعها لقلة الاهمية الاستراتيجية بالنسبة اليه ؟

هيبـــون الرومانيـة

ومهما يكن من أمر فان الرومان لم يجروا تغيـيرات فى وضعيـة هيبو ريجيوس الادارية بعد قضائهم على ثورة نوميديا (عام 105 ق ٠ م ٠) شأنها فى ذلك شأن بقية المدن الاخرى ٠ غير أن سنة 46 ق ٠ م ٠ كانت حاسمة بالنسبة لنوميديا عامة وهيبـو ريجيوس على وجه الخصوص ٠ لقد سجلت هذه السنة (46 ق ٠ م ٠) سقوط مملكة نوميديا فى أيدى الرومان نهائيا ليقسموها غنائم ومكافآت ، بعد فشل عاهلها يوبا الاول فى مقاومته لحملة قيصر على افريقيا ٠ فقد قرر قيصر أن يسوى القضية النوميديـــة نهائيا ، بكيفية يضمن بها المصالح العليا للدولة الرومانية ، وتمكن من توسيع رقعـة التراب الرومانى فى افريقيا ٠ واقتضت هذه الاعتبارات تقسيم نوميديا الى ثـلاثة أقسام رئيسية (10) :

ـ اعلان الجزء الشرقى من المملكة اقليما رومانيا تحت اسم الولاية الافريقية الجديدة Africa Nova.

ـ تسليم الجزء الشمالى منها كمكافأة لمرتزقة سيتيوس الذين كانوا أفضل عون لقيصر فى الاطاحة بمملكة نوميديا ٠ فكون أولئك المرتزقة من ذلك الاقليم امارة تعتمد على أهم المدن وهى سيرتا وميلة والقل وسكيكدة ٠

ـ أما الجزء الثالث ، وهو الغربى ، فكان من حظ ملك موريطانيا يوكوس الثانى اعترافا له من قيصر على جهوده فى غزو مملكة نوميديا من الخلف ، وتعبيرا له عن رغبة قيصر فى تمتين التحالف معه ٠

وكان مكان هيبو ريجيوس من هذا التمزيق فى الولاية الجديدة ، لان هيبو كانت تمثل بالنسبة لقيصر مكانة خاصة ، نظرا لكونها كانت ملجأ لاعدائه الفارين من أوتيكا ،

(10) أنظـــر لويس ليشى ، المصـــدر السابق ؛ وكذلك مقـال البيرتينى Albertini فى نفس المصدر ، ص 39 ــ 44 ٠

حيث أجهز عليهم بحارة سيتيوس وأغرقوا آخرهم فى سواحل هيبو أثناء محاولة الفرار الى اسبانيا •

وما لبثت هيبو ريجيوس أن تصدرت المدن النوميدية الساحلية ، وذلك ابتداء من عام 27 ق م • (11) عندما أجرى الامبراطور أوكتافيوس اصلاحات ادارية جوهرية على الولايات الرومانية ، فأصبحت هيبو ريجيوس عاصمة لاقليم واسع امتدت الى مدينة تبسة Thaveste فشملها ، وهو اقليم يضم أراضى زراعية خصبة ، وعين على رأسه حاكم رومانى يتمتع برتبة عالية فى الدولة الرومانية ، وهى رتبة قنصل قديم ، وسمى برو قنصل امبراطورى ، أى نائب الامبراطور على الاقليم الذى يحكمه • تمثلت مهمة هذا الحاكم فى الاشراف على دواليب الانشطة الادارية والاقتصادية حيث أصبح ميناء هيبو ريجيوس بوابة كبرى دائمة الازدحام بالغلال التى تجمع من سهل سيبوس واقليم مدور وقالمة وتبسة لشحنها الى روما ، حيث ينتظرها جمهور استهلاكى متزايد العدد •

اقتضى هذا الاصلاح أن تقتطع هيبو واقليمها من افريقيا الجديدة وتصبح مستقلة نسبيا وتابعة للولاية القديمة رسميا ، أى أن حاكم ولاية افريقيا البرو قنصلية كان يشرف نظريا على اقليم هيبو ، لكن حاكمها يتلقى التوجيهات والاوامر من الامبراطور مباشرة •

هيبون بلدية

ونظرا للدور الجديد الذى كانت تقوم به هيبو لصالح اقتصاد روما ارتأى سيد العالم (الامبراطور أوكتافيوس) مكافأة المدينة باعلانها بلدية municipium (12) وفى عهد الاسرة الانطونية رفعت هيبو ريجيوس الى منزلة مستعمرة Coloniae أى أن سكانها أصبحوا رومانا من الناحية القانونية ، رغم تنوع أصولهم ، وهى مسألة قابلة للنقاش ، فهل ان جميع سكان المدينة بما فيهم النوميديون كانوا أمام الحقوق والواجبات

---

(11) أنظر مقال لويس ليشى ، السابق الذكر •

(12) نفسه •

سواسية بعد هذا القرار (13) ؟ لكن الذى يهم فى هذه المعالجة، ليس الدخول فى تفاصيل المعضلة ، ولكن التنبيه الى أن هيبو ريجيوس قد غمرها طوفان « الرومنة » ، فهل أغرقها نهائيا ، أم أنها غمست فحسب ، وظل جوهرها أصيلا ثابت البنية الحضارية ؟

ان الهياكل الرومانية قد أخذت تغطى كل ما سبقها من معالم الحضارة البونية ـ النوميدية بالمدينة فظهرت بها الساحات العامة Forum والمعابد ثم الكنائس ، والاسواق ، والملاعب ، والمسرح والحمامات ، وما الى ذلك من التجهيزات العامة التى تتميز بها المدن الرومانية ٠

وما لبثت هذه المرافق العامة أن أخذت تعكس مظاهر الرقى الاجتماعى والثراء الاقتصادى الذى بلغته المدينة أيام الرومان ٠ (14)

هيبون زعيمة المسيحية فى افريقيا

وفضلا عن ذلك ، فان هيبو قد اعتنقت المسيحية ، وكانت موطنا لاهم الكنائس المذهبية (المدافعة عن مذهب ما) فى مستهل القرن الخامس الميلادى بفضل ابن هيبو الشهير القديس أوغسطين ٠

فما هو الدور الذى مثلته هذه المدينة فى الصراع الدينى الذى نشب بين الحركة الدوناتوسية والكاثوليكية فى افريقيا ؟ ٠

بيد أن هذا الموضوع خارج عن نطاق هذا البحث الضيق غير أن ابراز العوامل الاجتماعية والوطنية من هذا الصراع أمر ضرورى ، لان هيبون كانت طرفا فى النزاع ٠

لقد كانت الدوناتوسية حركة دينية اصلاحية فى مظهرها ، غير أن جوهرها كان تعبيرا عن رفض الطبقات الاجتماعية المسحوقة لذلك الظلم الاجتماعى المسلط عليها فى ظل دولة مستبدة تستخدم الديانة للمحافظة على الاوضاع السيئة ، فالدوناتوسية (وهى قرطاجية النشأة ونوميدية الانتشار) لم تكن سوى ثورة اجتماعية ريفية ضد

(13) فى الموضوع رسالة جامعية للباحث ، تحت عنوان « سياسة الرومنة فى بلاد المغرب » بها تحليل مناسب يمكن الرجوع اليه ٠

(14) أنظر : السعيد دحمانى ، المصدر السابق ، الصفحات الخاصة بالصور الاثرية ٠

الاوضاع المتردية آنذاك (15) · وخاصة تلك التى نجمت عن الاجراءات الاقتصادية والقضائية المتخذة من طرف الامبراطور بخصوص المزارعين ·

ويتجلى الطابع الثورى لهذه الحركة فى تحالفها مع حركة الثوار المعروفين بالدوارين حيث تحولت الدوناسة الى ثورة عامة هددت المدن التى اعتصم بها الارستقراطيون ومنها هيبو نفسها ·

ان جهود أوغسطين تدخل حسب هذه الاعتبارات ، ضمن جهود السلطة الحاكمة ضد الثوار النوميديين « الخوارج » المطالبين بالعدالة الاجتماعية طبقا لروح المبادىء المسيحية ، ذلك ان أوغسطين قد اعتبر منقذا ، ليس فحسب ، للكنيسة الافريقية من خطر الانشقاق وانما أنقذ الحضارة الاغريقية ـ الرومانية كذلك ·

وكان حلفاء أوغسطين بطبيعة الحال من ذوى الامتيازات الاجتماعية والمصالح الاقتصادية والنفوذ السياسى ، وهم من العناصر الرومانية الاصل ، أو من النوميدية « المرومنة » ـ « لقد شعر الجميع بأن الرومنة فى خطر » · (16)

ان هذا الصراع الدينى الذى ارتبط تاريخه بمدينة هيبو يعبر ، من جهة أخرى ، على أن مجتمع المدن الكبرى قد تأثر بالحضارة الرومانية ، بحيث أن مصالح الحضر ارتبطت بمصالح الحكام الاجانب ، وان ثورة الريف تشكل تهديدا صريحا لتلك المصالح المشتركة، الامر الذى قوى من جبهة مجتمع المدن ضد ثورة الريفيين ، وهكذا يكون الصراع المذهبى فى افريقيا وجها من أوجه الصراع الاجتماعى وثورة وطنية على الوجود الرومانى · لقد استهدفت هذه الحركة (الدوناتوسية) تحطيم عقلية الامتياز التى كانت تسيطر على أصحاب المذهب المحافظ · وفصل الدين عن السلطة التى كانت تستخدمه لخنق أنفاس الحرية ·

هيبون تتحدى الوندال

ان هيبو الفنيقية الغرس ، البونية الترعرع ، النوميدية الشهرة أصبحت فى أواخر الحكم الرومانى حصنا منيعا لاكبر مذاهب الديانة المسيحية ، مدافعة عن وجهة نظر

(15) راجع مقال لويس ليشى ، السابق الذكر ، وكذلك جوليان ، تاريخ شمال افريقيا ج ، 1 · الفصل الخاص بالحركة الدوناتوسية وحركة الدوارين ·

(16) راجع مقال لويس ليشى السالف الذكر ، ص 58 ·

الدولة الرومانية فى موضوع الصراع المذهبى بافريقيا • فليس غريبا اذا توجهت نحوها الانظار من بعيد ، وكانت هدفا لاعداء الامبراطورية الرومانية ، وهم الوندال •

وبرهنت هيبو عن اخلاصها لمبادئها بدفاعها المستميت ضد الغزو الوندالى الذى اجتاح الولايات الرومانية الافريقية بقيادة جنسريق ، ولم يتمكن هذا من اجتياز أسوار هيبو الا بعد أن فقد أهلها الامل فى فك الحصار المضروب عليهم مدة تزيد عن سنة ، سقط فى مستهلها الزعيم الروحى للمدينة القديس أوغسطين (28 أوت 430 م) •

ونظرا لاهمية المدينة اتخذها الفاتح جنسريق عاصمة لافريقيا الوندالية بكاملها مدة تسع سنوات (431 ـ 439 م) ، ثم نقل الوندال مقر ادارتهم منها الى قرطاجة •

نهاية هيبون

انطفأت شعلة هيبو بعد هذه الاحداث المصيرية ، وخفت سناها فى عالم افريقيا ، وتحولت عنها الانظار تدريجيا • كما لفها سكوت حال دون تتبع تاريخها مفصلا خلال الفترة الفاصلة ما بين العهد الوندالى والفتح الاسلامى • غير انه يبدو أنها ظلت احدى المعاقل الهامة للروم البيزنطيين ، بدليل رواية ابن خلدون حول تحصن شرذمة من الروم والفرنجة بها بعد فرارهم من جيش حسان بن النعمان (17) غير أن «بونة» التى ذكرها ابن خلدون هنا وغيره من الكتاب العرب كابن حوقل والبكرى والنويرى ليست هى هيبو القديمة ، لان هذه قد تهدمت فى ظروف غامضة قد تكون بسبب فيضانات وادى سيبوس الذى أخذ يغير مجراه تدريجيا مجتاحا مبانى المدينة • (18)

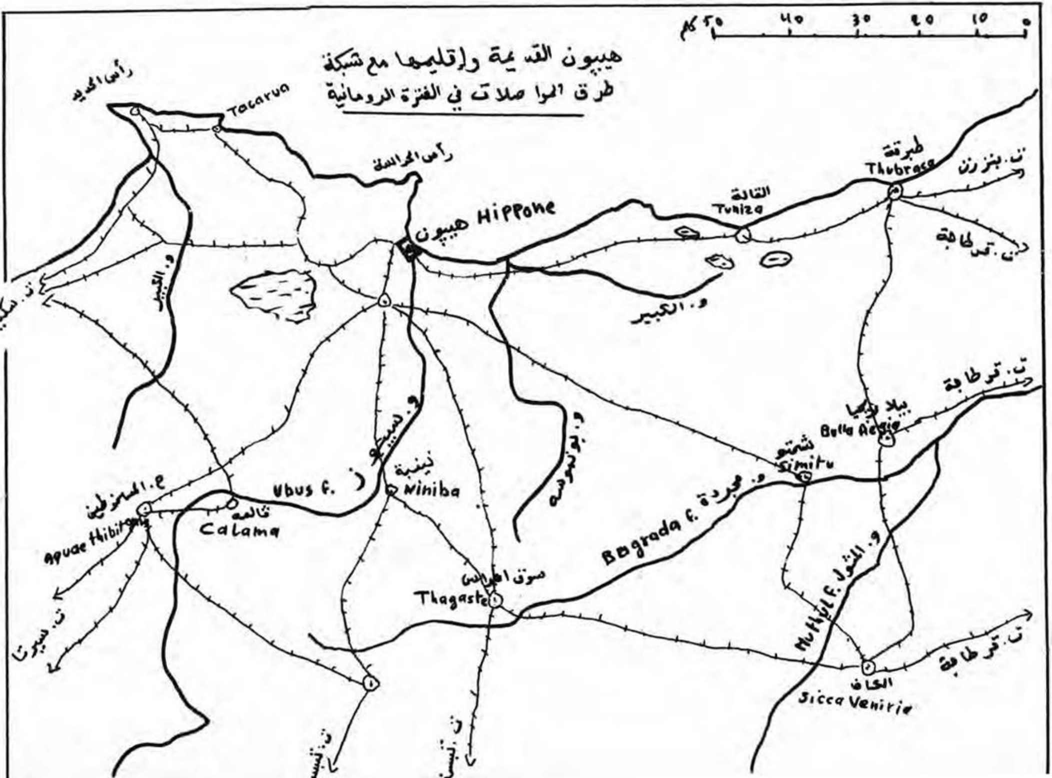
وبونة الحديثة التى ذكرها ابن خلدون وغيره قد تعرضت هى الاخرى للهدم لاسباب مجهولة كذلك ، ويذكر ليون الافريقى ان ذلك تم فى عهد العثمانيين (19) •

---

(17) أنظر : ابن خلدون ، كتاب العبر ، ج 4 ، ص 401 ، منشورات دار الكتاب اللبنانى 1958 •

(18) راجع : قزيل ، الاطلس ، ص 7 • ورقة 9 •

(19) أنظر : ليون الافريقى ، المصدر السابق • ص 369 •



هيبون القديمة وإقليمها مع شبكة
طرق المواصلات في الفترة الرومانية
كم
رأس الحديد
Tacarua
رأس الحمراء
هيبون Hippone
القالة
Tuniza
طبرقة
Thubraca
و. الكبير
و. بونموسه
و. سيبوس
Ubus f.
نيفبة
Niniba
قالمة
Calama
Aquae Hibitanae
سوق أهراس
Thagaste
شمتو
Simitu
و. مجردة
Bagrada f.
Bulla Regia
و. الملاق
Muthul f.
الكاف
Sicca Veneria

وخلاصة القول ان هيبون تضرب بجذورها بعيدا فى أعماق تاريخ نوميديا القديم ، حيث كانت احدى المراكز الهامة لاشعاع الحضارة السامية على المجتمع المغربى القديم ، وأهلتها امكانياتها الاقتصادية كى تبلغ منزلة مرموقة من النمو والازدهار ، ابتـــداء من العهد الوطنى النوميدى ، لكن طوفان « الرومنة العاتى » قد صبغ هيبو ريجيوس بلون الحضارة اللاتينية ، ثم رفع القديس أوغسطين شهرة المدينة الى المستوى العالمى أثناء الجدل المذهبى • غير أن هذا المجد المتلألىء قد داسته أقدام الوندال ، فهوت قيمة هيبـو ريجيوس ، وانصرف عنها الاهتمام ، وان بقى المسيحيون يتباهون الى الآن بقراءة مؤلفات أوغسطين ، ذلك القديس الورع ، صاحب الحجة الدامغة ، والاسلوب الادبى الاخاذ •

عنابة قبل الاسلام

عثمان الكعاك
مؤرخ – تونس

العصر الاول البربرى :

البربر أمة عربية قحطانية حميرية جاءت المغرب فى عصور متقادمة مهاجرة من اليمن وأسست حضارة كبرى على ضفاف العرق الكبير (اسم نهر مطموس الآن) •

والبربر الذين بعنابة هم قبيلة كتامة المرابطة بجبال اليدوغ وبقبائل الحضرة أى الحضرة الفاطمية لانهم ناصروا الفاطميين ضد مخلد بن كيداد وانتصروا عليه بقلعة كتامة فوق قلعة بنى حماد ، وكتامة فى الشمال وقدالة فى الجنوب والجيتولى فى عهد الفنيقيين والرومان معناها الرعاة ومنها كلمة قدال المستعملة بالمغرب ومعناها المرعى ، ذلك لان هؤلاء رعاة بقر وبقارون بولاية عنابة ولا سيما بقالمة وبوشقوف وسوق أهراس ورعاة غنم «شاوية» بالنجاد العليا •

ولهؤلاء البربر حضارة سابقة للحضارة المصرية الفرعونية وأرفع منها فهم اخترعوا العجلة ذات الاشعة والدماغ (كوبيـو moyen) منذ فجر التاريخ وهم كتبوا بالحروف البزبرية (تيفيناغ) ، هذه النقوش الصخرية الموجودة فى بلاد الهوقار بالجزائر وفى جبال السوداء والتيبستى بليبيا ·

وستستمر هذه الحضارة البربرية بعنابة فى الحقبة الاستقلالية التى مرت بين سقوط قرطاجنة البونيقية وانتصاب الرومان أى من سنة 208 ق م. مع الملك البربرى غـــالا الى سنة 25 ق·م· مع الملك الامبراطورى العالم الموسوعى الفنان يوبا الثانى ·

ثم ظهر البربر من جديد مع الفاطميين بقسنطينة وبعاصمتهم يدبس قرب قسنطينة وبميلة الى تاهـيرت ·

ثم فى العهد الصنهاجى مع دولة زيرى ، ثم دولة زاوى بن زيرى المستقل بعنابة فى القرن الحادى عشر الميلادى وويغلان من 1090 الى 1094 ، ثم أبو الفتوح سنة 1094 ، ثم فى العهد الحفصى مع أبى زكريا يحيى الى أن جاء الاتراك وسنتحدث عن كل ذلك حسب نسبة وروده الزمنى ·

مصـادر البـربـر

ابن خلدون « ديوان العبر »

ع ـ ك/ البربـر ·

ع ـ ك/الموجز التاريخى العام للجزائر ·

دائرة المعارف الاسلامية ·

دائرة المعارف الايطالية ·

ابن حـزم : جمهـرة الانساب ·

العصر الثانى : الفينيقى ثم البونيقى ـ القرن 9 قم ـ 146 قم ·

أسست عنابة كمدينة وكمرسى ذى شأن من طرف الفينيقيين الصوريين Tyrieuse الذين قدموا من لبنان بين القرن الثانى عشر قبل الميلاد والقرن التاسع ق م ، فأسسوا عنابة

كمرسى كبير لجرف منتوجات الشرق الجزائرى وتوزيعها على أقطار البحر المتوسط ، بدأوا أولا بالغابات التى جلبوا لها الاشجار من لبنان وهى الارز Cèdre ويسمى عند البربر بالبقنون والصنوبر وغيرهما مما هو صالح لبناء السفن، حيث جعلوا فى عنابة دار صناعة لانشاء السفن، ثم الحديد وهو موجود على مقربة من هناك بكثرة لصنع المسامير والمخاطيف وغير ذلك مما تحتاج اليه السفينة ٠ وزرعوا البردى والقنب لصناعة قلوع السفن ، ولم يكن فى المغرب يومئذ من الاشجار الا الزيتون والتين فجلبوا التفاح والسفرجل والاجاص والرمان والعنب والخضر على أنواعها ٠ فازدهرت البلاد ٠ ثم صنع ماغون القرطاجنى موسوعة فلاحية الاولى من نوعها فى الدنيا فاستفاد منها البربر ، وعلموهم الصناعات التقليدية الجميلة من نجارة وحياكة للقطن والصوف والكتان وصباغة. وصوغ للحديد الى غير ذلك ، ولم يمتلكوا الارض ولا تعاطوا الصناعات ولا الفلاحة وحسبهم التجارة والملاحة٠ واستعملوا البربر فى الملاحة وصيد الاسماك وتصبيرها وتعليبها فى القصدير الذى كانوا يجلبونه من انكلترا التى كانت من أجل ذلك تسمى بالجزائر القصديرية فاستغنى البربر وبنوا المعالم الكبرى وعرفوا طريق الصحراء الى المحيط الاطلسى لان الفنيقيين جلبوا غراسة النخيل واحضروا الجمل ونظموا قوافل الصحراء الى السنغال وغيرها ٠

وتعلم البربر من الفنيقيين استعمال النقود وممارسة الانتخاب البلدى وانتخاب الجماعات التى تتالف منها الوحدات السياسية القبائلية أو المجموعات المحلية ــ وظهر لاول مرة ــ ان جانب الادب البربرى الشعبى أو المنقوشات على الصخور أو المكتوب على البردى الذى كان مزروعا ببحيرة فزارة وغيرها ٠

أما نظام الحكم فهو انتخابى : ينتخب شفطان للبلدية وينتخب مجلس شعبى ببونة لاول مرة فى التاريخ ٠

واخترع الفنيقيون الكتابة بالحروف الصوبنة لاول مرة فى التاريخ ٠

مصادر التاريخ البونيقى

الاستاذ أحمد توفيق المدنى : قرطاجنة فى اربعة عصور ٠

ع ـ ك/موجز التاريخ العام للجزائر ·

ع ـ ك/ الادب البونيقى رحلة حتون ·

رحلة عملقـون ·

الموسوعة الفلاحية لماغون ·

العصر الثالث البربري :

فيما بين سقوط قرطاجنة 146 قم. والاحتلال الرومانى وفيه أسست الامبراطوريات البربرية الكبرى المستقلة من امبراطورية موريطانية الطانجيـة (المغـرب الاقصى) وامبراطورية موريطانية القيصرية وهى الجزائر الوسطى ، وامبراطورية نوميديا وهى شرق الجزائر وعاصمتها سيرتا أو قرطة أى قسنطينة وأهم مدينة ـ بل المدينة الام هى عنابة المعروفة يومئذ بـ (هبون) أى السوق بالبينيقية فقد كانت تجـرف جميع منتوجات نوميديا من الجبال الى السهول الى الصحارى من تمور وجلـود وقمـوح وخمور وزيوت ولحوم وأصواف وعسل وشمع وثمار وأخشاب ومعـادن ورخـام الى غـير ذلـك ·

قامت المملكة البربرية نحو ألف سنة تزيد قبل ظهور الاسلام بالغرب · وكانت مملكة نوميديا · ونوميديا هى ولاية قسنطينة بالمعنى الواسع للكلمة وتوالى على عنابـة

الملك سفاقس النوميديين الماساسيليين 204 ـ 146 قم» .

الملك أوسالقس 208 ·

الملك كابوسا 208 ·

الملك ميزينول 208 ·

الملك ماسينسا 208 قم ـ 204 قم ·

الملك سيفاقس النوميديين الماساسيليين 204 ـ 146 ق م .

ميسيبسا ملك النوميديين الماساسيليين 146 قم ـ 112 قم ·

الملك اذربعل 118 ـ 112 ·

الملك يوغرطا ، ملك نوميديا 112 ـ 106 ق‌م ·

الملك غـاودا ·

هيامبسـال ·

الملك يويا الثانى ملك نوميديا 30 ـ 25 ق م ·

كان في الحقيقة ملك موريطانيا القيصرية وعاصمته شرشال وزوجه هي قليو فطرة سيلينى (الهلال) بنت قليو فطرة المصرية من زوجها انطونيوس ولكن ملكه كان ممتدا الى موريطانيا السطيفية ونوميديا ، فعنابة مشمولة ·

هو ابن يوبا الاول ولد حوالى 52 ق·م ، مات سنة 18 ب · م ·

وقبض عليه يوليوس قيصر فى معركة طبسوس (البقالطة قرب المهدية) ومثل فى استعراض انتصاره ، واهتم بتربيته حتى تخرج فى الآداب اللاطينيـــة والهلينيـــة وأقطعه أوكتافيوس مملكة فسيحة الارجاء فأسس قيصريـــة شرشـــال وزينها ببدائع المعمار اليونانى والرومانى وأسس بها معهدا عظيما للآداب والفنون والموسيقى والتمثيل· وألف دائرة معارف عجيبة وجغرافية مطولة لجزيرة العرب

مصادره : Stephane Gsell : A.N. dans l'Antiquité
Stephane Gsell : L'Algérie antique

رابعا العصر الرومانى 146 ق‌م ـ 438 ب م ·

انتصر الرومان على قرطاجنة البونيقية سنة 146 ق‌م · وأستولوا على المغرب وأسسوا الامبراطوريات البربرية كما مر ، وكان غرضهم من الاستيلاء الحصول على التموين من الخمور والزيوت والقموح والمواد الغذائية عامة لان ايطاليا جبال وليس لها الا حاشيتان للزراعة شرقية وغربية ولكنهما لا تكفيان ، فكان المغرب « العربى » هدى رومية ·

وعنابة ومنطقتها غنية بأبقارها وأغنامها وسهولها المزروعة قمحا وشعيرا ومغارسها من أشجار على اختلافها ودواليها الممتازة بخمورها وزياتينها مع الهضاب التى تأتى بزيت ممتاز وبحارها ذات الاسماك الكثيرة الجيدة ، ولا ننسى المرجان ومعادن الحديـــد وغيرها · لذلك ازدهرت ازدهارا كليا نراه فى جلال مبانيها بمدينة أوغوستينوس وهى المدينة الرومانية العجيبة بآثارها المدهشة وديارها التى من الفسيفساء مما يخلب الانظار

ومن النقوش الرخامية ما يوجب الاعجاب والادكار ومن التماثيل ما هو آية الله ومن المسارح وغيرها ما يتحدث به الناس قديما وحديثا ·

والعصر الرومانى ليس فيه أى شيء للرومان بل وكل ما هناك هو من آثار الجزائريين العنابيين وغيرهم ممن ترمثوا ففاقوا الرومان فى لباسهم وحكامهم وآدابهم وحضارتهم ومعمارهم وعلومهم وفنونهم ـ منهم أبو ليوس المداورشى الذى كان محاميا عظيما وطبيبا ماهرا وأستاذا فى التشريح له مخبر عجيب وأستاذ فى القانون يدعى الى رومـة فى القضايا المعقدة · هذا علاوة عما ألف من الكتب الروائية والتاريخية وغيرها ومنهم فروشتوتوس البرقى ·

ومنهم فى عنابة بالذات القديس أوغستينوس Saint Augustin **المولود بتاغاست** (سوق اهراس) والذى كان أسقف عنابة وعظيم النصرانية ومؤسس الكثلكة علاوة عن كونه له دراسات خلقية وتربوية صالحة لكل زمان ومكان ·

أنظر عن الادب اللاطينى بالجزائر ·

(تلخيصا) ع ـ ك موجز التاريخ العام للجزائر ·

(تفصيـلا) ·

Paul Monceaux : Les Africains.
Paul Monceaux : La littérature latine d'Afrique.

وعن الآثار الرومانية بعنابة أنظر :

Stephane Gsell : Atlas archéologique de l'Algérie.

وينقسم العصر الرومانى الى عهدين :

العهد الاول « الوثنى » من 146 ق م الى القرن الاول قبل الميلاد ·

العهد الثانى « مسيحى » وفيـه كثرت المذاهب فى **الجزائـر** عن الكاثوليكيـة والدوناتوسية والاوبتاتوسية شيعة القديس أوبتاتوس الميلى والاروسية التى أتى بها الوندال الى غير ذلك ·

العصر الخامس العهد الوندالى 438 ـ 538م ·

الوندال جنس برمانى جاء من آسيا فمر ببولونيا ثم بأوساط أوروبا ، **فغربهـا باسبانيا** وانتهى الى شمال افريقيا ·

فاستولى جنسريق على بونة سنة 440م وقهر جليمار واستولى البيزنطيون سنة 536 ·

انظر عن الوندال ـ بالجزائر ع/ك موجز التاريخ العام للجزائر ·

الاستاذ أحمد توفيق المدنى : قرطاجنة فى عصور المعركة ·

Gauthie : Genserie roi des Vandales.
Schmidt : Les Vandales.
Larousse en 10 vol. — in vandales + bibliographie.
Courtois : bibliographie des Vandales.

العهد البزنطى أو الرومى

استولى البيزنطيون على الجزائر وبونة سنة 356 م ، واهتموا بتجهيز البلاد بالقلاع على عجل مخافة زحفة المسلمين ·

انظر عن هذا العصر :

Charles Diehl : l'Afrique byzantine.
Stephane Gsell : l'Algérie antique.

ع/ك موجز التاريخ العام للجزائر ·

وانتهى حكم البزنطيين بانتصار المسلمين سنة 27 هـ ، فى واقعة العبادلة السبعة على الطريق (جرجير بسبيطلة) ·

انظر كتب الفتوحات :

د· حسين مؤنس : فتح العرب للمغرب ·

محمد بن عبد الحكم : فتوح المغرب ·

ابن ناجى : معالم الايمان ـ ج الاول ·

البـــاب الثـــانى

(الفتــح الاســـلامى)

فتحت عنابة سنة 51هـ · من طريق عقبة بن نافع الفهرى شهيد تاهودا التى هى سيدى عقبة قرب بسكرة وتعاقب عليها الولاة من القيروان وما جاء القرن الاول الا وقد اسلم كل سكانها وعرفوا العربية وحفظوا القرآن وضربوا بسهم مصيب فى الاسلام المغربى ·

وفى العصر الاغلبى ظهر بها علماء المعمار الاغلبى المبنى على الزليج والنقش العربى وأسس فيها الاغالبة الاسواق وبنوا سورها الاول واحدثوا مرساها ودار صناعة بها ·

أنظر عن عنابة الاغالبة : المقدسى أحسن التقاسيم ·

اليعقوبى : صفة بلاد المغرب ·

ابن حوقل : المسالك والممالك ·

1) **العصر الاغلبى 186 ـ 298 هـ ·**

حققت الدولة الاغلبية للشرق المغربى استقلالا داخليا واتمت فتحمالطة وصقلية(212) وسردانة (80هـ) وأسست بيت الحكمة جامعة للطب والصيدلة والهندسة والرياضيات والعلوم الدخيلة والترجمة وجلبت من الشرق البارود والكاغذ والطباعة الخشبيـــة وأسست الاربطة ومنها رباط القالة لا يزال موجودا وعنابة (سيدى مروان) وسيدى ابراهيم (جبل يدوغ) ، وتاكوش ورأس الحمراء وغيرها وذلك للقيام بالمراسى البحرية وتأمين الطرق للمسافرين وايجاد مستشفيات للمرضى وديار بريد على طول طريق الحج من طنجة الى الاسكندرية ·

وجلبت المحامض (النارنج ـ الليم) فى المغرب والاندلس وأوروبا فانتشرت بعنابة بساتين سيبوس وزرعت الارز فى البحيرات وقصب السكر فى المسيلة فتغير وجـــه الاقتصاد وانتشر الخراسانيون الذين جاءوا من خراسان (ايران) مع الولاة من بنى المهلب ولا يزال منهم الديلم فى جهة المسيلة ومنهم بنو رستم الذين أسسوا دولة مستقلـــة غرب الجزائر هى دولة بنى رستم بمدينة تيهرت (تيارت) ولا تزال آثارهم بها من الجامع والحمام ومنازه الميناء وبستان السلطان · ووجود صقلية الاسلامية مع بنزرت أغلق الباب فى وجه الاسطول البزنطى فتنفست عنابة الصعداء واتسعت واستقرت امكانيتها كثغر أساسى لشرق الجزائر لنقل الخشب المصنوع وغير المصنوع والنارنج والارز وحرير قابس وبقر قالة وقموح الولاية فازدهرت · وجلب الاغالبة من الشرق الزليج المؤتلق بالتحاف المعادن فدخل قصورها وجوامعها وانتشر النقش العربى الذى لا تزال آياته بمدينة سدراتة الاثرية قرب وارقلة (ورجلان) فدخل ذلك فى المعمار العنابى وبنيت الاسواق

ودار الصناعة الكبرى • وسهل وجود الكاغد والمطابع الخشبية والاربطة وانتشار التعليم والكتاب والتأليف •

2) **العصر الفاطمى** 296 ـ 370 •

جاء عبيد الله المهدى الشيعى ومعه عبد الله الصنعانى صاحب دعوته والقائم بتأسيس دولته وكان عمله على الخصوص لدى بربر كتامة (جبل اليدوغ) والقبائل الصغرى المعروفين بقبائل الحضرة أى الحضرة الفاطمية فأسس الصنعانى سور تبسة والقصر الفاطمى بها ولا يزال معظمهما الى الآن وأسسوا تديس بين قسنطينة وميلة كمركز للاصطياف ومعمل للفخار المطلى وضرب نقود الذهب ولا يزال كذلك ظاهرا الى الآن •

وأسسوا بميلة فندق فرجون الذى لا يزال موجودا وقد سكنه المنصور ثالث الخلفاء الفاطميين بالمغرب بعد انتصاره على الثائر صاحب الحمار مخلد بن كيداد النكارى وأسسوا بميلة جامعا فاطميا لا يزال موجودا قائم الذات جميل المخبر يبين لنا عظمة المعمار الفاطمى شرق الجزائر وأسسوا حمام ميلة البعيد عنها بعشرة كلم • والذى خصصه اليه المنصور ليستجم من العاف حرب صاحب الحمار ولا يزال موجودا •

وأتخذوا عاصمتهم بالجبال التى تسمى الآن بنى عزيز قرب جميلة وأسسوا مدينة أميرية تسمى تغزوت على بعد 20 كلم،منها وكل هاته الآثار موجودة،وأسسوا قلعة كتامة فى جبال قلعة بنى حماد وفيها انتصر المنصور على مخلد بن كيداد النكارى • اما فى الجنوب الشرقى فأسسوا مدينة المسيلة وأوطنوها بنى حمدون الاندلسيين الذين بنوا فيها قصر السلطان ولا تزال أبوابه وسوره وآثاره قائمة فى المسيلة القديمة وكذلك الضواحى على سد وادى المسيلة ، وأسس الاغالبة رباط عنابة وهو سيدى مروان ورباط تكوش ورأس الحمراء والقالة وكل ذلك لا تزال آثاره قائمة فلما جاء الفاطميون عززوها ورمموا ما احتاج منها الى ترميم •

انظر عن بونة الفاطمية : اتعاظ الحنفاء للمقريزى •

ابن حماد : تاريخ العبيديين •

ع/ك موجز التاريخ العام للجزائر •

بونـة دائرة المعارف الاسلامية ·

بـونـة تاليف العلامة ابن أبى شنب ·

البكـــرى : المسالك والممالك ·

والعصر الفاطمى وهو عصر انتصاب أول خلافة مغربية فيها اشتراك أكيد بـــين العرب والبربر وسيادة المغاربة على البحر المتوسط والصحراء والاطلس الغربى وفتــح مصر وتأسيس الجامع الازهر والقاهرة وفتح الشام والهند وفتح غرب فرنسا وسويسرا وجزيرة اقريطش (Crête).

ع/ك ـ مسلك القاهرة ، أى أروع عصر للسيادة الادبية (ابن هانى بالمسيلـــة) والسياسة المهدية تحكم من السينغال الى الهند ومن فرنسا الى ما تحت خط الاستواء والتعليمية (بيت الحكمة) بالقيروان جامع الزيتونة جامعة القرويين بالمغرب أسستهـا فاطمة أم البنين القروانية الجامع الازهر أسسه الفاتح الكبير جوهر الصقلى ، والسيادة الاقتصادية (الحرير الزعفران ، التوابل ، الانسجة وسيادة الجيش والثغور البحرية) ·

وفى هذا العصر انجبت بونة أبا مروان صاحب كتاب الموطا وشارح الصحاح ·

3 ـ عنابـــة الحماديـة

فى العصر الصنهاجى 370 ـ 602

كانت عنابة أولا تابعة للملك البربرى زاوى بن زيرى ثم لابى الفتوح، ثم انقسمت الدولة الصنهاجية الى صنهاجيين فى المهدية وحماديين فى قلعة بنى حماد أولا ثم فى بجايـــة فكانت عنابة تابعة للحماديين وتأثرت بحضارتهم العلمية والمعمارية (القباب الحماديـــة الزليج الحمادى النقش الحمادى المعمار الحمادى والاقتصادى نظام ديوان البحر والمرسى فى القالة وعنابة ··· وربما فى جيجل وسكيكدة·وهو أن يكون المرسى لـــه ··· سنبكة ويكون مسقوفا ومثاله مرسى بجاية الحمادى ومرسى القالة الى الآن ، وكانت القالة تسمى مرسى الخرز ، وهى مشهورة بالاسماك وبالمرجان وفيها جماعة من الاندلسيين لاصطياد المرجان وصباغته وبيعه ··

ولعل الدراسات العميقة تميط اللثام عن الآثار الحمادية فقد عثرنا عليها بتنس (باب المرسى) وبندرومة (الباب الداخلى للجامع) وهى موجودة بصقلية • ومن امراء البربر الحماديين المستقلين بعنابة :

الامير زاوى بن زيرى بن مناد ، أبو بولوغين بانى الجزائر ومليانة والمدية • **وبقـــلان** 1090 ـ 1094

أبو الفتوح يوسف بن بولوغين 1094 (سبعة أشهر) •

الحارث بن المنصور الصنهاجى 1148 ـ 1152 •

عبد المؤمن بن على الكومى التاجرى 1152 •

رجوع الحارث بن المنصور مع الصقليين 1152 ـ 1157 •

4 ـ العصر الموحدى الحفصى 1206 ـ 1537 •

استولى الموحدون بقيادة عبد المؤمن بن على الكومى الجزائرى التاجرى (مـن بلـدة تاجرة قرب هنين بغرب الجزائر) على المغرب والجزائر وتونس وليبيا ووحدوا المغرب بعد القضاء على دولة المرابطين فى المغرب وذيولهم بنى غانية بالجزائر وتونس ودولة بنى حماد ببجاية ودولة صنهاجة بالمهدية دول الطوائف المنتشرة هنا وهناك •

وانتصبت بتونس دولة الموحدين أولا وتفرعت عنها دولة بنى حفص ، سلطانها أمير المؤمنين بتونس واحد أفراد العائلة بقسنطينة وآخر ببجاية وأمير صغير بعنابة •

وكانت بونة تقع أحيانا بأيدى الميورقى لا سيما عند ما استولى على المهدية فلم يبق له بافريقية منازع وحصلت تحت بيعته طرابلس وقابس وصفاقس وبلاد الجريد ••• ووصلت بيعته بونة • ومن ولاة الموحدين على بونة أبو العلاء الموحدى أولاه أبو زكريا الحفصى على بونة ، وكان أديبا شاعرا فحلا •

وعبد المؤمن بن على 1152 •

ابن غانية (المرابطى) 1209 •

أبو يحيى زكرياء بن اسحاق الميورقى 1235 •

أبو على بن عيسى بن الشيخ أبى الحفص 1292 •

أبو محمد صالح بن مبرور ـ مولى أوروبى 1316 ·

أبو العباس الفضل 1350 ·

أبو زيد عبد الرحمن 1357 ·

أبو عبد الله بن زكرياء 1360 ·

أبو عمرو عثمان 1439 ·

أبو عبد الله محمد المسعود

5 ـ العهد التركى 1534 ـ 1830 ·

جاء الاتراك فى القرن السادس عشر لافتكاك ليبيا وتونس **والجزائر من أيدى الاسبان،** وأول من افتتك عنابة هو خير الدين 1534 ـ 1535 ··· ثم وقع استيلاء اسبانى ثان كان كما يـــلى :

ضـــون الفار قومس الزغل 1335 ـ 1540 · Don Alvar Gomez el Zagal

القبطان بطرو قودينيز دى آزيفيدو 1540 · Capitano Pedro Godincz de Azevedo

ثم رجع خير الدين واستصفى الاحتلال الاسبانى مرة نهائية ·

ثم تعاقب الولاة على عنابة من طرف بايات قسنطينة منهم :

القائـد أحمد شلبى 1725 ·

القائد الحاج حسن 1783 ـ 1786 ·

الحاج عمار بن زاغوطة 1830 ـ 1831 ·

والعصر التركى هو عصر ظهر فيه المعمار التركى فى الجوامع (جامع الباى) **وفى** الثكنات والاسوار والاسواق والديار وما أشبه ذلك من التأثر بالمعمار الاندلسى **الآتى مع** مهاجرة الاندلسيين بعد سقوط غرناطة واجلاء فيليب الثالث ملك اسبانيا البقية الباقية من الاندلسيين الى المغرب والجزائر وتونس وليبيا وتعزز الاسطول العنابى بمن توالى عليه من الرياس والقبودانات وانتشر المذهب الحنفى الى جانب المذهب المالكى ، والقـــاضى

الحنفى الى جانب القاضى المالكى ، وانتصر جنـود (الينيشرية) Janissaires والطريقة المولوية (طريقة جـلال الدين) الرومى تلميذ محى الـدين بن عربى وصاحب المثنـوى ومؤسسة المولوية أو طريقة الدراويش اللفافين (Derviches fourneus).

وازدهر الاقتصاد العنابى بظهـور الطماطم والفلفل والبطاطة والهند (التين الشوكى) والاشجار المثمرة • وبنيت القصور فى عنابة والابراج فى الضيعات ، لان الاتراك جلبوا معهم الوجق وهو الحرس المتجول الحامل لكلاب الشرطة والمتجول فى عربات اعدت لها الطرقات والجسور فاستتب الامن ، وأقبل الاندلسيون بأساليبهم الفلاحية الجديدة •

وفى هذا العصر انتشر شرب القهوة وتعددت المقاهى وجاء لعب الورق من الاندلس وعمت الالعاب التركية أو الافرنجية كالدومينو والشاشباش والطاولـــة والشطرنج وغيرها • وعم اللباس التركى المعروف بلباس الرنلووط المطرز بالذهب ودخلت كثير من الكلمات التركية فى لغة عنابة اليومية والبحرية •

6) بونة على عهد الاسبان « 922هـ ـ 946» (1516م ـ 1540) •

استولى الاسبان على بونة سنة 1516 ، ثم أخرجهم منها خير الدين سنـــة 1540 • وما خرجوا الا بعد ما نهبوا كل شيء حتى الرخام والزليج من الجدران والتحف والارحية الصغيرة والكبيرة والاثاث والرياش والاقمشة وكل مرتخص وغال ، فكان النهب شاملا عند دخولهم وشاملا عند خروجهم •

ثم نزل عقاب الله فما أخذوه من الاقوات ـ أقوات سكان البلاد ادركه الفساد فكل من أكل منه اما مات بعد عذاب شديد أو بقى مريضا لا أمل له فى الحياة •

وغادر الاسبانيون عنابة مغادرة انكسار واذلال وهوان •

انظر تفاصيل الحوادث فى Maistref : Histoire de Bône militaire.

وكاد الجنود الاسبانيون يدخلون فى الاسلام عن بكرة أبيهم فرارا من الجوع والعطش لكن ضباطهم سارعوا بنقلهم الى السفن الشواحن وقائد الحملة ضون الفارعندما رأى كارثته الكبرى اختنق بخزامه وأصبح ميتا •

فأمر شرلكان اجلاء بونة ودمر الاسبانيون ابراج المدينة وقصبتها · وسارع الاتراك لحينهم بالاستيلاء على المدينة واعادة تحصيناتها وتنصيب حاميتها · ولم يكن الاسبان ببجاية أسعد حظا ، فان الحامية استسلمت أمام بسالة الاتراك ، وقطع الاسبان رأس قائد الحملة بيريكتا لانه لم يستطع أن يموت وسيفه فى يده · وفى يوم 13 سبتمبر 1571 سقطت تونس بدورها وانتهت مهزلة شارلكان الامبراطور المغرور وذهب جيشه الذى لا يغلب Invincible armada ادراج الرياح والامر كله لله أولا وأخيرا ·

7) عنابـــة الاندلسيـــة

فتح طارق بن زياد الاندلس سنة 92 هـ ، واستقر بها المسلمون وزادت قدمهم رسوخا بها عند انتصاب الدولة الاموية وانتقال عبد الرحمن الداخل من دمشق الى قرطبة ·

منذ ذلك الحين عرف الاندلسيون طريق الشرق من جديد بسبب الحج وطلب العلم وفيما يخص طريق عنابة بصورة خاصة ، وعلاوة عن الحج وطلب العلم للتجارة وصيد الاسماك واقتلاع المرجان ، فكانت جالية بعنابة وأخرى بالقالة ·

على ان مرابط عنابة وعالمها سيدى مروان هو وليد قرطبة وأصيلها ، وزاوى كان أميرا بالاندلس ، قبل أن يصير أميرا بعنابة وكذلك أبو زكرياء يحيى الحفصى ·

وكلما سقطت مدينة هاجر أهلها الى المغرب اشبيلية بطرنة مالقة بلنسية فى القرن الثالث عشر ، غرناطة فى القرن الخامس عشر ، وبقية الاندلسيين عندما اجلاهم فليب الثالث سنة 1017هـ/1611م ·

ومن أشهر هؤلاء الاندلسيين مصطفى القرنبالى المعروف بمصطفى كردناس الذى كان منتصبا بقرنبالية بتونس وقد بنى المدينة وزينها وغرس بساتينها ثم لما ضايقه على باى المرادى هاجر الى عنابة واستقر بها وبنى بها قصرا وغرس فى مزارعها 30.000 عـــود زيتـــون ·

جاء فى كتاب الاستاذ الاسبالدا الاسبانى عن هجرة المريشكو الى المغرب « ومن جملة المريشكو فاكثر الاجناس ذكرا لدى المؤرخين المحليين هم الغرناطيون فقد ذكر البحاثة روفى : ان ألف غرناطى رجالا ونساء وأطفالا أجروا سفينتين باشبيلية مـــن سفـــن

الفلمنك (الهولانديين)، فغرقت احدى السفينتين ، وحاول من نجا من ركابها الالتحاق بمرسيليا حيث كانت المستشفيات مملوءة بالناس وكذلك محـــلات التمريض وكان يموت منهم فى كل يوم جماعة والناس يخشون اندلاع وافدة الوباء فاكترت مدينـــة مرسيليا سفنا ونقلت من بقى من الغرناطيين الى عنابة وطبرقة وغيرهما عن ثغـــور المغـــرب الشرقـــى ・ اهـ ص (94) وذكـــــر فى ص 123 ان أهـــــل عنـــــابـــة كانـــوا فى الاول يذهبـــون الى الانـــدلس ・ ولمـا انتصـب مصطفـى كردنـــاس بعنـــابة أخـــذ يـــزرع الزياتـــين ويتـــولى فـــديـــة المسلمـين المأســـورين عند النصارى فقنصلية فرنسا بتونس تحتوى على 30 وثيقة متعلقة بمصطفى كردناس منها 27 تتعلق بالفدية ، وكان يتولى التجارة مع أوروبا كبيع السكر المغربى وبذور الكتان والاتجار فى الشواشى ・

كان بعاصمة الجزائر سوق للشواشى، وكانت بغرب العاصمة الجزائرية عائلة بوناتيرو ولا تزال ومعناها القلانسى بالفرنسية Bonnetier وبالاسبانية Bonnetero أى الشواشى فلعله كان يصنعها ・ لكن معظم أسواق صناعة الشاشية (400 سوق) كانت بمدينة تونس ، وكان مصطفى كردناس شيخ الاندلس وله معرفة جيدة بالأساليب الزراعية التقنية فوقعت بسبب هجرة الاندلسيين نهضة علمية وأدبية كبرى ونهضة اقتصادية واجتماعية شاملة وانبعاث معمارى عديم النظير ، وساعد على ذلك وجود مرسى عنابة الذى كان مصرفا وادارة توزيع لهذا الانتاج الجيد الجميل ・

مصـــادر البحـــث :

مناقب أبى الغيث القشاشى، وهو الذى اقتبل الاندلسيين وافتدى أسراهم وهو أفضل من Saint Vincent de Paul الذى كانت صناعته افتداء الاسرى النصارى (**مخطوط دار الكتب الوطنية**) وكتاب المناقب المتعلق به هو من تأليف المنتصر بن المرابط بن يحيى القفصى ・

8) بونة والغزو الفرنسى

ملحمة بونة طويلة واليمة ودامية ومحزنة تكون مأساة تذرف الدموع لقراءتهـــا وتنقبض النفس ويتذكر القلب واننا نجدها فى

Maistref : Bône militaire, p. 173 - 425.
Bugeaud : Correspondance de Bugeaud. Larousse en dix volumes - « Bône » + Bibliographie.
ENE de l'Islam - Bône et Annaba + Bibliographie.

وابن بونة فى هذه الظروف الذى دافع عنها هو الشيخ محمد بن محمود العنابى الذى درسه الدكتور سعد الله دراسة وافية شافية علمية فى العدد الاخير من مجلـــة الاصــالــة ٠

البـــاب الثـــالث

وصف بونة عند الغزو الفرنسى

تفيدنا الكتب الفرنسية المعاصرة للغزوين تشريح مدينة بونة ٠٠٠ فهى تعطينا صورة واضحة عن المدينة وتشرح ذلك بخرائط معاصرة ونحن نتولى ذلك فى أبواب :

1 ـ حـارات المدينـة :

تتألف المدينة العربية من أزقة نافذة وغير نافذة متشعبة المسالك تؤول فى الغالب الى الاسواق التى تتوسطها وتحيط بالجامع الكبير ٠

وتحمل هذه الحارات أسماء بعض المؤسسات، مثل حومة كوشة العصافرى،والعصافرى هو الذى يصطاد العصافير ويربيها ويبيعها، ولهؤلاء سوق فى تونس تسمى «العصافرية» قرب سيدى محرز ، والى جانبه سوق القفافصية أى الذين يصنعون القفافيص ويبيعونها واذ هناك اسم العصافرى فلا بد أنه كان هناك سوق العصافرية وبالتالى القفافصية أو القفاصــين ٠

وكثيرون من سكان عنابة من الاندلسيين الذين هم مغرومون بتربية الطيور المغنية والاستماع اليها تغنى فى اقفاصها ، والكوشة تمثل معلما جوهريا فى الحى وسمى عليها٠ ففى تونس ـ مثلا كوشة طاباق على اسم طاباق ـ داى من دايات تونس ، وهو حى أنيق من العاصمة والكوشة هى فرن عمومى لطهى الرغفان واللحوم المصلية والحلويات فى الاعياد والمواسم ٠

والذى يتولى نقل الواح الخبز أو صوانى الحلويات أو اطباق اللحوم اليها هو الطراح واللفظ بغدادى واندلسى فى الآن الواحد وبالتالى فهو مغربى شامل ٠ وللطراحة أصول كمعرفة العلامات الخاصة لخبز كل عائلة وله رسوم عـــلى طهى الخبـــزة ونقلها وطهى

الاطباق والصوانى ويأخذ جزءا من الحلويات واللحوم وممن سمى الطراح أبو سلامة كان حيا سنة 720 ٠

كان نحويا شرح قصيدة حازم القرطاجنى التونسى فى النحو فى مجلدة (انظر السيوطى ـ بغية الوعاة ، ص 402 ـ وكوشة العصافرى بنهج سطاوالى ثم حومة سيدى عبرة أو حومة اليهود ٠ وتسمى فى تونس حارة اليهود وفى المغرب ملاح اليهود

2 ـ جوامع عنابة :

فى آخر القرن الثامن عشر الميلادى كانت توجد لعنابة 37 جامعا ٠ لكن لكثيرا منها كان مهملا وفى حالة خراب لتهاون بعض الوكلاء الذين لا يستغلون أملاك الاوقاف المحبسة عليها ـ ونظرا لهاته الحالة أحضر باى قسنطينة صالح باى القاضى والمفتى واعيان عنابة وسجلوا هذه الحالة فى عقد حرر بتاريخ ربيع الثانى 1193هـ (1779م) ، ويتبين من ذلك أن الجوامع الكبار المعتبرة ثلاثة ٠

أولا ـ جامع سيدى مروان ـ الذى هو جامع رباط عنابة فى أعلى الجبل ٠ وقد بنى الرباط فى القرن الثالث الهجرى على العهد الاغلبى ، وهو رباط عظيم ذو طيقان ٠ وبه كان يرابط مروان عبد الملك الصالح الفقيه وكان يدرس هناك الفقه والحديث ٠ وعندما جاء الفرنسيون حولوا الجامع الى مستشفى عسكرى ثم خلص منهم سنة 1943 ، واهتم اهل عنابة باعادته وفرشه بفاخر الرياش واعادة الدروس اليه ـ وهو جميل وكبير ـ يشرف على المدينة والبحر ، وكانت به مكتبة كبرى احتفظ له الوقاء وقت الاحتلال وجدر عليها ٠

ثانيا ـ جامع الباى ـ وهو الجامع الحنفى وسمى أيضا الجامع الكبير والجامع الحنفى والجامع الجديد تركى الطراز بديع الزخرف ـ بناه الامير صالح باى ـ باى قسنطينة ، وبالتالى باى عنابة (1775 ـ 1792) وكتب عليه فوق بابه الذى بنهج القاضى ما يلى :

لعمرك بيت الله للسر جامع ... مشيد أركان ـ به النور ساطع

بدت دونه زهر الكواكب رفعة ... به بونة للسعد منها مطالع

به جـــاد تاج الدين والمجـد صالح الى درج العليـــاء راق وطـــالـــع
أمـير البرايـا زاد ظفـــرا ونصرة مؤيـد ديـن الحق للشرع تـابـــع
رفع أساس البيت الرفيع على الهدى فأرخه للخير « بركـة جامـــع »

ومجموع الحروف المتتالية للخير بركة جامع بحروف الجمل 1206 هجرية ــ 31 أغشت 1791 ــ 18 أغشت 1792 ·

ثالثا : جامع الرمانات Mosquée des grenadiers اذ جرت العادة زرع رمانات أو نارنجات بصحون الجوامع للظل والزيادة فى الجمال · كاد سنة 1830 أن يكون فى حالة خراب ، ولم يكن به يومئذ امام مثل سالفيه ·

رابعا : وهناك أيضا جامع رابع سمى جامع الشبكة اضمحل وحلـــت محله زاوية سيدى عبد الرحمن الواقعة فى ركن نهج القديس أوغستينوس ونهج كستيليونى ، وبقى على وزارة التعليم الاصلى والشؤون الدينية ان تبحث عن الجوامع الاخرى حتى تتبين عظمة الحياة الدينية بهذه العاصمة الاسلامية الكبرى ·

اســواق المدينـــة :

يصف لنا المقدسى (أحسن التقاسيم) واليعقوبى (صفة بلاد المغرب) وكلاهما من القرن الثالث الهجرى على عهد الرستميين بالجزائر والاغالبة بتونس ــ أسواق بونـــة ويلحق بهما أبو عبيد البكرى الذى يعتمد على ما ألفه محمد بن يوسف القيروانى الوراق الذى ألف عن كل مدينة ذات شأن بالمغرب كتابا منفردا ، فألف عن اخبار تيهرت ووهران وتنس وبونة وسجلماسة وغيرها ·

ولد محمد بن يوسف سنة 292 ــ 904 وتوفى سنة 361 ــ 973 واذن فنحن دائـما فى نفس المدة ·

ثم جاء ابن حوقل فى العصر الفاطمى ، وابن حوقل زار المغرب وقدم تقريرا وصفيا مستوفى فى وصفه · وبذلك صار لنا وصف اسواق بونة فى القرن الرابع · ونجد وصفا آخر فى القرن الخامس وهو للادريسى على عهد الحماديين وقد أقام مدة مطولة ببجاية ، يبحث عن النباتات ويجمعها ويصورها · واذن فـ ـه لابد أن يكون قد زار بونة من أجل

جبل اليدوغ وما فيه من نباتات ، فوصفه يرجع بنا الى العهد الحمادى الذى هو عهد زاوى بن زيرى وأبنائه بمدينة بونة المستقلة يومئذ داخليا على الأقل • وفى العصر الحفصى (الزيانى بالجزائر) كان أمير حفصى يتولى أمر بونة • وقد وصفها لنا العمرى فى كتاب الاستبصار وصفا مفصلا ووصفها لنا القلقشندى فى الجزء الخامس من صبح الاعشى وصفا دقيقا • ووصف لنا محمد الوزان (ليون الافريقى) ابدع وصف ، ثم جاء مرمول الاسبانى فأكمل البقية • هذا علاوة عن رحلات ابن بطوطة وخالد البلوى والعبدرى وغيرهم •

اما عند الاستيلاء الفرنسى ، فالاسواق الموجودة هى الآتية :

أولا : خارج السور ـ يوجد سوقان :

ـ سوق الرحبة للحبوب •

ـ سوق المواشى للبقر والغنم وما يتبع •

ثانيا : الاسواق التى داخل المدينة حول الجامع الكبير ، الذى ربما كان فى مكان جامع البـــــاى •

فهناك الاسواق الآتية :

1 ـ سوق الحوكة ـ ج ـ حائك ، وهو يقابل سوق البرانسية بتونس ـ كان يقع فى أعالى نهج لويس فيليب •

2 ـ سوق الحجامين ، وسمى الحجامين لا الحفافين ، كما هو اسم الحجام بالجزائر • بنهج القديس لويس سابقا ، ومثله يوجد بتونس فى الربض الاعلى •

3 ـ سوق الدزارين ـ الجزارين ـ يقع بنهج هليوبوليس •

4 ـ سوق النجارين •

5 ـ سوق الفخارين ـ بنهج الاهرام ـ الفخارين بتونس داخل السور والقلالين خـارجـــه •

6 ـ **سوق العطارين** ، والمقصود به باعة العطور والروائح التى يحتاج اليها المصلى ـ لقول النبى صلى الله عليه وسلم : من ذهب منكم الى المسجد ـ فليتعطر وليتبخر ـ أو كما قال • لذلك كان سوق العطارين بتونس مستندا الى الجدار الشمالى من جامع الزيتونة

والى الآن بمدينة بالرم بصقلية لا يزال بعض الجوامع التى صارت كنائس تستند الى جدار يسمى Socco Lattarini Grandi سوق العطارين الكبار ·

أما سوق الطيبين بتونس فهو أمام صحن الجنائز بالزيتونة ، فلذلك فان سوق العطارين بعنابة لابد أنها كانت مستندة الى جدار الجامع الاعظم ، وهو الآن بالنهج الذى كان يسمى بنهج لابيرنار ·

7 ـ **سوق الجيارين** ـ أى سوق صانعى الجير وباعته ، وهو يقابل الجيارة بتونس فى الربض الاعلى يقع بنهج سولى Sollier مستندا الى باب قسنطينة فى الجنوب من المدينـة ·

8 ـ **سـوق الحدادين** ، وتقع غالبا بين آخر السور الداخلى وبداية الارباض لتكون بعيدة عن المساكن اتقاء نيرانها ودويها، وكانت تقع فى أسفل نهج لويس فيليب وراء دار Rancrozi ·

9 ـ **سـوق الخرازين** ـ أى الاساكفة ولعل المقصود هو البلاغين ـ أى صناع البلغة وكانوا يسمون فى تونس بلاغين ويسمون الآن بالغاجبة أو بالاغجبية على أن أسـواق الاحذية كثيرة،منها الشبارلية جمع شبرلة من اللاطينية كبرلة أى العنز الصغيرة أو الجدى الصغير لان جلدهما طيب جيدا فارفع الاحذية عند الاوروبيين تكون من Chevreau والشبرلة لباس رومانى مغربى للنساء أسود اللون عديم العقب · Mocassin

وهناك سوق اليمانى وهو أجمل الاحذية العربية معروفا فى كامل العالم الاسلامى وهو من الجلد الاحمر الرقيق ، وكانت سوق اليمانى بتونس وسوق الشبارلية بشارع القصبة بتونس الى ما بين الحربين العالميتين ·

والحذاء الاحمر يفدى ، يقول المصرى فى رجلى ولا فيك ياأحمر · ويقال بتونس فى ساقى ولا فى السباط ، وأتى الاتراك أيضا بالطماق وباشمق ، ولابد من أن الاسواق كانت موجودة فى بونة · والله أعلم ·

لكن مغازات الحذاء الاوروبى (الصباط) بالنسبة للرجال والايسكربين بالنسبـة للنساء · قد غزت عنابة منذ الاحتلال الاسبانى وكذلك تونس والمغرب وبقية الجزائر ·

وسوق الخرازين لا تزال موجودة بالرباط وبفاس ومكناس وسلا · فلابد أن أسواق السلاح أمثال السرايرية والزنايدية والرماحين والسيافين قد كانت هناك ·

وكان جند الانكشارية Janissaire الاتراك يسكن قشلات ثلاث ، تسمى كل واحدة طبانة ، ومن تحريف طوبخانة التى تسمى فى تونس تربخانة ومعناها دار المدافع وبوجه عام دار السلاح وهذه الطبانات هى :

1 ـ طبانة القصبة وهى كانت فى موضع غرب المستشفى العسكرى متكئه على جامع سيدى مروان وهذا مفهوم لان سيدى مروان رباط يحتاج الى السلاح فى المقام الاول ·

2 ـ **طبانة المقابر** أو برج القصارين نحو باب الحروبة ·

3 ـ **طبانة القلعة** فوق باب البحر ، وهذا واضح ، وأيضا لان باب البحر ثغر ، والمثل يقول الباب المحلول تدخل منه الغولة والغول ، فيجب أن يكون السلاح هناك ·

بقى أن نقول أن عنابة ثغر كبير على البحر الابيض المتوسط له صلات ومعاهدات تجارية مع البندقية وبيزه وجنوة ومرسيلية والاندلس والتجار النصارى يأتون اليه ببضاعتهم ولهم أسواق خاصة بهم فى البلدان الاخرى ، فأين هى أسواقهم بعنابة وأين كانت ؟ ثم نحن نعلم أن عنابة تنتج الشمع فلابد أنها تصنع الشموع فأين هى سوق الشماعين ؟ اذ لابد أن تكون قريبة من الجامع الاعظم ، لان الصلوات ثلاث ليلية واثنتان نهارية ـ والليلية تحتاج الى شمعة للطريق وشمعة للجامع ، وشمعة الطرق تحتاج الى سوق الفنارية لحمايتها من الرياح وهو يقع غالبا فى الجدار القبلى من الجامع الاعظم ، وأين هى سوق الكتبية ؟ لان الجامع مدرسة ومكتبة ، وأين هى سوق السلاح لكن هذه السوق سهلة التعيين ، فهناك أمام الجامع الكبير الذى هو جامع صالح باى ساحة تسمى ساحة السلاح ·

بلدية عنابة :

جعل الفرنسيون من عنابة بلدية يوم 21 جانفى 1848 وتتالف الهيئة من رئيس بلدية ومساعدين وسمى لاكومين رئيسا يوم 28 من نفس الشهر ·

وكانت ميزانية البلدية يومئذ 1·458·000 فرنك ـ وفى يوم 3 يوليو 1854 تالفت البلدية نهائيا ، فكانت تشمل رئيس البلدية ومساعدين يسميهما الامبراطور (يومئذ)

وعشرة مستشارين : ستة وستين واثنين من الاجانب ، و «اهل » واحد ··· ما شاء الله· ياله من عمل صالح يرفعه الله الى أسفل !

وآخر « اهلي يهودى » يسمى مانوريك الضابط العسكرى سابـــقا رئيسا يـــوم 1854/12/23 وتولى مهام وظيفه يوم 16 فبراير 1855 منذ العهد الحفصى على الاقل ان لم يكن منذ العهد الاغلبى ويسمى فى مصر مختار وفى المغرب المقدم ، وكان المحرك موجودا من قديم فى عنابة الى أوائل الاحتلال الفرنسى ، وهو الذى كان يتولى ما ذكرنا · وأسمه المحرك أيضا ، ويسمى بالفرنسية Maitre et chef du cartier de cérémonie

ومن حارات عنابة ـ حومة بير جرادة ، وجرادة امرأة قسنطينية ، كانت هذه البئر على ملكها فوهبتها الى عنابة وربما كانت البئر المالحة التى يتحدث عنها البكرى ·

ويتولى تدبير شؤون الحومة رجل يسمى المحرك تابع لمشيخة المدينة ، له مكتب يتولى تلقى التصريح بالولادات والوفيات وتنظيم المواكب العائلية من ختان وحمـــل جهـــاز العروس وعشاء العرس وتنظيم جوقات الطرب ووضع الخباء على صحن الدار واستدعاء الناس وهو الذى يزود دار العرس بالكأس والطنافس وطاولة العشاء والصحون وقدور الطبخ ويزود الجامع بالمباخر والمرشات والبخور وقلال الشربات عند كتابة العقد بالجامع او بالزاويـــة ·

وهو يتولى تنظيم الجنائز والاعلام بالوفاة وجلب المغسل والنعش والقراءة والمثارد لطعام الفرق وغيره وحضور الدفن وقبر الميت ··· الخ · ومجموع المحركين تحت امرة الشيخ عليهم يسمى باش محرك ـ أى رئيس المحركين ، وكان المحرك موجودا بتونس ·

اما حارة اليهود فهى بنهج Belesaire et Damermort وهناك أيضا حومة العقبة ـ أى الصعدة ـ وهى تقع بنهج Vieille St Augustin ، وهناك حومـــة حمام القائد بنهج Royale ويوجد فى هذا الحى حمامات القائد التى هى على ملك عائلة أحمد بن الشيخ التى لها طراز معمارى غريب ·

والحمام مؤسسة دينية واجتماعية وصحية ضرورية فى الاسلام بسبب الصلاة التى تفرض الطهور الاكبر والطهور الاصغر ـ ولان النظافة من الايمان ـ ولكل حمام فرناق ـ

fornax - fournaiseويسمى فى المشرق مستوقدا تحشر اليه المزابل والحطـ، لاحماء الحمـام وتغلية النحاسة التى توزع الماء الحار على المستحمين والفرناق تشوشط به الاكـرع ورؤوس الاغنام لصناعة حساء الهرقمة فهذه مؤسسات اسلامية ضرورية فى كل حى اسلامى .

البـــاب الـرابـع
فى بعض علماء بونـة

الوليـــد البـــونى :

هو الوليد بن أبان بن بونة البونى ثم الأصبهانى أبو العباس .

مفسر : محدث حافظ .

ارتحل رحلات كثيرة ، وحدث عن أحمد بن الفرات الرازى وطبقته .

وعنه أبو الشيخ والطبرانى وغيرهما من أصل اصبهانى

توفى باصبهان سنة 310/922 .

من آثاره : تفسير القرآن ، المسند المعلل فى الحديث .

مصادره ـ أولا ـ المخطوط .

أبو الشيخ طبقات المحدثين باصبهان 307 ـ 308 .

ابن شاكر الكتبى : عيون التواريخ 12/3 .

الذهبى سير النبلاء 9/212 .

ثانيا ـ المطبوعة :

ابن الاثـير : اللباب 1/153 .

ابن العماد : شذرات الذهب 2/261 .

البغدادى : ايضاح المكنون 2/483 .

كحالـة المؤلفين 13/163 .

الذهبى : تذكرة الحفاظ 3/6 ٠

مرآة الجنان 2/250 ٠

الزركلى : الاعــلام 9/129 ٠

البــــونى :

هو : العالم المجاهد المرابط الفقيه المحدث مروان بن محمد ـ وفى « الصلة » ابن على الاسدى الاندلسى البونى ـ المالكى ـ أبو عبد المالك ، أصله من قرطبة ٠

روى بها عن : عبد الرحمن بن محمد بن فطيس وغيره ٠

روى بالقيروان وطلب العلم بها عن : ابى الحسن القاسمى ، وأحمد بن نصر الداوودى، ثم استقر ببونة مدرسا ومرابطا وتوفى برباطه وبه قبره ٠

روى عنه : حاتم بن محمد ٠

توفى ببونة قبل 440/1048 ٠

لــه كتاب كبير شرح فيه موطا مالك رضى الله عنه ٠

مصـــــادره :

ابن بشكوان ـ الصلة 557 ٠

الحميــدى ـ جذوة المقتبس 321 ٠

الضبى ـ بغية الملتمس 446 ٠

ابن فرحون ـ الديباج المذهب 345 ٠

البغدادى ـ ايضاح المكنون ٠

البــــونى :

هو : محمد بن أحمد البونى (أبو المواهب) فاضل ٠ له حزب النصر ٠

تــوفى فى سنة 632/ 1235 ٠

مصادره : البغدادى ، هدية العارفين 2/345 ٠

سركيس : معجم المطبوعات 593 .

فهرس دار الكتب المصرية 3/320 .

كحالة المؤلفين 8/241 .

البـــونى :

هو أبو العباس أحمد بن على بن يوسف أبو العباس البونى ، عالم بسر الحـروف والعلوم الغيبية مغربى الاصل ، نسبته الى مدينة عنابة التى كانت تسمى قديما بونـة وهى تقع بشرق الجزائر على شاطىء البحر المتوسط وسط جبال اليدوغ وغاباته .

توفى بالقاهرة سنة 622/1225 م .

تآليفه : شمس المعارف الكبرى فى علم سر الحرف والخواص . ويسمى أيضا شمس المعارف ولطائف العوارف فى علم الحروف والخواص . أربعة أجزاء من أجل « الكتـب فى الموضوع الخاص » .

رسالة فى شرح اسم الله الاعظم ط . أولى وثانية .

مواقف الغايات فى اسرار الرياضيات .

فضل باسم الله الرحمن الرحيم .

مصـــادره :

اسماعيل البغدادى ـ هدية العارفين 1/90 .

جامع كرمات الاولياء .

ابن العنـــابى

هو : محمد بن محمود بن محمد بن حسين الجزائرى العنابى الحنفى الشهير بابن العنابى فقيه مقرىء مجود للقرآن عالم بالفنون العسكرية تولى افتاء الاسكندرية فى عهد محمد على خديوى مصر .

تــوفى بالاسكندرية سنة 1267/1851 .

تآليفه : السعى المحمود فى ترتيب العساكر والجنود .

التوفيق والتسديد فى شرح الفريد فى التجويد ·

مصـــــادره :

البغدادى : هدية العارفين 2/378 ·

فهرسة الخديوية 1/94 ·

فهرسة التيمورية 2/64 ، 3/57 ·

البغدادى : ايضاح المكنون 2/118 ·

فهرسة الازهرية 1/321 ـ 322 ، 6/462 ·

كتبخانة خسروباشا ـ 6 ·

كحالة المؤلفين 12/5 ·

الزركـلى الاعـلام 7/311 ·

سركيس معجم المطبوعات 1720 ·

مخلوف : شجرة النور الزكية ·

وراجع خصوصا دراسة العلامة الدكتور سعد الله العدد الاخير من مجلة « الاصالة »

البـــونى

هو : أبو الحسن على بن عبد الله البونى الانصارى الشيخ الفقيه الوجيه السرى الفاضل العدل أبو الحسن على بن عبد الله الانصارى من أهل بونة ممن عرف بالدراية والعلم والامانة ، والحفظ والصيانة ، وكانت له وجاهة وناب عن القضاة بحضرة بجاية ، وكان ذلك لنهوضه فى الاحكام ومعرفته بوجوه الحلال والحرام ·

ولم يزل نبيه الذكر ، معروف القدر ، موصوفا بالخير ، وذلك بعد طول مدة من وفاته، وليس ذلك الا لوفور حظه فى وقته وشهرته رحمه الله وغفر له ·

عنابة
من الفتح الإسلامى إلى أواخر العهد الموحّدى

د · رشيد بورويبة
معهد العلوم الاجتماعية
جامعة الجزائر

لا نعرف بالضبط متى افتتحت مدينة هيبون ، وهو اسم مدينة عنابة فى العصور القديمة ، من طرف الجيوش الاسلامية ولنا فيما يخص تاريخها فى عهد الفتح الاسلامى ، المعلومات التى أتانا بها ابن الاثير صاحب « الكامل فى التاريخ » (1) ·

فقال ابن الاثير : وهو يحدثنا عن حسان بن النعمان « وخافه اهل افريقية خوفا شديدا ، ولجا المنهزمون من الروم الى مدينة باجة فتحصنوا بها وتحصن البربر بمدينة بونة» ونعرف أيضا ان المسلمين عند وصولهم الى بونة ، وهو الاسم الذى كانت تحمله مدينة عنابة فى العصور الوسطى ، نزلوا بالمدينة القديمة هيبون ·

وأقدم وصف لمدينة بونة نجده فى « كتاب صورة الارض » لابن حوقل (2) · فجاء فيه : « ومدينة بونة مدينة مقدرة ليست بالكبيرة ولا بالصغيرة ومقدارها فى رقعتها

(1) ابن الاثير ، الكامل فى التاريخ ، ج · 2 ، ص : 32 ·
(2) ابن حوقل ، كتاب صورة الارض ، ج · 1 ، ص : 75 — 76 ·

كالاربس وهى على نحر البحر ولها أسواق حسنة ورخص موصوف وفواكه وبساتين قريبة وأكثر فواكهها من باديتها والقمح بها والشعير فى أكثر أوقاتها كما لا قدر له ، وبها معادن حديد كثيرة ويحمل منه الى الاقطار الغزير الكثير ويزرع بها الكتان ولها عامل قائم بنفسه ومعه من البربر عسكر لا يزول كالرابطة ومن تجارتها الغنم والصوف والماشية من الدواب وسائر الكراع وبها من العسل والخير والمير ما تزيد به على ما داناها من البلاد المجاورة لها وأكثر سوائمهم البقر ولها اقليم واسع وبادية وحوزة بها نتاج كثير وقل من بها تقوته الخيل السائمة للنتاج » ·

والمقدسى الذى عاش فى القرن الرابع الهجرى العاشر الميلادى لا يخصص لبونة الا سطورا قليلة كان المدينة كانت فقدت من أهميتها · فقال : « وبونة بحرية مسورة بها معادن حديد ؛ شربهم من الآبار»(3) ·

وفى بداية القرن الخامس الهجرى الحادى عشر الميلادى بنيت مدينة جديدة بجانب المدينة القديمة وأخذت اسم « بونة الحديثة » وعلى قول ستيفان كسال (4) ، يمكن ان تأسيس المدينة الحديثة يرجع الى تغيير سيل نهر سبوس الذى فاض على جانب من مدينة هيبون القديمة والى تراكم الغرين الذى ابعد هذه المدينة من الساحل.واما البكرى (5) ، الذى ألف كتابه فى القرن الخامس الهجرى الحادى عشر الميلادى فيذكر ان بونة كانت تحتوى على ثلاثة مواقع : بونة ومدينة سبوس أو مدينة زاوى وبونة الحديثة · فقال : « ومدينة بونة مدينة أولية وهى مدينة افشتين العالم بدين النصرانية وهى على ساحل البحر فى نشز من الارض منيع مطل على مدينة سبوس وتسمى اليوم مدينة زاوى وبينها وبين المدينة الحديثة نحو ثلاثة اميال ولها مساجد وأسواق وحمام وهى ذات ثمر وزرع وقد سورت بونة الحديثة بعد الخمسين وأربعمائة · وفى بونة الحديثة بئر على ضفة البحر منقورة فى حجر صلد يسمى بئر النثرة منها يشرب أكثر أهلها وبغربى هذه المدينة ماء سائح يسقى بساتين وهو مستنزه حسن · ويطل على بونة جبل زغوغ وهو كثير الثلج

(3) المقدسى ، كتاب احسن التقاسيم فى معرفة الاقاليم ، اقليم المغرب ، ص : 18 ·
(4) ستيفان كسال ، مجموعة خرائط آثارية جزائرية ، ورقة 9 رقم 59 ·
(5) البكرى ، كتاب المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب ، ص : 54 — 55 ·

والبرد ومن العجائب ان فيه مسجدا لا ينزل عليه شيء من ذلك الثلج وان عم الجبل كله . ومدينة بونة برية وبحرية كثيرة اللحم واللبن والحوت والعسل وأكثر لحمانها البقر الا انها يصح بها السودان ويسقم البيضان وحول بونة قبائل كثيرة من البربر مصمودة واوربة وغيرها وأكثر تجارها اندلسيون ومستخلص بونة غير جباية بيت المال عشرون الف دينار».

ان المدينة الحديثة التي تحدث عنها البكرى بنيت على التل الذى يطل على الميناء وفى عهد بنى زيرى ازدهرت بونة ازدهارا كبيرا بفضل التجارة مع الاندلس والقرصنة فى غربى البحر الابيض المتوسط . ان الغارات التى كان يقوم بها سكان بونة أدت الى رد فعل سكان بيزة الذين هجموا على بونة واحتلوها مدة فى سنة 426 هـ/1034 م .

وفى المقال الذى خصصه كريستيان كورتوا (6) « للتجارة البحرية فى افريقيا فى القرن الحادى عشر الميلادى » (الخامس الهجرى) يلاحظ صاحب المقال ان سكان مدينة بيزة اختاروا مدينة بونة كهدف لغاراتهم لان المسافة بونة ـ كاغليارى هى على وجه عملى أقصر مسافة موجودة بين افريقيا وسردينية وان المراكب كانت بطبيعة الحال تسلك هذا الطريق فى العصور القديمة وفى العصور الوسطى الاولى .

هكذا نرى ان بونة عرفت ازدهارا عظيما فى الميدان الاقتصادى فى العهد الزيرى . فعرفت أيضا ازدهارا هاما فى الميدان المعمارى . ومن المبانى التى شيدت بها فى هذه الفترة من تاريخها نذكر جامع سيدى ابى مروان الذى ما زال موجودا الى أيامنا هذه .

فيما يخص تاريخ تاسيس هذا المسجد قال جورج مارسى (7) ان عالم من علماء عنابة أعلمه بان مؤرخا من مؤرخى المدينة اسمه أحمد البونى ، كان ذكر فى كتاب عنوانه : « الدرة المكنونة » ان تاريخ بناء جامع سيدى أبى مروان يرجع الى سنة 425 هـ/1033 م.

---

(6) كريستيان كورتوا ، ملاحظات عن التجارة البحرية فى افريقيا فى القرن الحادى عشر (الميلادى) ، مجموعة مقالات فى التاريخ وعلم الآثار للمغرب الاسلامى ، ج . 2 ، ص : 51 ـ 59 .

(7) جورج مارسى ، جامع سيدى أبى مروان بعنابة ، مجموعة مقالات لشرف ويليام مارسى ، ص : 234 .

فاخذ هذا المسجد اسم الشيخ سيدى أبى مروان الذى وصـــل الى بـونة فى سنة 1111/505 ودفن بحجرة موجودة بجانب المئذنة • فكان جامع سيدى أبى مروان مـــا زال جميلا فى وقت الاحتلال الفرنسى كما نستطيع أن نراه عبر صـور ليسور ووايلد ورسوم بربروغر • ولكن بعد الاحتلال الفرنسى حول جـــامع سيدى أبى مـروان الى مستشفى فى سنة 1841 وبنيت طبقة أولى فوق بيت الصلاة هذا مـا أدى الى تغييرات عديدة منها هدم القبتين اللتين كانتا تعلوان الاسكوب الاوسط لبيت الصـلاة وادخال صفين من السوارى فى دعائم ثمانية الاضلاع وعديمة الاناقة •

مع ذلك جامع سيدى أبى مروان الذى يعتبر أقدم مسجـد جزائرى وصـــل الينا ما زال جديرا بان نعتنى به كل الاعتناء (8) •

فيحتوى هذا المسجد الذى يبلغ طوله 36،50 م وعرضه 19،60 م على بيــت صـلاة طولها 19،60 م وعرضها 19،20 م وصحن تحيط بـه أروقة من جهـــاته الاربع • ان بيت صلاة جامع سيدى أبى مروان مبنى على سوارى من الرخام مجلوبة من المبـــانى القديمة تعلوها تيجان قديمة أو اســلامية • ان التيجان الاسلامية من أنواع مختلفة : تيجان ذات صف أو صفين من أوراق الاكنتس منها تحتوى على صفين من ثمانى أوراق ومنها مالها صفها العلوى مكون من أربع أوراق وصفها السفلى مكون من ثمانى أوراق •

وما يلاحظ فى بيت صلاة سيدى أبى مروان هو ان الاقواس كلها على شكل حـــدوة الفرس وترتكز على التيجان بواسطة ثلاثة عناصر معمارية ، الكتف والركيزة والطنف • ووجود هذه العناصر الثـلاثة بين الاقـواس والتيجان يرجع الى ان السوارى المستعملة جلبت من مبانى قديمة ولم يكن ارتفاعها كافيا بالنسبة الى الجامع •

ولمحراب بيت الصلاة مشكاة نصف دائرية القعر تعلوها قبة نصفية فقدت زخرفتها كلها • وعلى يمين ويسار المحراب نجد ساريتين موضوعتين على مقعد احداهما مـــزينة بتـــاج اســلامى الشكـــل •

(8) انظر ، ر • بورويبة ، الفن الاسلامى الدينى فى الجزائر ، القسم الاول الفن الزيرى والحمادى ، ص : 21 ـ 65 •

وكان لجامع سيدى ابى مروان وقت الاحتلال قبتان موضوعتان فى طرفى الاسكوب، الاسكوب الاوسط العمودى لجدار المحراب . فهدمت هتان القبتان ، كما ذكرناه فيما سبق ، عندما بنى الطابق الاول ، ولكن احتفظنا بصور تسمح لنا ان نتخيل عناصر القبة الموجودة فى ملتقى الاسكوب الاوسط لبيت الصلاة والرواق الجنوبى للصحن . ان هذه القبة تتكون من الخارج من قاعدة مربعة يعلوها حزام اسطوانى الشكل ثم القبة بذاتها مزينة باخاديد تشكل معرجات . فلم تجد زخرفة من هذا النوع الا فى بنائين مغربيين آخرين الا وهما : قبة جامع القرويين بفاس وقبة بين القهاوى بسوسة . اما القبة من داخلها فترتكز على الجدار الذى يفصل بيت الصلاة عن الصحن من جهة الجنوب ومن جهة الشمال على مجموعتين من السوارى كل مجموعة كانت تحتوى على ثلاث سوارى . فقدت المجموعتان من السوارى اللتان كانتا ترتكز عليهما قبة البهو أى القبة الموجودة فى ملتقى الاسكوب الاوسط ورواق الجنوبى للصحن ولكن احتفظنا بالمجموعتين اللتين كانت ترتكز عليهما القبة الموضوعة امام المحراب . وفوق القاعدة المربعة ، المكونة من جدار بيت الصلاة وثلاثة اقواس مرتكزة على السوارى وجدار بيت الصلاة ، نجد أربعة عقود زوايا موضوعة كما يدل عليها اسمها فى الزوايا الاربع للقاعدة تسمح المرور من القاعدة المربعة الى الحزام الاسطوانى . اما القبة فى ذاتها فكانت على ما يبدو مزينة باخاديد .

ولجامع سيدى أبى مروان مئذنة مبنية فى الزاوية الشمالية الشرقية للصحن بجانب ضريح سيدى أبى مروان . وفى ايامنا هذه تشتمل هذه المئذنة على خمسة بروج موضوعة بعضها فوق بعض . ان ارتفاع البرج الاول يساوى 17،50 م . وطول ضلع قاعدته المربعة 4،6 م . وينتهى هذا البرج بسطيحة محاطة بجدار تعلوه شرفات . ونصعد الى هذه السطيحه بسلم عرضه 90 سم ، يدور حول نواة مركزية غير خاوية ويؤدى الى بيت صلاة صغيرة نرى فيها محرابا ذا مشكاة نصف دائرية القعر عرضها 76 سم ، وجوفها 62 سم ، وارتفاعها 2 م . ومن الجدير بالذكر هو اننا لم نجد بيت صلاة من هذا النوع الا ببرج خلف بسوسة الذى يرجع تاريخه الى القرن الثالث الهجرى التاسع الميلادى والبرج الثانى للمئذنة يساوى ارتفاعه 4،50 م . وضلع قاعدته 2،50 م ، وكل وجه من وجوهه الاربعة مزين بمشكاة مسطحة القعر على شكل قوس مكسورة . اما البرج الثالث

فله شكل مضلع ثماني الاضلاع ارتفاعه 2 م · فيعلوه بريجان احدهما اسطواني الشكل والثاني على شكل مخروط ·

هذا هو شكل مئذنة جامع سيدى أبى مروان حاليا ومن بروجها الخمسة لم يرجع الى العهد الزيرى الا البرج السفلي ·

وفي أخير الدراسة التي خصصناها الى جامع سيدى أبى مروان نذكر ان اثناء الترميمات التي اجريت به في السنين الماضية عثروا على عدة دنانير من الذهب يرجع عهدها الى الدولة المرابطية ·

فلنرجع الآن الى تاريخ مدينة بونة لنلاحظ ان الدولة الزيرية ضعفت كثيرا بعد وصول بني هلال الى افريقية واصبحت لا تسيطر الا على مدينة المهدية وناحيتها · فاغتنم الامير الحمادى الناصر هذه الفرصة لاحتلال مدينة بونة وجميع الموانىء الموجودة بينها وبين تونس وفي عهد الامير الحمادى المنصور بن الناصر ثار بلبار عم المنصور بقسنطينة· فاغتنم هذه الفرصة قائد من قبيلة بني هلال اسمه ابن مسعود ليحتل بونة التي كانت تابعة لولاية قسنطينة ·

فبعث المنصور أبا يكنى ليحارب بلبار ويتولى الامر بقسنطينة وبونة ولكن أبا يكنى، بعد ما تغلب على بلبار ، خان المنصور وعين أخاه ويجلان على رأس ناحية بونة وخضع للامير الزيرى تميم وسلم له مدينة بونة · فقبل تميم وبعث ابنه أبا الفتوح الى بونة ليتولى الامر بها ·

امام هذا الامر بعث المنصور جيشا لمحاربة أبى يكنى وحليفه أبى الفتوح وبعد حرب دامت سبعة أشهر احتل من جديد مدينة بونة ·

وفي عهد يحيى بن العزيز الامير الحمادى الاخير كانت بونة تحت سلطة أخيه الحارث· وبعد فتح بجاية من طرف الموحدين ، أراد يحيى بن العزيز ان يسافر الى المشرق عند الخليفة العباسى فغادر بجاية ونزل ببونة حيث لامه أخوه الحارث على تسليم عاصمته وطلب منه أن لا يسافر الى المشرق عند الخليفة العباسى ، ولكنه لم يقترح عليه البقاء ببونة · فاضطر يحيى الى السير الى قسنطينة حيث استقبله أخوه الحسن استقبالا حارا وتخلى عن منصبه لفائدته ·

وبعد ما فتح الموحدون بجاية وقلعة بنى حماد وقسنطينة لم يحاولوا ان يحتلـــوا بونة • ولذلك فى رجب 548/سبتمبر ـ أكتوبر 1153 ، استطاع الاسطول الصقلى الذى كان على رأسه فيلب المهدوى ان يفتح بونة فكان فيلب المهدوى مسلما من المهدية كما يدل عليه اسمه جحد الاسلام واعتنق المسيحية وفتح بونة بمساعدة بنى هـــلال • فنهبت بونة وأسر سكانها ما عدا عدد من العلماء سمح لهم فيلب المهدوى ان يلجأوا مع عائلتهم الى المدن المجاورة • وبعد ما قضى فيلب المهدوى اياما ببونة ، رجع الى صقليـــة واشهرا قليلة بعد ذلك قضت عليه محكمة كنائسية بالاعـــدام • فحـــرق فى رمضان 548/ديسمبر 1153 • وحسب ابن الاثير (9) قضى على فيلب المهدوى بالاعدام من جهـة لانه عامل سكان بونة بلطف مبالغ ومن جهة أخرى لانه كان بقى يتبع الشريعة الاسلامية سريـــا •

وبدون شك الوصف الذى اتانا به الادريسى لمدينة بونة يرجع الى هذا العهد فقال : « ومدينة بونة وسطى ليست بكبيرة ولا بالصغيرة ومقدارها فى رقعتها كالاربس وهى على نحر البحر وكانت لها اسواق حسنة وتجارة مقصودة وارباح موجودة وكان فيها كثير من الخشب موجود جيد الصفة ولها بساتين قليلة وشجر وبها من أنواع الفواكه ما يعم أهلها وأكثر فواكهها من باديتها والقمح والشعير فى أوقات الاصابات كما وصفنا كثير جدا وبها معادن حديد جيد ويزرع بأرضها الكتان والعسل بها موجود ممكن وكذلـــك السمن وأكثر سوائمهم البقر ولها اقاليم وأرض واسعة تغلبت العرب عليها وافتتحت بونة على يدى احد رجال الملك المعظم رجار فى سنة 548 وهى الآن فى ضعف وقلة عمارة وبها عامل من قبل الملك المعظم رجار من آل حماد وعلى مدينة بونة وبجنبيها جبل يدوغ وهو عالى الذروة سامى القمة وبه معادن الحديد التى ذكرناها آنفا » • (10)

واثنتى عشرة سنة بعد ما احتلها نورمانديو صقلية فتحها الموحدون • وفى حوالى سنة 1203/600 سقطت بونة بين يدى يحيى بن غانية • ولكن هذا الاحتلال لم يـــدم

(9) ابن الاثير ، الكامل فى التاريخ ، ج9 ، ص 42 •
(10) الادريسى ، وصف افريقيا الشمالية والصحراوية ، ص : 85 ـ 86

ولم تلبث بونة ان خضعت للموحدين من جديد وبقيت تحت سلطتهم الى ان تأسست الدولة الحفصية ٠

هكذا كما رأيناه فيما سبق لعبت مدينة بونة دورا هاما ابتداء من العهد الزيـــرى وترجع اهميتها الى خصب أراضيها الصالحة فى نفس الوقت للزراعة ولتربية المواشى والى وجود معادن الحديد اجيد فى جبالها واخيرا الى انها ، بفضل مينائها ، مركز تجارى ذى حركة مستمرة ومثمرة ٠

عنابة فى عهد الحفصيين

د٠ عبد الحميد حاجيات
معهد العلوم الاجتماعية
جامعة الجزائر

لقد كانت عنابة ، مثل سائر مدن الشرق الجزائرى ، تابعة للدولة الحفصية، طوال فترة تمتد من القرن السابع الى العاشر للهجرة ، أى ما يزيد على ثلاثة قرون ٠ ولذا ، فالتعرف على عنابة فى هذه المدة الطويلة ، يندرج فى اطار استعراض تاريخ الدولة الحفصية وما ينطوى عليه من أمجاد وانجازات وأحداث هامة ٠ وبما أن حديثنا لا يمكن أن يتسع لكل هذا الاطار الزمانى ، فقد راينا أن نحصره فى النقاط التالية :

- قيام الدولة الحفصية ومكانتها الحقيقية فى تاريخ المغرب ٠
- عنابة أيام حركة السلطان أبى الحسن المرينى الى افريقية ٠
- انهيار الدولة الحفصية والتحاق عنابة بالايالة الجزائرية ٠

عنابة وقيام الدولة الحفصية :

عرفت عنابة قبل الحفصيين ازدهارا كبيرا • فكان موقعها فى مصب نهر سيبوس يسمح لها بالقيام بنشاط تجارى هام منذ عهد الفينيقيين • وحظيت بعناية الحكـــام فى الاسلام ، فحصنها الحماديون فى أواخر القرن الخامس الهجرى • ولم تسلم من خطر غارات النصارى ، فاحتلها النورمان سنة 549 هـ/1153 م ، وكان من أهم عوامل حركة الموحدين الى افريقية ، بقيادة عبد المؤمن ، تحريرها من سيطرة الغزاة النصارى •

ثم تعرضت بلاد افريقية الى خطر آخر ، لا يقل فظاعة عن ذلك ، وهو ثورة بنى غانية، التى اندلعت سنة 580هـ ، فى بداية عهد يعقوب المنصور الموحدى ، ولم تنته الا بعد ذلك بنصف قرن • واستفحل أمر بنى غانية بشكل خاص حوالى سنة 599هـ ، فى عهد الناصر الموحدى ، حيث استولوا على معظم مدن افريقية ، وعاثوا فيها فسادا وتخريبا ، الى أن قدم الناصر بنفسه على رأس جيش جرار ، فانهزمت جموع بنى غانية ، ولاذت بالفرار الى الصحراء • (1)

وكان من نتائج هذه الثورة أن اضطر الناصر الى اسناد ولاية افريقية الى وزيره أبى محمد عبد الواحد بن الشيخ أبى حفص عمر الهنتاتى ، لما كان يلمس فيه من كفاءة وحزم ، وكلفه بمهمة صد خطر بنى غانية ، والقضاء على ثورتهم • ولم يتخل أبو محمد ابن أبى حفص عن مهامه الوزارية الا بصفة مؤقتة ، وبعد ان اشترط أن يلتحق بالمغرب الاقصى « بعد قضاء مهمات افريقية فى ثلاث سنين ••• وأن لا يتعقب عليه (الناصر) فى أموره فى تولية ولا عزل » ، وغير ذلك من الشروط (2) • وكان قبول الناصر لهذه الشروط عبارة عن تفويض السلطة كلها لابى محمد على بلاد افريقية •

غير أن الشيخ أبا محمد لم يغادر افريقية بعد ثلاث سنوات ، كما جاء فى شروطه ، بل مكث فيها يدبر شؤونها الى أن توفى فى أول محرم سنة 618 هـ ، بعد أن أعاد الامن والطمانينة الى البلاد • وبعد وفاته ، أسند الخليفة الموحدى المستنصر ولاية افريقيـــة الى عم أبيه السيد أبى العلاء ادريس بن يوسف بن عبد المومن ، فقدم الى افريقية وضبط أمورها • وعندئذ ، غادر يحيى بن غانية معتصمه بودان ، فى صحراء ليبيا ، وأغار على

(1) راجع : ابن خلدون ، كتاب العبر ، ج 6 ، ص 401 •
(2) راجع : الزركشى ، تاريخ الدولتين ، ص18 •

ناحية الجريد · فنهض اليه السيد أبو العلاء ، وقصد الى قابس ، وارسل ابنه فى أثر الثوار ·

وتابع ابن غانية غاراته ، فاقتحم بسكرة وخربها · ثم انصرف عنها لما أشرف عليها أبو زيد · وفى تلك الاثناء توفى أبو العلاء ، والى افريقية (شعبان 620 هـ) ، فخلفه ابنه أبو زيد فى منصبه ، ولكنه لم يلتحق بمقر ولايته بتونس ، بل تمادى فى أثر ابن غانية ، الى أن وقع اللقاء بين الفريقين قرب تونس ، فكانت الهزيمة على ابن غانية (محرم 621 هـ) وعاد الى الصحراء · وصرف أبو زيد عنايته لتنظيم شؤون البلاد ، الا أن سيرته أغضبت أهل افريقية ، لسوء معاملته لهم ، وشدته ، وقسوته · فرأى العادل الموحدى أن يولى على افريقية أبا محمد عبد الله بن أبى محمد بن أبى حفص (سنة 623 هـ) · (3)

وكان أولاد شداد ، رؤساء قبيلة ولهاصة ، القاطنين آنذاك فى سهل عنابة ، قد جمعوا قومهم للقائه · فأوجس الوالى الجديد خيفة من تجمعهم ، وأرسل أخاه أبا زكرياء ، لحسم دائهم ، وللاشراف على خروج طبقات سكان افريقية للقائه · فقام بتلك المهمة أحسن قيام ، ووصل أبو محمد عبد الله الى تونس فى ذى القعدة 623 هـ · (4) وعين أخاه أبا زكرياء على قابس ، وأخاه أبا ابراهيم على توزر ونفطة ، معتمدا عليهما لسد الطريق فى وجه ابن غانية ·

وفي سنة625 هـ ، انتقلت ولاية افريقية الى أبى زكرياء يحيى فى ظروف لا حاجة للاطالة فى شرحها (5) · وأقام أبو زكرياء الدعوة فى أول الامر للخليفة الموحدى أبى العلاء ادريس المأمون · ولكن ، سرعان ما ظهر الشقاق فى صفوف الموحدين بمراكش وقام يحيى المعتصم ينافس ادريس المأمون فى العرش ، بتأييد من عدد كبير من أشياخ الموحدين · وعندئذ ، كان رد فعل المأمون غير منتظر وفى غاية الخطورة ، اذ اعلن ابطال الدعاء للمهدى فى الخطبة ، ونفى عصمته ، وأسقط اسمه من السكة ، وأمر بلعنه ، الى

(3) راجع : ابن قنفذ ، الفارسية ، ص 106 ·
(4) راجع : ابن خلدون ، كتاب العبر ، ج 6 ، ص 592 ·
(5) راجع : ابن قنفذ، الفارسية، ص 107 ؛ الزركشى ، تاريخ الدولتين ص 22 ــ 23 ·

غير ذلك مما أغضب كل من كان متمسكا بعقيدة الموحدين، ومن بينهم الاسرة الحفصية(6) · ووافق ذلك ان المأمون كان قد أرسل عمالا الى افريقية ، فصرفهم أبو زكرياء من حيث أتوا ، وأقام الدعوة ليحيى المعتصم (سنة 626 هـ) ، ثم ، عندما رأى أن المعتصم لم يتمكن من التغلب على ادريس المأمون وضعف شأنه ، أهمله ، وأمر بالاقتصار على الدعاء للمهدى ، محققا بذلك أول خطوة نحو الانفصال عن الاسرة المومنية (سنة 627 هـ) (7) .

وفى سنة 628 هـ ، توجه الامير أبو زكرياء الى قسنطينة ، فحاصرها أياما ، ثم استولى عليها صلحا · ثم سار الى بجاية فاحتلها · وبذلك اتسعت حدود ولايته ، وشملت سائر بلاد افريقية ، بما فيها ولاية عنابة ، وولاية قسنطينة وولاية بجاية · ثم ، فى سنة 634 هـ ، أمر أن يذكر اسمه فى الخطبة بعد ذكر المهدى ، مقتصرا على لقب الامير ، وبويع بالخلافة ، الا انه لم يتخذ لقب أمير المؤمنين · (8)

ونهض الامير أبو زكرياء ، سنة 636 هـ ، فى اتجاه المغرب الاوسط ، فسار الى بجاية، ومنها الى الجزائر ، فاستولى عليها · ثم قصد الى ناحية شلف ، فأطاعته مغراوة ، ثم انتهى الى بلاد بنى توجين ، فحاربهم وهزم رئيسهم عبد القوى بن العباس ، وأسره ، وعاد الى تونس · وفى أواخر سنة 639 هـ ، نهض الى المغرب الاوسط مرة ثانية ، فى جيوش وافرة ، وقصد الى تلمسان ، فحاصرها ، واضطر أميرها يغمراسن بن زيان الى مغادرتها بعد فشل مقاومته (صفر 640 هـ) · ثم جرت مفاوضات الصلح بينه وبين أبى زكرياء ، على أساس ولاء يغمراسن للدولة الحفصية ، واقامة الخطبة باسم أبى زكرياء، وتم الاتفاق بين الفريقين (9) · وبذلك عظم نفوذ الامير الحفصى ، واتسعت امارته الى نهر ملوية · فكانت مرحلة كبرى فى تحقيق آماله ، فى اعادة ازدهار الدولة الموحدية ، وحلول أسرته مكان الاسرة المومنية ·

وهنا ، يجدر بنا أن نشير الى التنافس الشديد الذى كان قائما منذ وفاة ابن تومرت حول منصب الآمامة الموحدية · واذا كان عبد المؤمن بن على قد عين فى منصب الامامة ،

---

(6) راجع : الناصرى ، الاستقصا ، ج 2 ، ص 238 ·
(7) راجع : الزركشى ، تاريخ الدولتين ، ص 23 ـ 24 ·
(8) راجع : ابن قنفذ ، الفارسية ، ص 109 ؛ الزركشى تاريخ الدولتين ، ص 27 ·
(9) راجع : يحيى بن خلدون ، بغية الرواد ، ج 1 ، ص 112 ـ 113 ·

وجعله وراثيا فى أسرته ، فان كبار أشياخ الموحدين ، وبالخصوص الشيخ أبا حفص عمر الهنتاتى ومن خلفه من أبنائه واحفاده ، كانوا هم أيضا يتطلعون الى الامامة ، وكانوا يحتلون منزلة مرموقة فى جهاز الدولة ، فكان منهم وزراء وكثير من كبار الولاة بالاندلس وافريقية • ولما سنحت الفرصة لابى زكرياء ، لم يفلتها وأعلن امارته ، محققا بذلك الهدف الذى كانت تصبو اليه أسرته منذ زمان •

والذى يبحث عن أسباب سقوط الدولة المومنية ، لا يمكنه أن يتجاهل قيام الدولة الحفصية من بين العوامل الرئيسية لانهيار المومنيين • ويمكن القول ان سقوط الدولة المومنية بمراكش لا يعنى نهاية دولة الموحدين ، بل بقيت هذه متمثلة فى الدولة الحفصية ، القائمة بتونس (10) • غير أن هذه لم تستطع أن تبسط سلطتها على سائر أقطار المغرب ، رغم ما قامت به من محاولات عديدة ، فى مختلف فتراتها ، ولم يحقق أمراؤها رغبتهم في نقل مقر خلافتهم الى عاصمة الموحدين الاولى ، مراكش •

والذى أردنا تأكيده هنا ، هو أن دولة الحفصيين لم تكن نابعة من صلب القطر الذى تمركزت فيه ، وأنها كانت من مخلفات العهد الموحدى • ولذا ، كان كثير من رجال الحكم بها ينتمون الى قبائل المصامدة ، كما أنها ضمت مناطق مختلفة ، وتغيرت حدودها حسب اختلاف الاوضاع السياسية ، وتقلب الظروف من قوة واستقرار ، أو ضعف واضطرب .

هذا ، وفيما يخص عنابة ، فانها كانت آنذاك ، مثل غيرها من مدن تلك المنطقة ، تابعة للدولة الحفصية • وقد عين الامير أبو زكرياء ابن عمه أبا على عمر بن أبى موسى واليا عليها فى بداية امارته • ثم ، لما عاد من حركته الاولى الى المغرب الاوسط ، سنة 636 ه ، عين ابنه أبا يحيى زكرياء واليا على بجاية ، وكان لا يزال فى سن المراهقة • وبعد ذلك بسنتين أسند اليه ولاية العهد ، وأمر أن يعلن ذلك فى الخطبة على جميع منابر افريقية • وفى نفس السنة ، نقل أبو زكرياء ابن عمه أبا على عمر من ولاية عنابة الى ولاية المهدية ، واضاف الى سلطة ابنه زكرياء « النظر فى سائر أعمالها (بجاية) ، من الجزائر وقسنطينة وبونة (عنابة) والزاب » ، فاتسع نفوذ الامير الشاب الى سائر مناطق افريقية

(10) راجع : ابن قنفذ ، الفارسية ، ص 108 •

الغربية (11) • وبقى الوضع كذلك الى أن توفى الامير زكرياء فى بجاية سنة 646 هـ • فعين مكانه فى ولاية العهد أخوه أبو عبد الله محمد (المستنصر) •

وفى سنة 647 هـ ، غادر الامير أبو زكرياء تونس ، قاصدا الى قسنطينة لتفقد أحوالها • وهناك أصيب بمرض ، ثم أبل منه ، وغادر قسنطينة متجها الى عنابة ، فراجعه المرض وتوفى بظاهر عنابة فى جمادى الآخرة سنة 647 هـ • فدفن بجامعها بجانب الولى الصالح أبى مروان اليحصبى ، ثم نقل شلوه الى مدينة قسنطينة سنة 666 هـ ، ودفن بهـا • (12)

عنابة أيام حركة أبى الحسن المرينى الى افريقية

ولننتقل الآن الى صفحة أخرى هامة جدا فى تاريخ افريقية ، وتخص حوادث دارت حوالى منتصف القرن الثامن الهجرى • وكان السلطان الحفصى أبو يحيى أبـو بكـر (710 ـ 747 هـ) ، قد عين أبناءه على ولاية المدن الرئيسية ، فعين الفضل على عنابـة ، وأبا عبد الله محمد على قسنطينة ، وأبا زكرياء على بجاية (13) • ولما عظـم خطـر بنى عبد الواد على نواحى بجاية وقسنطينة وعنابة ، لجأ الى الاستغاثة ببنى مريـن ، وتحالف معهم ، وصاهر الامير أبا الحسن المرينى فى احدى بناته • ولما استولى السلطان أبو الحسن على تلمسان والمغرب الاوسط ، سنة 737 هـ ، أوقف جيوشه عند حـدود بلاد افريقية ، احتراما لما كان يربط بينه وبين السلطان الحفصى من الصلات والعهود •

وبعد وفاة زوجة أبى الحسن المرينى ، الاميرة الحفصية فاطمة ، فى معركة طريف بالاندلس (سنة 741 هـ) ، تواصلت هذه الروابط ، وعقد قران آخر بين السلطـان المرينى وابنة أخرى من بنات أبى يحيى أبى بكر الحفصى ، تدعى عزونة ، وغادرت الاميرة تونس فى جمادى الثانية 747 هـ ، متوجهة الى المغرب ، وقد صحبها فى سفرها أخوها الفضل ، والى عنابة •

---

(11) راجع : كتاب العبر، ج 6، ص 619 ـ 623 ؛ الزركشى، تاريخ الدولتين ،ص 28 •
(12) راجع : ابن قنفذ ، الفارسية ، ص 114 ؛ ابن أبى دينار ، المؤنس ، ص 134 ؛ الزركشى ، تاريخ الدولتين ، ص 32 •
(13) راجع : ابن قنفذ ، الفارسية ، ص 165 •

ثم كانت وفاة أبى يحيى أبى بكر الحفصى بعد ذلك بقليل (2 رجب 747 هـ) ، فنشأ خلاف بين ولى العهد أبى العباس أحمد ، وأخيه أبى حفص عمر ، انتهى بمقتل أبى العباس ، والبيعة لعمر بالامارة • ولم يشأ أبو الحسن المرينى أن يترك الامور على هذه الحال ، بل قرر التدخل فى الامر ، واغتنام الفرصة للاستيلاء على العرش الحفصى ، مدعيا الثأر لصهره أبى العباس •

وفى صفر 748 هـ ، تحرك أبو الحسن المرينى متوجها الى افريقية ، بعد أن عين ابنه أبا عنان واليا على تلمسان وسائر المغرب الاوسط ، واحتل بجاية وقسنطينة وعنابة ، ثم تونس ، فى مدة قصيرة (14) • وعين عمالا على بجاية وقسنطينة ، ولكنه أبقى الامير الفضل ابن السلطان ابى يحيى أبى بكر الحفصى واليا على عنابة، مراعاة لرابطة المصاهرة•

والجدير بالملاحظة أن ولاية عنابة هى الناحية الوحيدة فى بلاد افريقية التى لم تخضع آنذاك لسيطرة أبى الحسن المرينى • وبقيت معقلا للامارة الحفصية فى هذه الفترة الهامة من تاريخ المغرب • أما الفضل فانه كان يرجو من السلطان المرينى أن يسلم له عرش الحفصيين بتونس ، غير أن أبا الحسن لم يقدم على ذلك ، واكتفى بابقائه على ولاية عنابة ، مما أحقد عليه الامير الفضل ، وجعله يتحين الفرصة المواتية لتحقيق رغبته • (15)

غير أن سياسة ابى الحسن المرينى تجاه عرب افريقية امتازت بالشدة والعنف • وذلك انه منعهم من الاعطيات والاقطاعات التى اعتادوا أن ينالوها من الدولة الحفصية قبله ، فغضبوا لذلك ، واجتمع أمرهم ، وحاربوه ، وهزموه قرب القيروان ، ثم حاصروه بها (محرم 749 هـ) ولم ينج أبو الحسن الا بمشقة ، وخلص الى تونس ، وبقى العرب يشكلون خطرا عظيما على مستقبل الوجود المرينى بافريقية •

وسرعان ما تدهور موقف أبى الحسن المرينى ، وانهارت سلطته فى كل مكان من دولته الواسعة الارجاء • فقام ابنه أبو عنان يدعو لنفسه بالامارة بفاس ، واتجه أمراء

(14) راجع : ابن قنفذ ، الفارسية ، ص 169 – 170 •

(15) راجع : ابن خلدون ، كتاب العبر ، ج 6 ، ص 815 ؛ ابن قنفذ ، الفارسية ، ص 171 •

بنى عبد الواد الى تلمسان ، واحيوا بها دولتهم تحت امارة أبى سعيد وأخيه أبى ثابت (جمادى الثانية 749 هـ) • أما الامير الفضل الحفصى فانه اغتنم فرصة انشغال السلطان المرينى بمحاربة العرب فى ناحية القيروان ، للنهوض الى قسنطينة ، باستدعاء من بعض أهلها ، وكان يوجد بها آنذاك كثير من الوفود فى طريقها الى تونس ، فلما اشرف الفضل على المدينة ، ثار أهلها على بنى مرين ، ودخلها الفضل ، واستولى على الهـدايا الثمينة التى جاءت بها الوفود (محرم 749هـ) ، وأقام بها ثلاثة أشهر ، يترقب أخبار السلطان أبى الحسن ، وما آل اليه أمره ، ثم توجه الفضل الى بجاية ، فاحتلها ، واجتمعت بذلك تحت سلطته سائر الثغور الغربية لبلاد افريقية (16) • وبينما كان يفكر فى النهوض الى تونس والعمل على احتلالها والقضاء على النفوذ المرينى بها ، اذ وافته أنباء من المغرب ، مفادها أن أبا عنان قد أطلق سراح الاميرين الحفصيين أبى زيد وأبى عبد الله، أميرى قسنطينة وبجاية قبل حركة أبى الحسن المرينى ، وأرسلهما مع قوات مرينية الى مقر ولايتهما السابق ، بقصد جعل كل منهما حاجزا بينه وبين أبيه ، المستقر آنذاك بتونس • وفعلا ، تمكن الامير أبو زيد من الدخول الى قسنطينة حين وصوله اليها ، والاستيلاء عليها بمساعدة أهلها ، بينما اتجه الامير أبو عبد الله صوب بجاية ، وضرب حولها الحصار،ولم يزل ينازلها الى أن افتتحها فى رمضان 749هـ • وجىء اليه بابن أخيه الفضل ، فمن عليه وأركبه سفينة حملته الى عنابة ، فوصلها فى شوال 749هـ • (17) •

ولم ينقطع أمل الامير الفضل فى عرش آبائه بتونس • وذلك أن العرب من قبيلة الكعوب لم يهدأ لهم بال حتى عادوا الى خلـع الطاعة للسلطان أبى الحسن ، واستعانوا بالفضل للاجلاب الى تونس ، فوافقهم على ذلك ، وغادر عنابة ، والتحق بهم فى آخر سنة 749هـ • واشتدت مضايقتهم للسلطان المرينى الى حد انه قرر مغادرة تونس (شوال 750هـ) • ودخل الفضل عاصمة آبائه ، وبويع له فيها بالامارة • (18)

---

(16) راجع : ابن قنفذ ، الفارسية ، ص 171 ــ 172 •

(17) راجع : ابن قنفذ ، الفارسية ، ص 173 ؛ الزركشى ، تاريخ الدولتين ، ص 86 ؛ ابن خلدون ، كتاب العبر ، ج 6 ، ص 822 ــ 824 •

(18) عن امارة الفضل بتونس ، راجع : ابن قنفذ ، الفارسية ، ص 173 ؛ الزركشى ، تاريخ الدولتين ، ص 90ــ92 ؛ ابن خلدون ، كتاب العبر ، ج 6 ، ص 824 ــ 828 •

وتشهد هذه الحوادث على أهمية الدور الذى أصبحت تلعبه عنابة ، بجانب قسنطينة وبجاية وتونس ، فى تاريخ افريقية ، ومما ساعد على ذلك ، ما كانت تمتاز به عنابة وناحيتها من ازدهار اقتصادى فى شتى المجالات ، من صناعة وزراعة وتجارة ، مما أكسب أهاليها الغنى والرخاء ، بالاضافة الى موقعها الجغرافى وحصانتها ، الامر الذى أبعد عنها خطر غارات بنى غانية وأهوال الفتن التى كانت قائمة منذ أجيال عديدة بين قبائل عرب افريقية من كعوب ودواودة وغيرهم ٠

ولا يسعنا ، فى هذا الحديث ، أن نستقصى جميع الاخبار التى لها صلة قريبة أو بعيدة بعنابة أيام الحفصيين ، وانما الذى يهمنا هو الاقتصار على بعضها ، مما يلقى بعض الاضواء على تطور المدينة ، ودورها فى تاريخ تلك الناحية بصفة خاصة ، وتاريخ المغرب، بصفة عامة ٠ ولدراسة هذا الموضوع من مختلف جوانبه ، مجال فسيح جدا ، اذ أن استيعاب مختلف المعطيات يقتضى التعرض الى دور قبائل العرب الخطير فى تاريخ المنطقة ، وما انجر عن ذلك من انعكاسات فى الميادين السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، كما يقتضى الالتفات الى جانب العلاقات التجارية الداخلية والخارجية ، والعوامل التى كانت تساهم فى ازدهار اقتصاديات المدينة وناحيتها ، أو تؤدى الى انحطاطها وتقلصها ٠ ولسنا نشك أن الباحثين سيعنون فى المستقبل بتقديم دراسات وافية ومعمقة وشاملة حول تاريخ بلادنا فى مختلف عصوره ٠

عنابة فى آخر عهد الحفصيين

ولا يفوتنا فى آخر حديثنا هذا ، أن نشير ، ولو اشارة خفيفة ، الى الاوضاع السياسية والاقتصادية التى عرفتها عنابة وناحيتها فى المرحلة الاخيرة للعهد الحفصى ٠

والحقيقة ، التى لا يمكن تجاهلها ، أن بلاد المغرب كلها كانت تعيش فى القرن التاسع الهجرى فى جو ملىء بالفتن والاضطرابات ، وتطاحن الامراء والرؤساء فى مختلف المناطق ، وتهالكهم على المناصب السامية ، وتنافسهم على الحكم ، وانشغالهم بذلك عن تدبير شؤون البلاد واصلاح أحوالها والاعتناء باحياء مواتها ، وتنميتها ، والدفاع عن حوزتها ، وحمايتها من غارات العدو الخارجى ٠

وكان يقابل ذلك تظافر جهود النصارى فى أوروبا لشن حرب شعواء على المسلمين فى حوض البحر الابيض المتوسط ، قصد مراقبة الملاحة فيه ، واحتلال موانىء الاقطار المغربية ، واستغلال خيراتها ، واستعباد شعوبها · ولم تمض الا سنوات قليلة بعد سقوط غرناطة فى قبضة النصارى الاسبان ، حتى انطلق هؤلاء ينفذون خطتهم بكل ما لديهم من عزيمة وقوة وقسوة ، فاحتلوا بجاية وعنابة (سنة 917هـ/1510م) وموانىء أخرى من القطر الجزائرى · (19)

والظاهر أن الاسبان لم يتمركزوا الا قليلا فى عنابة ، وفضلوا توجيه معظم جهودهم نحو بجاية · وقد مر الحسن بن الوزان حوالى سنة 923 هـ/1516 م ، بعنابة ، فلم يذكر شيئا عن وجـــود الجنود الاسبان بها ، ووصفها فقال : « تشتمـل مدينة عنابة على 3000 منزل ، وهى مكتضة بالسكان ، الا أن المنازل الجميلة قليلة بها ، وفيها جامع جميل جدا بنى على شاطىء البحر · وسكانها طيبـــون ، ومنهم التجار ، والصناع ، والنساجون ··· وفى الجانب الشرقى منها قصبة عظيمة ، محصنة تحصينا محكما ، بناها ملوك تونس ، ويسكنها الولاة · وتمتد الاراضى المزروعة ، خارج المدينة ، الى مسافة 40 ميلا طولا ، و 25 ميلا عرضا · وهذه الاراضى صالحة للحبوب ، وتسكنهـــا قبيلة مرداس العربية ، تقوم بفلحها ، وتملك كثيرا من البقر والضأن · وتنتج هـــذه المواشى من السمن كميات يبيعها أصحابها فى سوق عنابة بثمن قليل لوفرتها · وكذلك الامر بالنسبة للقمح · وتأتى سفن عديدة كل عام ، من تونس وجربة وسائر موانىء القطر ، وكذلك من جنوة ، لتشترى القمح والسمن من عنابة ، حيث تستقبل استقبالا حسنـــا · (20)

تلك هى الحال التى كانت عليها عنابة عندما دب الضعف فى جسم الدولة الحفصية ، واذا لم تكن آنذاك فى منتهى البؤس والتدهور ، فانها ، دون ريب ، كانت فى بداية الانحطـاط ·

(19) راجع : أحمد توفيق المدنى ، حرب الثلاثمائة سنة ، ص 141 ·
(20) الحسن بن الوزان (ليون الافريقى) ، وصف افريقيا ، ترجمة ايبولار الفرنسية ، ج 2 ، ص 370 ·

ولا شك أن غارات النصارى على شواطىء المغرب قد آذت أهالى الموانىء التى احتلوها ، وأتت على رونق كثير منها ورخائها . ولم يتلق السكان مساعدة من الملوك الحفصيين ، الذين ضعف شأنهم وأصبحوا لا يقدرون على حماية الاراضى التابعة لهم ، من هجوم الغزاة ، وما يقومون به من سلب ونهب .

وعندئذ اضطر الاهالى الى اعلان الجهاد ، والاعتماد على انفسهم لرد العدوان ، وعلى كل من يهب لمساعدتهم . وكان الخلاص على أيدى عروج وخير الدين وجماعتهم من الاتراك .

ولما أجاب خير الدين نداء الامير الرشيد الحفصى ، الذى استغاث به ضد أخيه الخائن الحسن بن محمد ، مر الاسطول العثمانى بعنابة ، فاستقبله اهلها استقبالا حارا . وقدموا له مددا يستعين به لفتح تونس (941 هـ/1533 م) . فكان ذلك أول عهد لانضمام عنابة الى حظيرة الايالة الجزائرية . (21)

أما الامير الحفصى الحسن بن محمد ، فانه تحالف مع الاسبان ، وعقد معهم اتفاقية تضمنت اعترافه بالسيادة الاسبانية ، وملكية الاسبان لمدينة عنابة ومدن أخرى بافريقية ، فانتهت تبعية عنابة للدولة الحفصية بهذه الصفة المؤلمة . وسرعان ما احتل الاسبان عنابة مرة ثانية (943 هـ/1535 م) تنفيذا لهذه المعاهدة (22) . فانف أهلها ، وسكان ناحيتها ، والدولة الجزائرية الفتية ، من مذلة الاستيلاء الاجنبى ، وصرفوا همتهم لفتحها ، كما فتحوا غيرها من الموانىء المحتلة .

الخاتمة

والذى يمكن استنتاجه من هذا العرض الوجيز ، هو أهمية هذه المرحلة من تاريخ عنابة وغيرها من مدن الشرق الجزائرى بالنسبة لتطورها السياسى والاجتماعى والاقتصادى . وذلك أن العهد الحفصى كان منعطفا حاسما للمسيرة التى قطعتها هذه المنطقة ، والتى أدت بها ، بعد تبعيتها لمراكش ، أيام الموحدين ، الى تبعية حقيقية لتونس ، أيام ازدهار الدولة الحفصية ، ثم الى الاستقلال عنها تدريجيا ، مع تبعية

(21) احمد توفيق المدنى ، المرجع المذكور ، ص 230 .
(22) أحمد توفيق المدنى ، المرجع المذكور ، ص 234 .

عنابة ، تارة لبجاية ، وتارة لقسنطينة ؛ وكان انهيـار الدولة الحفصية ، تحت ضربات الحملات الصليبية ، وتحت تصاعد النزعات الانفصالية لدى عرب افريقية ، خاتمة عهد طويل ، يحمل طابعه الخاص فى شتى الميادين . كما ان التحاق عنابة وبجاية وقسنطينة بالايالة الجزائرية ، بحافز الوقوف أمام العدوان الاسبانى وصده عن المنطقة ، يشكل فاتحة عهد جديد ، حافل بالامجاد ، ويحمل صبغته الخاصة ، ونقطة انطلاق حاسمة لتبلور كيان الدولة الجزائرية الحديثة .

الحياة الاقتصادية بعنابة أثناء العهد العثماني

د . ناصر الدين سعيدونى
كلية الآداب ـ جامعة الجزائر



عاشت مدينة عنابة فترات متتالية من تاريخها الطويل ، عرفت أثناءها تبدل الاماكن وتغير الاسماء تبعا للظروف السياسية. والاحوال الاقتصادية التى امتازت بها كل فترة من هذه الفترات .

ففى أول عهدها كانت مقامة على منحدرات التل الذى بنيت عليه حديثا كنيسة القديس أغسطين . وعندما استوطنها المسلمون بعد الفتح استقروا بجوار الخرائب الرومانية بالقرب من مجرى نهر سيبوز ، وآنذاك عرفت لدى الرحالة العرب بمدينة سيبوز ، ثم اكتسبت فيما بعد تسمية مدينة زاوى نسبة للامير الزيرى الذى اعطيت له ضمن الاقطاعات التى حصل عليها من الدولة الصنهاجية .

وبعد أن عرفت المدينة فترة رقى وازدهار عمرانى وحضارى طيلة القرنين الخامس والسادس للهجرة، بدأت تتعرض للغارات البحرية وذلك نتيجة حلول النرمان بالسواحل

الاوروبية • واتخاذهم جزيرة صقلية وجنوب ايطاليا قواعد لهم ينطلقون منها للاغارة على المدن الساحلية المغربية •

وقد اضطر سكان مدينة زاوى ـ عنابة الاسلامية ـ نتيجة هذا الوضع الجديد الى طلب الامان فى مكان آخر حصين تتوفر فيه مقومات الدفاع الضرورية ، لا سيما وأن مكان المدينة الاسلامية فضلا عن تهديد الغارات البحرية له ، أصبح فى حد ذاته غير ملائم للاستقرار ، بعد أن بدأت أكوام الرمال وترسبات الطمى تحاصره من جراء فيضانات نهر سيبوز المتكررة ، بالاضافة الى انتشار برك المستنقعات والمياه الآسنة على شكل حزام يطوق أسوار المدينة من جهة السهل ، مما تسبب فى كثرة الرطوبة وتردى الاحوال الصحية للسكان • (1)

فكانت المرتفعات المشرفة على الساحل من الجهة الغربية ، لما لها من مزايا طبيعية جمة ، أحسن مكان يمكن أن تتوفر فيه عوامل الامن والحماية لساكنيه •

وبذلك استقر أغلب سكان مدينة زاوى فى هذا المكان الجديد ، الذى يبعد عن مدينتهم الاصيلة الى الشمال بحوالى ثلاثة أميال ، والذى أصبح يعرف فيما بعد ببونة الحديثة عندما استكمل عمرانه باقامة سور حوله سنة 450هـ ـ 1058م ، وشيد به جامع نسب الى الولى الصالح سيدى أبى مروان الذى وافته المنية بهذه الجهة سنة 505هـ ـ 1111م • (2)

ثم لم يلبث اسم بونة الحديثة أن أصبح غريبا عن عامة الناس بعد أن صارت المدينة تعرف ببلد العناب ؛ نسبة لهذا النبات الذى كان ينمو تلقائيا بالجهات القريبة من المدينة •

وهكذا لم ينته القرن الخامس عشر الميلادى حتى اكتسبت المدينة تسميتها الحالية ، وهى « عنابة » عند العام والخاص • ولم يعد يرد لفظ بونة الا فى المصنفات التاريخية والتقاويم الجغرافية رغم تشبث الفرنسيين أثناء الاحتلال بالتسمية اللاتينية وهى : Bône القريبة فى اشتقاقها من كلمة بونة العربية • وبذلك تدخل مدينة عنابة مرحلة جديدة من تاريخها الطويل تحت الحكم التركى وقد وجدت المكان الطبيعى الملائم لنموها وتطورها ، كما اكتسبت تسميتها التى ظلت تعرف بها حتى اليوم •

على أن الباحث فى التاريخ الاقتصادى لمدينة عنابة العثمانية يجد نفسه مضطرا للتعرض لوضع عنابة الطبيعى نظرا لتحكم هذا الوضع فى أهم مقومات الحياة الاقتصادية للمدينة وما يتعلق بها من نواحى عمرانية واجتماعية ، أو ما يتصل بها من أنشطة صناعية ومبادلات تجارية ، فالشروط الطبيعية لهذا الوضع تبرز لنا من خلال موقع المدينة وميناءها واقليمها ٠

1 ـ موقع عنابة العثمانية : كان ينحصر فوق الهضبة الصخرية المحاذية لشاطىء البحر والمطلة على الجهات الداخلية المواجهة للغرب ، الامر الذى جعلها غير معرضة للرؤية من ناحية البحر مع محاذاتها له ٠

وكان هذا الموقع الطبوغرافى من الاهمية بمكان ، اذا أخذنا بعين الاعتبار مقاييس ذلك العصر الاستراتيجية ، فهو يكسب المدينة ميزة كبيرة بحيث يجعلها فى مأمن من غارات الاساطيل المهاجمة ، ويرد عنها طلقات المدافع المفاجئة ، ومن جهة أخرى يساعد على سهولة اتصال المدينة بداخل البلاد ، مما يؤهلها لان تصبح مدينة حصينة مقتدرة (3) برية وبحرية (4) فى آن واحد كما لاحظ ذلك بعض جغرافيى العرب ٠

على أن اختيار موقع المدينة فوق المرتفعات الصخرية تسبب فى حرمان السكان من الماء الضرورى ، ولهذا كانوا يضطرون الى جمع مياه الامطار (5) والاحتفاظ بها فى أحواض مهيأة لهذا الغرض فى أوقات الحصار ٠ أما فى الاوقات العادية فقد كان السكان فى أغلب الحالات يحصلون على مياه الشرب من بئر محفورة فى الحجر الصلد توجد على شاطىء البحر غير بعيدة عن أسوار المدينة ٠ لا سيما بعد أن تبين لهم أن ماءها يعتبر من أعذب المياه وأنفعها ٠ (6)

ومن الراجح أن هذه البئر الواقعة على شاطىء البحر مباشرة قديمة العهد ، اذ يعود تاريخها الى الفترة الاسلامية السابقة ، بدليل أن البكرى فى القرن الخامس الهجرى أشار اليها بقوله : « وفى بونة على ضفة البحر بئر منقورة فى حجر صلد يسمى بئر النثرة ومنها يشرب أكثر أهلها » ٠ (7)

وبغض النظر عن الوضع الطبوغرافى للمدينة فان الشىء الذى يثير الانتباه فى موقع عنابة العثمانية يتعلق بالنواحى العمرانية والانشطة الاقتصادية ، اذ كان عمران المدينة

ينحصر في رقعة محددة نسبيا لا تتجاوز مساحتها 1700 م2 (8) وهذا ما جعل شوارع المدينة ضيقة (9) وكثيرة الالتواء ، حتى انها تصبح غير صالحة للسير تقريبا عندما يحل الليل وتلتجيء قطعان الماشية المعدة للتصدير (10) الى داخل سور المدينة ٠

وقد ترتب على هذا الوضع أن أصبحت سوق الحبوب وسوق المواشي مع اهميتهما تقامان في الساحات الفارغة خارج أسوار البلد ٠ (11) كما تجكم هذا الوضع كذلك في توزيع أبواب المدينة الاربعة بحيث أصبحت كما يلي : باب المرسى من جهة الشرق ٠ وهو يؤدى الى الميناء وباب العرب تبتديء عنده طريق قسطينة ، أما البابان الآخران فينفتحان في الجهة الشمالية الغربية في مواجهة حصن القصبة ٠ (12)

وقد كان لعنابة العثمانية بوضعها هذا منظر خاص اكتسبته من منازلها الصغيرة الناصعة البياض حتى انها كانت تتعب العين لنصاعة بياضها حسب ما جاء في وصف احد الرحالة الاوروبيين ، مع أن نصف المنازل كان مغطى بالقرميد بينما النصف الآخر كانت تعلوه أسطح وشرفات مختلفة الاشكال ٠ (13)

وكان يشرف على هذه المنازل حصن القصبة المشيد فوق أكمة مقابلة للمدينة ومطلة على الناحية الجنوبية على ارتفاع 105م وكان يحيط بهذا الحصن سور منيع يبلغ طوله 350م (14)

وقد شيد هذا الحصن الذى كان يحتوى على قصر (15) متين البناء (16) بأمر من أبى زكرياء بن اسحاق الحفصى ، ثم أدخلت عليه الحامية الجنوية عدة اصلاحات هامة عندما كانت تقيم به أثناء الاحتلال الاسباني للمدينة ، وهذا عكس ما ذهبت اليه بعض المصادر الاوروبية التى أرجعت بناء هذا الحصن الى الجنويين وحدهم مدعية في ذلك بان الامبراطور شرلكان كان قد أمر ببناء هذا الحصن سنة 1535 قصد توطيد احتلاله للمدينة ٠ (17)

ونظرا لاهمية حصن القصبة الاستيراتيجية فانه كان طيلة الفترة العثمانية مقر الحاكم التركي ومكان استقرار الحامية المكلفة بالدفاع عن المدينة والمعروفة بـ « النوبة » والتى كان عدد أفرادها يتراوح حسب الظروف ما بين 100 و 50 شخصا ٠ ففي السنوات

التى سبقت الاحتلال كان هناك 100 تركى يتمركزون بالحصن تحت قيادة أحد الكراغلة من ذوى النفوذ والهيبة (18) ، ثم تناقص عددهم قبيل الاحتلال مباشرة الى 50 شخصا فقط كانوا يعيشون فى عزلة بين أسوار القصبة · (19)

2 ـ ولا تكتمل أهمية موقع عنابة العثمانية الا اذا تعرفنا على مينائها البحرى الذى اكتسب طيلة الحكم التركى أهمية خاصة باعتباره الشريان الرئيسى الذى تمر منه كل المبادلات التجارية بين بايليك قسنطينة وباقى المدن الاوروبية مثل ليفورن ومرسيليا وجنوة · ومما زاد فى تدعيم مكانة ميناء عنابة العثمانى كونه محميا من الرياح الغربية وما يصاحبها من تيارات مائية بمرتفعات ايدوغ الممتدة من السهل فى الجنوب حتى رأس الحمراء فى الشمال على مسافة 14 كلم ، فضلا على أن الميناء فى حد ذاته كان يستند الى أسوار المدينة وتنتصب بالقرب منه قطع المدفعية المقامة فى الجهة الشرقية للمدينة (20) · ولعل هذا الوضع الملائم للميناء هو الذى ساعد على ممارسة الاهالى لاعمال القرصنــة ، وذلك منذ تأسيس المدينة فى القرن الحادى عشر الميلادى ، ومن الملاحظ أن أهمية الميناء وملاءمته للملاحة لم تخف على الكثير من التجار الاوروبيين وخاصة الايطاليين والفرنسيين منهم بعد أن فضل العديد منهم الاستقرار بالقرب منه لممارسة النشاط التجارى المربح ، وقد تدعم هذا الاستقرار بفعل تأسيس غرفة تجارية فرنسية مهمتها الاولى رعاية مصالح التجار المرسيليين وغيرهم من الاوروبيين بجهات الشرق الجزائرى ·

3ـ ويضاف الى موقع المدينة ووضعية مينائها عامل ثالث كان بدوره أيضا يتحــكم فى اقتصاديات عنابة العثمانية ويتمثل هذا العامل الثالث فى الاقليم (21) المجاور للمدينة والمرتبط بها اقتصاديا وبشريا ·

ويعود تأثير هذا الاقلــــيم الاقتصادى على المدينة الى ما ينتجه من الحبوب والخضر وما يضمه من أعداد وفيرة من المواشى أغلبها من قطعان الاغنام والابقار · (22)

وقد أصبحت حالة المدينة الاقتصادية مرتبطة بهذا الاقليم عندما بدأت أهميتـــــه تتزايد منذ الفترة الاسلامية ، فابن سعيد المغربى فى القرن 13 ذكر أهمية الاقليم فى اقتصاديات المدينة فى وصفه لعنابة بقوله : « مدينة جليلة عامرة خصبة الزرع كثــيرة الفواكه رخية » · (23)

ونفس أهمية عنابة النابعة من طبيعة اقليمها هي التي جعلت صاحب الاستبصار في عجائب الامصار يشير اليها بقوله : « وهي أنزه البـــلاد وأكثرها لبنا ولحمـا وعســـلا وحوتا » (24) والجدير بالذكر أن مواصفات هذا الاقليم الطبيعية لم يغفلها صاحـــب الاستبصار عندما أشار اليها بقوله : « وبغربها ماء سائح يسقى بساتينها وأرضها ... وهناك بركة دورها نحو عشرة أميال وفيها سمك كثير جليل » (25) كما لم تخف أهمية هذا الاقليم عن ابن حوقل عندما ذكر اقليم عنابة بهذه العبارة :

« ولها اقليم واسع وبادية وحوزة بها نتاج كثير وقل من بها تفوته الخيل والسائمه للنتـــاج » . (26)

على أن هذه الاهمية التي كان يكتسبها اقليم عنابة لم تلبث أن تضاءلت قبيل مجيء العثمانيين ، مما ترك أثرا سلبيا على اقتصاديات المدينة، وكان ذلك بفعل تغلب البداوة على السهل المحيط بها بعد أن استقر به الاعراب الهلاليون والذين كانوا في أغلبهم ينتمون الى قبيلـــة مرداس ومـا انضـــم تحـت لوائهـا مـن بقايا قبائل مصمودة وأوربة ، وأول اشـارة صريحة لهذه الحــال نجدها عند الشريف الادريسي في القـــرن الثالث عشر الميلادي اذ يقول : « ولها اقليم وأرض واسعة تغلبت العـــرب عليها » (27) دون أية اشارة منه الى ثروات هذا الاقليم التي كان يشتهر بها .

لكـــن هـــذه الشروط الطبيعيـــة مـن مـــوقع المـــدينة ووضعيـة مينـائها وطبيعـــة اقليمهـــا لا يمكـــن أن تفســـر لنـــا وحـــدهـا تطـــور الحيـــاة الاقتصادية بعنابة في الفترة العثمانية ، بل لابد من الاشارة الى بعض العوامل الاخرى التي كان لها تاثير حاسم على تطور عمرانها وأحوالها الاجتماعية ، وعلى التحكم في نشاطها التجاري والصناعي خاصة . ونظرا لكثرة هذه العوامل وتداخلها فاننا سنحاول أن نجملها في النقاط التالية :

أ ــ الغارات والهجمات البحرية : التي كانت تتعرض لها عنابة بين الحين والآخـر ، منذ القرن الحادي عشر والتي زادت حدتها في بداية القرن السادس عشر ، مما ترك انعكاسات سلبية على نشاط المدينة في العهد العثماني . وكانت هذه الغارات في مجملها من فعل الاساطيل الاوروبية مثل هجوم الجنويين وحلفائهم من سكان بيزة على مدينة

عنابة سنة 425هـ/1034م ، والذى نتج عنه تخريب المدينة ونهبها من طرف الاسطول المغـــير ٠

وقد اتبع هذا الهجوم البحرى احتلال المدينة من طرف قائد أسطول الملك روجرز النورماندى ملك صقلية ، تنصيب عامل على المدينة يكون تابعا للعرش النورماندى ، من آل حماد ـ سنة 548هـ ـ 1153م ـ كما يعتبر هجوم الاسطول الاسبانى على عنابة من أهم هذه الغارات البحرية الكبرى ، وقد تم ذلك الهجوم الكبير سنة 1535 ، عندما كانت قطع أسطول شرلكان فى طـريق عودتها من تونس الى اسبانيا ، ولكى يضمن الامبراطور سيطرته على المدينة نصب القائد الدون أفارزفال حاكما على عنابة وأبقى معه ألفا من المشاة الجنويين المزودين بالذخيرة الحربية والمجهزين بخمسة وعشرين حصـانا ، حتى يتمكنوا من شن الغارات المفاجئة فى الجهات الداخلية المحيطة بعنابة ٠

على أن موت قائد الحامية الاسبانية فى احدى الغارات التى كان يشنها على نواحى عنابة ، اضطر باقى الحامية الى مغادرة تحصيناتها والخروج من عنابة بعد تدمير جميـــع الحصون الموجودة فى المدينة متذرعة فى ذلك بحجة أن الامبراطور شرلكان أهملها ولم يبادر بتنصيب قائد عليها وبذلك خرجت عنابة من السيطرة الاسبانية ٠

وهكذا نلاحظ أن مثل هذه الغارات البحرية المتلاحقة التى ضيقت الخناق على مدينة عنابة ، كانت بمثابة عائق لازدهار المدينة الاقتصادى ونموها العمرانى ، لان مثل هذه الغارات كانت كثيرا ما تتسبب فى انقطاع حركة التبادل التجارى بين عنابة والاقطار المتعاملة معهـــا ٠

وأحسن مثال على ذلك نجده فى وصف العبدرى للمدينة وهى على هذه الحالة حيث يقول : « انا صادفنا وقت المرور بها زويرقا للنصارى لا تبلغ عمارته عشرين شخصا وقد حصروا البلد حتى قطعوا عنه الدخول والخروج ٠ وأسروا من البر أشخاصا فأمسكوهم للفداء بمرسى البلد وتركناهم ناظرين فى فدائهم ٠ (29)

ب ـ تعاقب الحكام وتكرر الفتوحات :

تعتبر بدورها من جملة العوامل التى كان لها تأثير على أوضاع عنابة الاقتصادية خاصة،فمن أهم تلك الفتوحات المتعاقبة التى أصبحت عنابة هدفا لها قبل وأثناء الوجود

العثمانى نذكر على سبيل المثال : احتلال الموحدين للمدينة سنة 555هـ ـ 1160م ، ثم استيلاء يحيى بن غانية الميورقى عليها مجددا سنة 589هـ ، ثم خضوعها مرة أخرى للموحدين سنة 601هـ ، ثم خضوعها من بعدهم للامراء الحفصيين فى أواسط القرن الثالث عشر الميلادى مما ترك أسوء الاثر على عمران المدينة واقتصادياتها اذ أصبحت آنذاك فى « ضعف وقلة عمارة » • (30)

ثم ازدادت أحوال المدينة سوءا بانهيار تجارتها واضمحلال صناعاتها وذلك بفعل التنافس والتناحر بين فروع الاسرة الحفصية فى كل من تونس وقسنطينة وبجاية فلم تتمكن المدينة من المحافظة على سير الحياة العادية بها رغم فترة الاستقرار القصيرة التى عاشتها بين سنتى 759 و 762هـ ، عندما أصبحت عاصمة للامير الفضل الحفصى •

فعادت أحوالها الى الانكماش والتقهقر من جديد منذ أن اقتطعها أبو العباس ملك بجاية الحفصى لابن أخيه أبى عبد الله محمد • سنة 762هـ • ولهذا لم يبالغ العبدرى عندما وصفها بأسلويه الرشيق وعباراته المنمقة وهى تعانى هذه الاوضاع القاسية ، بما نصه : « ثم وصلنا الى مدينة بونة فوجدناها بلدة بطوارق الغير مغبونة ، مبسوطة البسيط ، ولكنها بزحف النوائب مطوية مخبونة ••• تغازلها العيون من جور النوائب ، وتاسى لها النفوس من الاسهم الصوائب » • (31)

وكان من نتائج هذا الوضع السىء أن شق سكان عنابة عصا الطاعة على الحكام الحفصيين • وتمكنوا أخيرا من طرد عامل السلطان الحسن الحفصى ، وتوجيه الدعوة الى خير الدين بربروسة سنة 940هـ ـ 1533م ، عسى أن ينجدهم وينقذهم من هذه الحالة المؤلمة التى كانوا يعانون منها • ولم يلبث خير الدين أن لبى دعوتهم واستقر بينهم • يصلح أحوالهم ويعالج أمورهم ويستعد لمهاجمة تونس وطرد الاسبان منها •

ولكن حكم الاتراك لم يستقر بعنابة ، لان الاسبان بعد انتصارهم فى تونس احتلوا عنابة سنة 1535 ولم يغادروها كما هو معلوم الا بحلول سنة 1540 وبذلك يستتب الامر للاتراك بها طيلة حكمهم للايالة الجزائرية ، على أن الشىء الذى يلفت الانتباه هو أن المدينة لم تشهد ازدهارا ملحوظا بعد أن حطمت تلك الاحداث والحروب المقومات الاساسية

لاقتصادها رغم المجهودات الصادقة للحكام الاتراك لتحسين حال عنابة والنهوض بها ، لا سيما فى بداية عهدهم بها •

ح ـ تغير البنية السكانية لعنابة :

يعتبر تغير العنصر السكانى أيضا من العوامل المؤثرة على الحياة الاجتماعية والاقتصادية لعنابة على حد سواء ، فقد كان لهذا التأثير جانب سلبى وآخر ايجابى •

أما الجانب الايجابى فكان يتمثل فى قدوم جماعات من مهاجرى الاندلس واستقرارهم بأحياء المدينة يمارسون الصنائع المختلفة والمهن اليدوية ويحتكرون الاعمال التجارية التى أصبح أغلب من يشتغل بها من العنصر الاندلسى منذ عهد مبكر • (32)

وبذلك كان لقدوم هذا العنصر الاندلسى النشيط آثار ايجابية بناءة على اقتصاديات عنابة لا سيما بعد أن استقرت جماعات كبيرة من الاندلسيين بالمدينة بعد حلول الاتراك بها •

أما الجانب السلبى لتغير البناء السكانى فهو ناتج عن تلك الجماعات السكانية التى كانت تعيش بضواحى عنابة ، ومع مرور الوقت بدأ عدد كثير من أفرادها يستقر داخل المدينة ، وكانت هذه الجماعات فى أغلبها تنتمى الى قبيلة مرداس العربية التى استقرت أثناء الهجرة الهلالية بسهول عنابة منذ القرن الخامس الهجرى ، وكانت ما تزال على حالة البداوة والخشونة مما ترك أثرا سيئا على الحياة الاقتصادية • وبالخصوص ما يتصل منها بالنشاط الزراعى لسهل عنابة مما جعله فى ضعف وقلة عمارة ، حسب قول الشريف الادريسى • (33)

د الحالة الصحية والمعاشية بعنابة العثمانية :

كان لها تأثير حاسم على الوضع الديمغرافى والاقتصادى للمدينة ، وذلك نتيجة التأثير السيىء للامراض والاوبئة المهلكة التى كانت تجتاح المدينة فى فترات متلاحقة تكاد تكون غير منقطعة طيلة الفترة العثمانية ، وقد أمدتنا أرشيفات ووثائق الشركة الملكية الافريقية بمعلومات قيمة حول الوضع الصحى بعنابة طيلة القرن الثامن عشر الميلادى ولا سيما السنوات الممتدة من 1756 الى 1786 م •

وحتى نأخذ فكرة على مدى الآثار المدمرة لهذه الامراض ، نستعرض بشيء من التفصيل الحالة الصحية لمدينة عنابة سنـة 1785 مستعينين فى ذلك بالتقارير التى كان يبعث بها موظفو الشركة الملكية الافريقية الى وكالاتهم بمرسيليا :

وذلك على سبيل المثال فقط • اذ تفيدنا تلك التقارير انه فى شهر مارس من هذه السنة (1785) قدر عدد الوفيات من جراء مرض الوباء ما بين 5 و 6 وفيات فى اليـوم الواحد وذلك ما بين 10 و 14 من هذا الشهر (مارس) ثم تزايدت خطورة الوباء عندما ارتفع عدد الاصابات القاتلة بعد ان عم الطاعون المدينة وانتشر فى كل احيائها منذ نهاية شهر ماى حتى بلغت الاصابات فى يوم 24 ماى وحده ، 103 اصابة قاتلة ورغم أن الوباء قد خفت وطأته فى شهر جويلية عندما بدأ عدد الاصابات يتناقص بحيث لم تسجل فى اليوم الرابع منه سوى ثلاثة اصابات فقط ، فقد عاد الى الظهور مرة أخرى وتزايدت خطورته فى شهر أوت خاصة ، عندما ارتفع عدد الوفيات الناتجة عن هذا الوباء الى 100 وفاة فى اليوم الواحد ، وظلت الحالة هذه حتى أواسط شهر أكتوبر من نفس السنة حينما بدأت حدته تتناقص تدريجيا (34) •

على أن هذه السنة التى تعرضنا لها لم تكن شاذة فى حياة عنابة لان مثل هذه الاوبئة كانت تجتاح المدينة عادة نتيجـة اتصالها المستمر بالخارج وانفتاحها عـلى المبادلات التجارية ، فهى ملتقى العديد من التجار من مختلف مدن البحر المتوسـط ، ومحطـة استقبال للعديد من الحجاج • وفى هذا الصدد نشير الى أن سفينة عثمانية من نـوع بولاكر Polacre كانت قد أرست بميناء عنابة اثناء عودتها من الاسكندرية محملة بالحجاج سنة 1822 تسببت فى انتشار الطاعون بالمدينة بعد أن ظهر هذا المرض الخبيث بـين المسافرين منذ اقلاعها من ميناء الاسكندرية (35) ، وقد اضطر هذا الوضع مستخدمى الشركة الافريقية أن يطلبوا من باى قسنطينة فى رسالة عاجلة بتاريخ 24 جوان 1822 السماح لهم بغلق المركز التجارى التابع لهم بالمدينة • فسارع الباى الى تلبية طلبهم فى يوم 4 جويلية بعد أن استفحل الوباء وأصبح قاتلا (36) •

على أن الشيء الجدير بالذكر فى مثل هذه الاحوال هو حرص الحكام الاتراك على الحد من خطورة تلك الاوبئة والتقليل من أضرارها بمختلف الوسائل ، مثل اتباعهم نظـام

الحجز الصحي لمدة أربعين يوما « الكرانتين » وذلك بالنسبة للمسافرين والحجاج على حد سواء مع فرض الرقابة الصارمة على المناطق المصابة بمثل هذه الامراض المعدية ، بغية عزلها عن باقى الجهات • فلهذا الغرض نجد فرسان الحامية التركية المرابطة بعنابة عام 1785 يقيمون حزاما صحيا حول المدينة ، بغية الحيلولة دون تسرب العدوى الى سكان المدينة من القبائل المصابة بالطاعون فى جهات القالة ونواحى سهل عنابة ، على أن مثل هذه الاجراءات مع صرامتها لم تحل فى غالب الاحيان دون انتقال المرض الى السكان داخل أسوار المدينة ، بدليل أن بعض التقارير المتعلقة بالاوبئة تفيدنا بانه رغم الحزام الصحى الا أن المرض قد انتقل الى الاهالى داخل المدينة فى السنة التالية •

فمثل هذه الامراض كانت سببا مباشرا فى الركود التجارى والصناعى بالمدينة وذلك أنها كانت تهلك عددا كبيرا من الصناع والتجار وتترك السوق مفتوحة للتجار الاجانب لتصدير الانتاج المحلى • وفى هذا الصدد نلاحظ انه بعد وباء عام 1787 تضاعفت كمية الاصواف المعدة للتصدير والمجلوبة من البوادى المحيطة بالمدينة خاصة بعد أن قضى الوباء على أغلب النساجين ولم يعد هناك من يقوم بمعالجة الاصواف وحياكة البرانس (37) •

ولعل الوصف الذى جاء فى احد التقارير التى كان يبعث بها التجار الفرنسيون الى بلادهم يعطى لنا صورة لوضعية المدينة بعد تعرضها للاوبئة الفتاكة ففى هذا الصدد يصف احد التقارير الحالة بما نصه : « اذا اعتبرنا ان ثلثى المنازل كان موصدا ، يتبين المرء بكل ألم مدى الخراب الذى تعرضت له المدينة من جراء الوباء الذى حل بها » • (38)

والجدير بالذكر ان هذه الاحوال الصحية المتردية لم تكن وحدها المسؤولة على سوء الحالة الاقتصادية لعنابة لان الاوبئة فى أغلب الاحيان تكون مصحوبة بموجات من القحط والمجاعات تختفى فيها الاقوات من السوق ويهلك الناس نتيجة الجوع والمسغبة مما يجعل الحالة المعاشية لسكان المدينة فى بعض السنوات سيئة وغير محتملة حتى انه فى سنة 1800 اضطر الحكام على خلاف العادة الى توفير الغذاء الضرورى للسكان بجلب كميات كافية من حبوب مناطق البحر الاسود ووضعها تحت تصرف الاهالى، بسعر 28 ريالا للصاع الواحد (39) • خشية شيوع الفوضى والاضطراب •

وحتى نستطيع أن نبرز تأثير كل هذه العوامل السابقة والمتمثلة أساسا فى تلك المجاعات والامراض بالاضافة الى

الغارات والهجمات البرية والبحرية ، على الوضع الاقتصادى فاننا سوف نأخذ عدد سكان المدينة كمعيار أو مقياس تقريبى لتحديد فترات الازدهار الاقتصادى والتطور العمرانى لمدينة عنابة • بغض النظر عن امكانية الوقوع فى الخطأ لعدم توفر الوثائق والمعلومات الضرورية فى هذا المجال • فنجد حسب هذا القياس أن عدد سكان عنابة نظرا للعوامل السابقة الذكر لم يكن مستقرا على حالة واحدة ولا متقاربا فهو يرتفع أو ينخفض تبعا لازدهار المدينة أو تدهورها ، ففى بداية كل من القرن السادس عشر والقرن التاسع عشر تضاءل عدد السكان الى حد كبير وهذا يجعلنا نستنتج أن كلا من بداية ونهاية الحكم التركى تعتبر من أسوء الفترات الاقتصادية فى حياة عنابة الاقتصادية ، بخلاف الفترة الممتدة من نهاية القرن السابع عشر الى أواسط القرن الثامن عشر كانت تعتبر حسب هذا القياس أيضا عصر ازدهار وتطور نسبى ، ومرد ذلك الى اختفاء كثير من هذه العوامل السلبية السالفة الذكر •

فبالنسبة لبداية الحكم التركى للمدينة يعلل هذا الاضمحلال بالهجمات البرية والغارات البحرية المتكررة ، ولهذا وبعد أن كانت عنابة طيلة الفترة الاسلامية تعتبر مدينة متوسطة ليست بالكبيرة ولا بالصغيرة حسب التقاويم الاسلامية (40) نجدها عند حلول الاتراك بها تضمحل فلم يعد سكانها يتجاوزون 3000 نسمة حسب ما نستخلصه من معلومات الحسن بن الوزان التى تشير الى أنه كان بعنابة فى هذا الوقت حوالى 300 موقد لا غير (41) ، ويبقى الوضع هكذا حتى مستهل القرن السابع عشر بدليل أن دابر يصفها فى هذا الوقت بأنها مدينة صغيرة جدا • (42)

لكن عنابة لم تلبث أحوالها الاقتصادية أن تحسنت أثناء القرن السابععشر الميلادى اذ ارتفع عدد سكانها الى حوالى 8000 نسمة (43) ثم تبلغ أوج ازدهارها فى أوائل القرن الثامن عشر الميلادى عندما أصبح عدد سكانها آنذاك يقدر بحوالى 12000 نسمة (44) ومن الراجح أن هذا النمو السكانى المطرد هو الذى جعل الباى صالح يعمد الى تشييد مسجد آخر بها عام 91 ـ 1792 ، بعد أن ظلت المدينة حسب ما تفيدنا به المصادر المتوفرة ليس بها من المساجد الكبرى ســوى جامع سيدى « أبى مروان الذى يعــود تاريخ بنائه الى سنة 1033 » • (45)

لكن هذا الازدهار لا يلبث أن يتلاشى بانخفاض عدد السكان فى أوائل القرن التاسع عشر الى حوالى 5000 نسمة وذلك لتأثرهم بالوباء الذى حل بالمدينة سنة 1817 (46) ثم استمر تناقص السكان بعد ذلك سريعا حتى لم يعد يتجاوز 1600 نسمة عشية الاحتلال ـ بعد أن تكاثرت الفتن الداخلية ـ وتكرر احتلال الجيوش الفرنسية للمدينة عدة مرات (47) ثم تعرضها للتخريب المتعمد من طرف العشائر المجاورة لها بغية ابعاد الفرنسيين عنها · وهكذا لم يعد يقيم بالمدينة بعد احتلال الفرنسيين لها وخروج كثير من العائلات منها طلبا للامن وهروبا من المحتل الغاصب سوى 1500 ساكن تلثاهم (48) من اليهود الذين تعاونوا مع المحتلين ·

أما النشاطات الاقتصادية التى انعكست عليها كل هذه العوامل والاوضاع وما صاحبها من زيادة أو تناقص فى عدد السكان ، فتقوم فى مجملها على المنتوجات المختلفة التى يوفرها اقليم عنابة وتقوم عليها الصناعات اليدوية والمبادلات التجارية باعتبارها المادة الاولية والقاعدة الاساسية للاقتصاد ·

ويمكن الالمام بهذه المنتوجات الاولية عن طريق تصنيفها حسب طبيعتها كما يلى :

أ ـ المنتوجات الحيوانية :

ومن أهمها الاصواف والجلود · فبفضل وجود كميات وفيرة من الصوف اشتهرت عنابة منذ مطلع القرن السادس عشر بحياكة الملابس والاقمشة، ونسج الاغطية والبرانس والمعاطف والزرابى والبرادع (49) ، ولعل هذه الاهمية التى اكتسبتها الصناعات النسيجية بعنابة العثمانية هى التى جعلت ابن الوزان يخص النساجين بالذكر دون سائر الصناع الآخرين (50) ، كما ان توفر الجلود بأسواق المدينة سمح لبعض الصناع بانتاج الادوات الجلدية المختلفة مثل السروج والاحذية والحافظات ·

ومع أهمية هذه الصناعات المتعلقة بالاصواف والجلود الا أن الاهمية الحقيقية لهاتين المادتين الاوليتين تكمن فى كونهما من المواد التى يكثر الاقبال عليهما فى مجال التجارة الخارجية لا سيما وأن اصواف عنابة كانت تمتاز بجودة نوعيتها المعروفة عالميا بصوف قسنطينة (51) ، بحيث كانت كمية الاصواف المصدرة من ميناء عنابة سنويا وطيلة القرنين السابع عشر والثامن عشر

تتراوح ما بين 10،000 (52) و 12000 (53) قنطار ، وقد بلغت فى فترات الرخاء 16000 (54) قنطار · وكان يباع القنطار الواحد منها من فئة 130 رطلا بـ 16 قرشا (55) بالاضافة الى تصدير 50،000 قطعة من جلد البقر سنويا الى البلاد الاوروبية · (56)

ـ **المتنوجات الغابية** من أخشاب وعسل وشمع :

أما الاخشاب فتعتبر مادة أولية تدخل فى الصناعة اليدوية البسيطة وتندرج ضمن المواد المصدرة كذلك ، وهى فى مجملها تجلب الى عنابة من المناطق الغابية المحيطة بها مثل غابات ايدوغ وبنى صالح والقالة وسيبوز وقد امتازت أخشاب هذه المناطق بجودة أنواعها وملاءمتها لاعمال البناء وصنع السفن الشراعية وهذا ما ساعد على صنع الزوارق والسفن الصغيرة بميناء عنابة منذ العهد الحفصى (57) ، وجعل الانكليز يحرصون على الحصول على امتيازات تخول لهم قطع الاخشاب واستيرادها مقابل رسم سنوى يقدر بـ 200 ألف فرنك سنويا · (58)

أما العسل والشمع فهما من المواد النادرة التى يقبل الاوروبيون على استيرادها ولهذا بادرت حكومة الايالة الجزائرية آنذاك الى احتكار تجارتهما واعطاء حق تصديرهما لشركات أجنبية مثل الشركة الملكية الافريقية الفرنسية مقابل رسوم جمركية مرتفعة · وبذلك كان يصدر ميناء عنابة عادة ما بين 300 الى 400 قنطار من الشمع والعسل سنويا وهى نفس الكمية التى كان يصدرها ميناء الجزائر آنذاك · (59)

ح ـ المحاصيل الزراعية :

على اختلاف أنواعها وتعدد أصنافها وبها اشتهرت عنابة حتى وصفت بأنها بلاد « بها خصب ورخص وفواكه وبساتين قريبة ··· والقمح والشعير فى أكثر أوقاتها مما لا قدر له » (60) وتعتبر الحبوب أهم المحاصيل الزراعية على الاطلاق ، وذلك للكميات الضخمة التى تصدر منها والتى غالبا ما تتجاوز 40 حمولة (61) أى ما يعادل 16000 (62) قيسة من الحبوب ، وقد تبلغ فى السنوات الخصيبة 100،000 صاع (63) بحيث أصبح ميناء عنابة يحتل الرتبة الاولى مع ميناء الجزائر فى تصدير الحبوب من قمح وشعير

ويتفوق بكثير على باقى الموانىء الاخرى مثل أرزيو الذى يصدر منها عادة 30 حمولة سنويا، ودلس التى تبيع للخارج كل سنة ما بين 2 و 3 حمولات (64) ، وتذهب أغلب كميات الحبوب المصدرة وهى ما بين 6 و 8 آلاف قيسة من ميناء عنابة الى مرسيليا مباشرة لتسد احتياجات أسواق فرنسا الجنوبية من هذه المادة ٠

أما المحاصيل الزراعية التى تضاءلت فى العهد العثمانى بنواحى عنابة فتتمثل فى منتوج الكتان الطبيعى ومحصول شجر العناب فالكتان الذى كان يزرع بكثرة فى السهول المحيطة بالمدينة ، ويمد العاملين فى نسج القماش بالمادة الاولية ، تضاءلت أهميته واستعيض عنه بالصوف والوبر التى وفرتها الحياة الرعوية ٠ وبذلك لم تعد المصادر تشير فى العهد العثمانى اليه بعد ما أكدت على أهميته كثير من المصادر فى الفترة الاسلامية مثل البكرى وابن سعيد المغربى والادريسى وغيرهم ٠ وكذلك الشأن بالنسبة لثمر العناب الذى لم يعد سكان عنابة يقبلون على تجفيفه بغية استهلاكه ، منذ القرن السادس عشر الميلادى ٠

د ـ المواد المعدنية :

وتتمثل أساسا فى معدنى النحاس والحديد وذلك لتوفرهما بكثرة فى الجهات القريبة ، فالنحاس كان يستخرج من نواحى عين باربار بسفوح ايدوغ الشمالية ٠ أما الحديد فتقع مناجمه فى أماكن متفرقة مثل قطع الحديد الذى يعرف الآن ببوحمرة ومناجم مجاز الرسول وعين أم الرخاء وحريزاز ومعجوبة (65) ٠

ومما يلاحظ أن أهمية هذين المعدنين تستنتج مما كتبه الرحالة المسلمون مثل ابن سعيد الذى ذكر بأن بظاهر عنابة معادن حديد (66) ، والادريسى الذى أشار أن بها معادن حديد كثيرة (67) ، وكذلك الشأن بالنسبة لابن حوقل الذى أكد ذلك بقوله : بأن « بها معادن حديد كثيرة ويحمل منه الى الاقطار الغزير الكثير » ٠ (68)

ومن المؤكد أن أغلب الصناع تحولوا تدريجيا عن معالجة مادة النحاس والحديد بعد أن أصبحت مغانم القرصنة توفر حاجة السوق الداخلية من النحاس والحديد الجاهز للاستعمال ، وهذا هو السبب فى سكوت المصادر المتعلقة بعنابة عن ذكر هذين المعدنين الضروريين طيلة الفترة العثمانية ٠

على أن الشيء الذى نستنتجه من ذكر هذه الانواع المختلفة من المنتوجات والثروات التى كانت تساهم بها عنابة فى التجارة الدولية لذلك العصر ؛ يكمن فيما يلى من النقاط :

1 ـ ممارسة الحكومة التركية المتمثلة فى أجهزة البايلك المختلفة بمدينة عنابة لنوع من الاحتكار يخولها صلاحية شراء المواد الاولية من الاهالى بأسعار معددة وبيعها بعد أن يتم جمعها فى مخازن البايليك الى التجار الاوروبيين والشركات الاجنبية بثمن مرتفع نسبيـــا ٠

ففى هذا المجال كان يحتكر البايليك شراء الصوف من المنتجين بـ 8 قروش ليبيعها مجددا للشركات الاوروبية بـ 10 قروش للقنطار الواحد (69) ٠

كما كان وكيل الخرج له حق احتكار شراء الجلود بسعر 6،7 موزونة للجلد الصغير و 8،9 موزونة للجلد الكبير ثم يبيعها مرة أخرى للتجار الاجانب بثمن لا يقــل عــن 30 موزونة لقطعة الجلد سواء كان كبيرا أو صغيرا (70) ٠ أما القمح فان الثمن المحددلـ ـه فى رحبة عنابة (السوق الاسبوعية) هو 8،80 قروش وبه يتقيد رجال البايليك عنـد شرائهم لكميات الحبوب ، ثم يصدرونها مرة ثانية للشركات الاوروبية ، بثمن لا يقل عــن 26،30 قرشا (71) ٠ ونفس الاسلوب يتبعـــه رجال البايليك بالنسبة لمادة الشمــع فيجمعونها من الاهالى مقابل 60 بدقة شيك للقنطار الواحـــد ، ثـم يصدرونه للتجار الفرنسيين بثمن يقدر بـ 163 بدقة شيك ٠ (72)

2 ـ أوجدت المواد الاولية المصدرة من ميناء عنابة نوعا من العلاقات التجاريـــة مع أوروبا كان لها تأثير كبير على اقتصاديات الشرق الجزائرى كله وذلك منذ بداية القرن السادس عشر عندما تزايد نشاط التجار الفرنسيين بميناء عنابة بعد أن تمكن « صانصون نابولون » من عقد معاهدة سلم وتجارة مع ديوان الجـزائر بتاريخ 20 سبتمبر 1628 ، سمحت للفرنسيين بالتمركز فى الحصن التجارى الواقع غرب القالة بحوالى 10 كلم والمعروف بحصن فرنسا، كما سمحت لهم هذه المعاهدة أيضا بفتح وكالة تجارية فرنسية بعنابة مقابل رسم سنوى يدفعونه للداى يبلغ 26000 دوبل ، مع التعهد بدفع المصاريف الاضافيـة المتعلقة بصيانة ورعاية مركزهم التجارى وهى تبلغ حسب نصـــوص هـــذا الاتفاق

133.74 جنيه فرنسى ، تتكفل وكالة عنابة بتسديـــد قسط منـــه يقدر بـ 13.300 جنيه • (73)

وبمرور الوقت تدعمت العلاقات بين عنابة ومرسيليا بعد ما تحصلت الشركة الملكية الافريقية التى تأسست بأمر ملكى سنة 1741 ؛ على حق تصدير المواد الاولية الرئيسية ، بالاضافة الى الحبوب والصوف والشمع والعسل والمرجان مقابل رسم سنوى تتعهد به الشركة للجمارك الجزائرية تبلغ قيمته 7000 جنيه فرنسى أو ما يعادل 14،000 دوبل اسبانى • (74)

ثم حلت هذه الشركة بقرار من لجنة السلامة العامة سنة 1794 بغية تصفية الامتيازات الفرنسية المعادية لها فى الخارج ، وأعقب ذلك انقطاع العلاقات بين الجزائر وفرنســا أثناء الحروب النابوليونية فاغتنم الانكليز الفرصة وتحصلوا على نفس الامتيازات التى كانت للفرنسيين • لكن تحسن العلاقات من جديد بين فرنسا والجزائر سمح بعودة المصالح الفرنسية الى منطقة عنابة بفضل معاهدة مارس 1817 وأسسوا لهذا الغرض الوكالة الافريقية المؤقتة l'Agence Provisoire d'Afrique سنة 1818 ثم عوضت فيما بعد بـ مؤسسة بارى maison de Paret سنة 1822 • (75) فبادرت هذه المؤسسة الى تنصيب وكيل تجارى لها يمثلها ويرعى مصالحها بعنابة بعد أن تحصلت من الداى على حق تصدير المواد الاولية من صوف وجلود وشمع ومرجان (76) مقابل مبلغ مالى قدر بـ 30 ألف قطعة ذهبية من صنف الدولار الاسبانى أو الريال الفرنسى يأخذ منه قائد عنابة وشيوخ القبائل المجاورة نصيبا متعارفا عليه مقابل الخدمات التى يقومون بها ، لكن فرض الحصار الفرنسى على السواحل الجزائرية أدى الى انهاء النشاط التجارى للمؤسسة بعنابة فى شهر جوان من عام 1827 •

3 ـ سمح النشاط التجارى للتجار والشركات الاوروبية التحكم فى السوق التجارية بعنابة بحيث أصبحت الشركة الفرنسية هى التى تقوم بتحديد أسعار المواد الاوليـــة القابلة للبيع مثل تحديد سعر القمح بـ 22 قرشا وسعر الشعير بـ 8 قروش وسعـــر الفول بـ 14 قرشا للقفة الواحدة سنة 1786 (78) • وهذا ما أدى بطبيعة الحـــال الى اختفاء بعض المواد الاستهلاكية الضرورية من أسواق عنابة فى وقت كانت تصدر فيه

الكميات الضخمة من الحبوب الى الخارج • ففى سنة 1787 مثلا والتى عرف فيها الشرق الجزائرى ظروفا اقتصادية صعبة تم شحن 33 سفينة بالحبوب الى الموانىء الاوروبية من عنابة (79) ، وترتب على ذلك كله ممارسة نوع من التجارة غير المشروعة القائمة على التهريب والتحايل على الجمارك الجزائرية بعنابة، ورغم اصدار الاوامر المشددة والقرارات القاضية بمعاقبة كل مهرب بالاعدام (80)، كان وكلاء الشركة الافريقية الفرنسية يعمدون الى الحصول على ما يحتاجونه لسد حاجات السوق الفرنسية الجنوبية عن طريق المضاربات المحضورة • حتى ان ثلثى تجارة الشمع والعسل المقدرة فى مجملها بـ 300 قنطار سنويا كانت تتم بواسطة عمليات التهريب والمضاربات • (81)

4 ـ اما نتيجة هذا الوضع التجارى بمدينة عنابة العثمانية فقد كانت له آثار سلبية على حياة السكان المحليين وذلك بفعل مزاحمة الاجانب لاصحاب البلد فى كل الاعمال التجارية • وقد تسبب هذا الوضع فى اختفاء الطبقة التجارية الموسرة بالمدينة بعد ما آلت كل الصفقات المربحة والمبادلات الهامة الى أيدى التجار الاجانب من فرنسيين ويهود بفضل الامتيازات التى كانوا يحظون بها من عمال البايليك ، وهذا ما جعل الاتصال مع الخارج محدودا فى المجال التجارى المحض ، فهو لم يساعد على خلق جو من التفاعل الحضارى والتبادل الثقافى البناء وبالتالى لم يساهم مثل هذا النشاط الناتج عن الوضع التجارى لعنابة فى رفع مستوى سكانها الذين ظلوا يعانون الشقاء والفقر (82) • حتى بشهادة كتاب أوروبيين عرفوا بتحيزهم ومجاراتهم للمصالح الاستعمارية • (83)

5 ـ كانت عنابة العثمانية بغض النظر عن الآثار السلبية للنشاط التجارى المتصل بالاحتكارات الاجنبية تعتبر مكانا مفضلا لكثير من الصناع يزاولون فيه الصناعات اليدوية المختلفة التى أتخذت فى تنظيمها شكل مجموعات حرفية ذات طابع نقابى يتمركز كل فرع منها فى شارع خاص به مثل الاسواق الخاصة بالخزازين والنجارين والخزافين وبائعى البرانس والحدادين(84)وبذلك كانت عنابة تعتبر منهذه الزاوية احدى الاسواق الرئيسية بالشمال الافريقى فضلا عن أنها كانت حلقة وصل بين الجهات الشرقية للايالة الجزائرية وباقى الاقطار الاسلامية والاوروبية الواقعة على ضفاف البحر المتوسط وقد ساعدها على بلوغ هذه المنزلة ما كان يمتاز به سكانها من وداعة وحسن معاشرة وحفاوة بكل مسافر أو غريب • (85)

التعـاليق والهـوامش

(1) راجع خريطة موقع مدينة عنابة العثمانية الملحقة بالمقال .

(2) G. Marçais : Al Annaba, in, Encyclopédie de l'Islam. Nouvelle édition, Brill-Leyde 1960

(3) ياقوت الحموى ، معجم البلدان ، ليبزغ 1869 .

(4) أبو عبيد الله البكرى ، المسالك والممالك ، جزء : المغرب فى ذكر بـلاد افريقيا والمغرب باريس 1965 .

(5) Léon l'Africain (J.) : Description de l'Afrique ; 2e tome, Nouvelle édition, tra. par A. Epaulare, A. Maisonneuve, Paris 1956, p. 370.

(6) نفس المصدر ، ص 370 .

(7) البكرى ، نفس المصدر .

(8) M. Rozet : Voyage dans la Régence d'Alger ; Paris 1833, T. III, p. 302.

(9) D'O Dapper D.M. : Description de l'Afrique ; Amsterdam 1684, p. 187.

(10) Perrot, A.M. Alger : Esquisse Topographique et Historique, p. 25.

(11) Madame Chollet née Duché : Bône de 1830 à 1881, Diplôme d'Etudes Supérieures, Alger 1952, Ch. I, p. 4.

(12) M. Rozet : op. cit. T. III, p. 302.

(13) Peyssonnel et Des Fontaines : Voyages dans la Régence de Tunis et d'Alger, publiées par M. Dureau de la Malle, Gide, Paris 1838, T. II, p. 219.

(14) Rozet, op. cit., T. III, p. 303.

(15) Perrot, op. cit., p. 25.

(16) Peyssonnel et Des Fontaines, op. cit., p. 219.

(17) Perrot, op. cit., p. 25, Peyssonnel et Des Fontaines, op. cit. p. 219.

(18) Pellissier : Annales algériennes - Laguionie, Paris, T. I, p. 227.

(19) Rozet, op. cit., T. III, p. 307.

(20) Peyssonnel et Des Fontaines, op. cit., p. 219.

(21) راجع خريطة اقليم عنابة الملحقة بالمقال .

(22) Léon l'Africain, op. cit., p. 370.

(23) عن أبى سعيد المغربى ، نقلا عن القلقشندى ، صبح الاعشى ، الباب الرابع الجزء الخامس ، القاهرة ، 1922 ، ص 106 .

(24) صاحب الاستبصار فى عجائب الامصار لمؤلف مجهول ط فوز كريمر ، فيما 1852

(25) نفس المصدر .

(26) أبو القاسم بن حوقل النصيبى ، المسالك والممالك والمفاوز والمهالك ، المعـروف بصورة الارض ط . دار الحياة ، بيروت بدون تاريخ ، ص 77 .

(27) الشريف الادريسى ، وصف شمال افريقيا والصحراء المقتبس من نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق من طرف هنرى بريس ، ص 85 .

(28) F. Elic de la Primaudaie : Le commerce et la navigation de l'Algérie avant la conquête française, Revue algérienne et coloniale, T. II, 1860, p. 120.

(29) محمد العبدرى البلنسى ، الرحلة المغربية ، المعروفة : بما سما اليه الناظر المطرق فى خبر الرحلة الى المشرق ، تحقيق ونشر أحمد بن جـدو ، مطبعـة البعث ــ قسنطينة منشورات كلية الآداب الجزائر ، ص 33 ٠

(30) الادريسى ، نفس المصدر ، ص 85 ٠

(31) العبدرى ، نفس المصدر ، ص 33 ٠

(32) أبو عبيد الله البكرى ، نفس المصدر ٠

(33) الشريف الادريسى نفس المصدر ص 85 ٠

(34) Berbrugger : Mémoire sur la peste en Algérie depuis 1552 jusqu'à 1819. p. 211-215 et 229. d'après EA. Ch. CM.

(35) Guyon : Sur la peste d'Alger de 1817 - 1818, n° 108.

(36) Berbrugger, op. cit., p. 226.

(37) Valensi : Le Maghreb avant la prise d'Alger. Venture de Paradis, p. 18.

(38) نفس المصدر ، ص 22 ، والنص الفرنسي يرد العبارة بهذا السياق :

« on s'aperçoit péniblement des ravages qu'elle (la peste) y a faites, si on considère que les deux tiers des maisons de la ville sont fermées ».

(39) Hamdan Ben 'Athman Khodja : Le Miroir. p. 134.

(40) راجع ابن حوقل ، نفس المصدر ، ص 77 ٠

الادريسى ، نفس المصدر ، ص 85 ٠

(41) Léon l'Africain, op. cit. p. 370.

(42) D'O Dapper D.M. : Description de l'Afrique, Amsterdam, 1684. p. 187.

(43) D. Shaw : Voyage de M. Shaw, tra. Carthy, Paris 1830, p. 344.

(44) Perrot, op. cit. p. 26.

(45) مع العلم بان سعة المساجد وعددها كان يتماشى مع أهمية المدن الاسلامية ونمو سكانهـا ٠

(46) Perrot, op. cit. p. 26.

(47) احتل الفرنسيون مدينة عنابة لاول مرة فى 12 صفر 1246 ، ثم خرجوا منها فى 28 صفر من نفس السنة (1830) بأمر من قائد الجيوش الفرنسية بالجزائر الجنرال دامريمون ثم رجعوا مرة ثانية ــ فى 5 ربيع الثانى 1247 ، ثم خرجوا منها مرة أخـرى فى 2 شـوال 1247 (1832) وعند ذلك بادرت العشائر المجاورة لها بتخريبها بعد أن خرج ما كثر من سكانها ثم عاد بيها الفرنسيون للمرة الايرة سنة (1832) ٠

(48) Tableau de la situation des établissements français dans l'Algérie, 1832.

(49) D. Shaw : Traduction Carthy, p. 344.

(50) Léon l'Africain. op. cit., p. 370.

(51) De la Primandaie, op. cit., p. 121.

(52) D. Shaw, op. cit. p. 344.

(53) Piquet aperçu sur l'état d'Alger ; Tableau des objets exportés et des lieux d'exportations p. 177.

(54) Boutin : Reconnaissance des villes, fonts et batteries d'Alger (1808). Publ. par G. Esquer 1927, p. 78.

(55) De la Primandaie, p. 121.

(56) D. Shaw : op. cit., p. 344.

(57) H.R. Idris : La berbérie orientale sous les Zirides, X[e] - XII[e] siècle, T. II, p. 494.

(58) Louis de Baudecour : La colonisation de l'Algérie, ses éléments, p. 53.

(59) Venture de Paradis, p. 21.

(60) ابن حوقل ، نفس المصدر ، ص 77 ·

(61) Venture de Paradis : Alger au XVIII[e] (18[e]) siècle, Fagnan, Alger 1898, p. 21.

(62) Shaler (W.) : Esquisse de l'état d'Alger (tra. Bianchi) Paris Iadvocat 1830, p. 102.

(63) Shaw, p. 344.

(64) Venture de Paradis, op. cit., p. 21.

(65) Baron Bande : L'Algérie, T. I. M. Chollet, 5[e] point, les sources minières de la province de Bône.

(66) ابن سعيد المغربى نقلا عن القلقشندى . ص 106 ·

(67) الشريف الادريسى ص 85 ·

(68) ابن حوقل ، ص 77 ·

(69 - 70) Venture de Paradis, op. cit., p. 19.

(71 - 72) Venture de Paradis, p. 20 - 21.

(73) Bouyac : Histoire de Bône.

(74) E. de la Primandaie, p. 121.

(75) Masson (P.) : A la veille d'une conquête, concessions et campagne d'Afrique, p. 108.

(76) Ch. A. Julien : Histoire contemporaine d'Alger d'après document au ministère de l'intérieur, 23 août 1827.

(77) Shaler, op. cit., p. 102, Shaw, p. 344.

(78) Venture de Paradis, op. cit., p. 21.

(79) Venture de Paradis, op. cit., p. 22

(80) Blondel (L.) : L'aperçu sur la situation politique, p. 54.

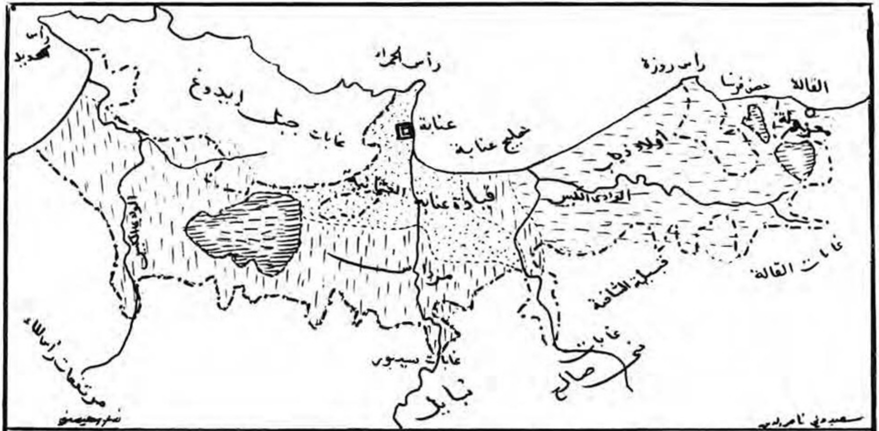
(81) Venture de Paradis, op. cit. p. 20.

(82) Perrot, op. cit., p. 26.

(83) Peyssonnel, op. cit., p 221.

(84) Chollet, T. I, op. cit., p. 45.

(85) Peyssonnel, op. cit., p. 221.



1- خريطة اقليم عنابة العثمانية.

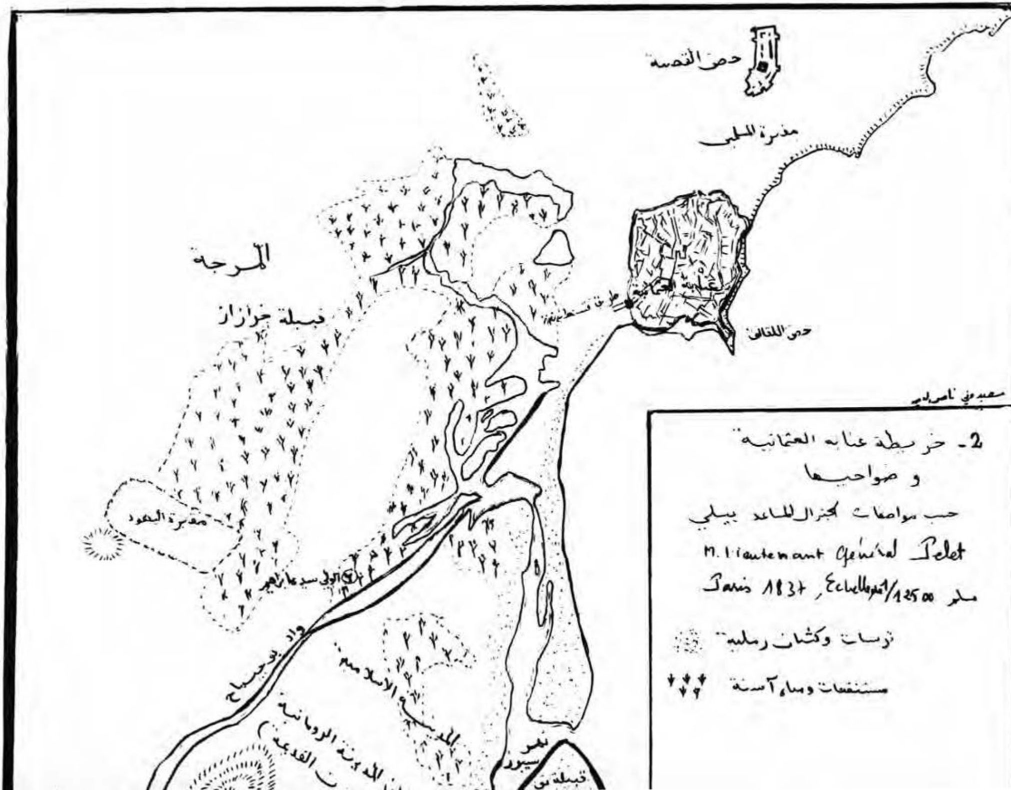
- - - - حدود بسهل عنابة

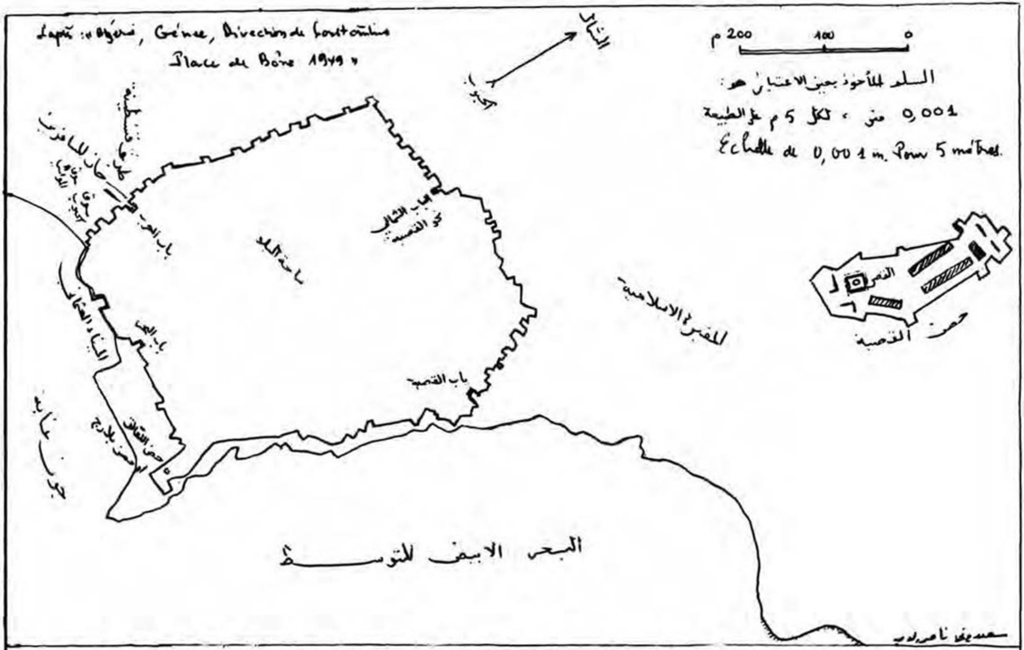
- أراضي تملكها عشائر المخزن

- أراضي تعيش عليها قبائل الرعية.

- أراضي تابعة لقبائل حليفة ومتعاونة.

- أراضي تقيم بها قبائل مستقلة وممتنعة عن الحكام الاتراك ببايلك الشرق.


حصن القصبة
مقبرة المطبي
المرجة
قبيلة خرازاز
مقبرة اليهود
حصن اللقالق
واد بوجيماح
نهر سيبوز
2- خريطة عنابه العثمانيه
و ضواحيها
حسب مواصفات الجنرال المساعد بيلي
M. lieutenant Général Pelet
Paris 1837, Echelle 1/12500 سلم
ترسبات وكثبان رمليه
مستنقعات ومياه آسنة



3- خريطة عنابة العثمانية (حسب مصلحة الاعمال الهندسية المحلية بتاريخ 1949).

حول ثلاثة أحداث غير معروفة من

العلاقات التاريخية بين عنابة واسبانيا

د · ميكال دى ايبالزا

استاذ بجامعة مدريد

ترجمة : **د· عبد الحميد حاجيات**

لا شك ان العلاقات التاريخية بين عنابة وناحيتها وبين السواحل المتوسطية من شبه جزيرة ايبيريا والجزر الشرقية (البليار) ، قد بدأت منذ عصر ما قبل التاريخ · ويرجع استمرارها بصفة خاصة الى موقع المنطقتين الجغرافى ، على ضفتى بحر واحد ، هو البحر الابيض المتوسط · وقد استقرت امبراطوريات مختلفة على شاطىء الحوض الغربى للبحر المتوسط ، فى الفترة التاريخية التى سبقت الاسلام ، مما أدى الى اقامة علاقات بين ناحية عنابة وشبه جزيرة ايبيريا ·

فالفينيقيون والقرطاجيون قدموا من شمال افريقيا الى اسبانيا ، وكذلك الرومان ، فانهم أقاموا امبراطوريتهم فى كلا المنطقتين · كما كان للمسيحية الافريقية والمسيحية الاسبانية علاقات متواصلة ، فالقديس أوغسطين ، الذى كان ابن هذه الارض المغربية ،

والذى يحظى مع ابن خلدون بشرف تمثيل شمال افريقيا من بين عباقرة الفلسفة العالمية ، كان معروفا باسبانيا ، مثلما كان يعرف فى افريقية الاسبانيان برودانس وايزيدور . ثم ظهر تياران سياسيان متعاكسا الاتجاه ، ساهم كلاهما فى التوحيد بين المنطقتين ، وذلك حينما قدم الوندال بقيادة جنسريك ، من اسبانيا ، واستقروا بعنابة قبل أن يغزوا قرطاجة ، وأقبل البيزنطيون من قرطاجة ، فاحتلوا مدة المنطقة الشرقية من شبه جزيرة ايبيريا ، أيام مملكة القوط .

وفى العصر الاسلامى ، كان من شأن المنطقتين أن قطعتا مسيرة متوازية ، وربطت بينهما أواصر الاخوة المتواصلة ، سواء تحت سلطة سياسية واحدة ، كما كان الامر أيام ولاة القيروان فى القرن 2هـ/8م ، أو تحت سلطتين متعاديتين ، كما كان الامر فى القرن 4هـ/10م ، أيام الخلافتين الفاطمية والاموية . وليس فى الامكان أن نلخص فى بضعة اسطر فترة تسعة قرون ، امتازت بنزول كثير من الاندلسيين بعنابة ، مما يتطلب القيام بأبحاث عديدة ، قصد ابراز العلاقات التى كانت تربط بين القطرين ، طيلة العصر الوسيط الاسلامى . (1)

وعلى سبيل المثال ، نشير الى أحد الاندلسيين المتأخرين والمشهورين ممن مروا بعنابة ، وهو العالم الرياضى القلصادى ، المتوفى فى باجة سنة 891هـ/1486م . (2)

---

1) النصوص والدراسات المتفرقة ، فى هذا الموضوع ، كثيرة جدا . وتحتوى مجلة الاصالة على مجموعة هامة منها ، فى عددها الخاص بمدينة بجاية ، الذى صدر بمناسبة انعقاد الملتقى الثامن للتعرف على الفكر الاسلامى (1974) . وقد ورد ذكر دراسات هذا العدد ، الخاصة بالاندلسيين ، فى الدراسة البيبليوغرافية التى أجراها الاساتذة م. ابن على ، م. دى ايبالزا ، و أ. قفصى ، تحت العنوان التالى :

Produccion tunecina y argelina sobre historia de Espana desde la independencia (1956 y 1962), "Indice Historico Espanol" (Barcelona), vol. XV (1969/1975), pp. XI - LXIII.

أما القسم الجزائرى من هذه الدراسة البيبليوغرافية فقد أعد بالعربية والفرنسية ، وهو حاليا تحت الطبع ، وتنشره المكتبة الوطنية بالجزائر . هذا ، ويقوم حاليا الاستاذ الجزائرى أ. درارجة ، فى جامعة غرناطة ، بابحاث حول الاندلسيين الذين نزلوا المغرب الاوسط .

2) م. سويسى ، **عالم رياضى أندلسى تونسى** : القلصادى ، « حوليات الجامعة التونسية » (تونس) ، عدد 9 (1972) ، ص 33 — 50 ؛ ولنفس المؤلف :

Un mathématicien tuniso-andalou : al-Qalasâdi, dans Actas del II Coloquio Hispano Tunecino de Estudios Historicos (Madrid/Barcelino, Mayo de 1972), Madrid, 1973, pp. 146 - 169.

وكمساهمة متواضعة لمعرفة هذا التاريخ الطويل الذى يربط بين عنابة واسبانيا ، يقتصر هذا المقال على تقديم بعض الوثائق المجهولة أو التى لا يعرف عنها الا الشىء القليل ، حول ثلاث فترات مختلفة من هذه العلاقات ، وهى :

ا) الاحتلال الاسبانى لعنابة فى القرن 10هـ/16م ٠

ب) هجرة الاندلسيين الى ناحية عنابة فى القرن 11هـ/17م ٠

ج) الازمة التى سادت العلاقات بين الجزائر واسبانيا ، والتى تسبب فى حدوثها أحد سكان جزيرة ميورقة ، فى مدينة عنابة ، فى القرن 13هـ/19م ٠

فهذه الاحداث الثلاثة تمثل مختلف جوانب التاريخ المشترك بين القطرين ، وتفتح آفاقا جديدة أمام الدراسات والابحاث التى ينبغى القيام بها فى مجال التاريخ الجزائرى الاسبانى فى العصر الحديث ٠

ا) الاحتلال الاسبانى لعنابة فى القرن 10هـ/16م ٠

فى مدة وجيزة من الحرب الطويلة والشاقة ، التى قامت بين اسبانيا المسيحية والمغرب الاسلامى ، وقع احتلال عنابة من طرف الجيش الاسبانى ٠ ولا تزال بعض آثار التحصينات الاسبانية ماثلة للعيان فى قلعة المدينة ، الا أن كثيرا من المؤرخين يغفلون غالبا عن ذكر عنابة ضمن المدن المغربية التى احتلها الاسبانيون (3) ٠ والحقيقة أن عنابة كانت تمثل مركزا هاما فى اطار السياسة العدوانية التى انتهجتها اسبانيا فى المغرب ، والرامية الى مراقبة الملاحة المتوسطية ونفاذ الاقطار المغربية الى ذلك البحر المشترك ٠

---

3) فمن بين المؤلفات العامة ، نذكر مثلا : M. Gaïd : L'Algérie sous les Turcs. Tunis, 1974. الذى لا يشير الى الاحتلال الاسبانى لعنابة ، ونذكر كذلك :

Ch. A. Julien : Histoire de l'Afrique du Nord ; Alger 1975.

الذى يغفل ذكر عنابة ضمن قوائم المدن المحتلة ، ولا يشير الى احتلال عنابة الا عرضا ٠ غير أن أحمد توفيق المدنى ، فى كتابه : **حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر واسبانيا (1492 ـ 1792)** ، (الجزائر 1968) ، يخصص لذلك فصلين صغيرين (ص 141 ـ 142 239 ـ 240) ليس فيهما تفاصيل كثيرة ٠

ولا يعرف عن تاريخ هذا الاحتلال الا القليل ، خلافا لعدد كبير من المدن المغربية ، مثل سبتة ، مليلة ، المرسى الكبير ، وهران ، شرشال ، الجزائر ، بجاية ، بنزرت ، حلق الوادى ، تونس ، قليبية ، منستير ، المهدية ، جربة ، أو طرابلس . غير أن الوثائق لا تعوزنا بالاندلس ، واذا ما أجرينا تحقيقا حول الارشيفات العامة بسيمنكاس ـ التى تحتوى على كنوز من نفائس الوثائق المتعلقة بالسياسة المغربية لعهد كارلوس الخامس ـ ، وتصفحنا فهرست قسم « الحرب القديمة »، تمكنا من اضافة معطيات جديدة الى ما كان معروفا من الاخبار . (4)

وأغلب هذه الوثائق تشتمل على أخبار حول التكاليف التى كان يتطلبها بقاء الجيش الاسبانى بعنابة (5) ، والاشغال التى كان ينبغى انجازها لابقاء الحصن بكل امكانياته الدفاعية ضد أى هجوم للمسلمين عن طريق البحر أو البر (6) ، وتجارة المرجان التى شرع الاسبانيون فى استغلالها (7) ومختلف تعيينات الموظفين والعسكريين (8) . فهذه الملفات ، وغيرها مما لم تتم بعد فهرسته ، تمكننا من الاطلاع على مظاهر جديدة أو محلية للحياة المنعزلة التى كانت تعيشها الحاميات الاسبانية فى المغرب (9) . والظاهر أن وضعية عنابة كانت تشبه شيئا ما وضعية بجاية ، آنذاك ، وان كانت لم تصلنا عن عنابة وثائق تبلغ أهميتها المحفوظات التى بلغتنا عن

---

4) راجع :

C. Alvarez Teran : Catalogo XVIII del Archivo General de Simancas , Guerra y marina, vol. I, Epoca de Carlos I de Espana y V de Alemania, Valladolid, 1949.

5) راجع :

A.G.S. : (Archives Generales de Simancas), Seccion "Guerra Antigua", leg II (1536), IX (1536), XIII (1538), XIV (1539), XV (1539), XVI (1539) XVII (1540), XXIV (1538), XXIX (1546), LVIII.

6) راجع : A. G. S. : Ibid., leg. XIV, XVI, XVII.

7) راجع : A.G.S. : Ibid., leg. XIII

8) راجع : A. G. S. : Ibid., leg. XVI et passim.

9) أحسن دراسة حادية حول حصن من هذا النوع هى التى تخص مدينة ساحلية بالمغرب الاقصى (العرائش) . وهى الدراسة التالية : T. Garcia Figueras

— C. Rodriguez - Joulia Saint Cyr : Larache, Datos para su historia en al Siglo XVII Madrid, 1973.

بجاية (10) ، غير أن محاكمة قائد الحصن ، المدعو الفارو قومس « الزجل » ، بتهمة تجاوز السلطة والقساوة ، تنبئنا عن البيئة الشاذة التى كان يعيش فيها أولئك العبيد الجنود فى أرض أجنبية . (11)

هذه صفحة مجهولة للتاريخ المشترك بين عنابة واسبانيا ، وهى جديرة بأن تكون موضوعا لدراسة وافية ، اعتمادا على الوثائق الاسبانية والعربية والاجنبية ، بالاضافة الى الدراسة الاثرية للآثار الاسبانية الماثلة ضمن البنايات العسكرية للمدينة الحالية .

ويتطلب هذا ، بصفة عامة ، من الباحثين الاسبانيين والجزائريين أن يقوموا بأبحاث تاريخية فى اتجاهين ، وأن ينجزوا هذا العمل جميعا ، حول تاريخهم المشترك .

فالاتجاه الاول أكثر تقنية ، وينبغى أن يدور حول دراسة وحفظ الآثار العسكرية الاسبانية فى المغرب ، من العصر الوسيط (وخصوصا على يد الصناع الاندلسيين) الى العصر الحديث (وهران ، والمرسى الكبير ، وسبتة ، ومليلة) عبر العهد الامبراطورى فى القرن 10هـ/16م . وتنتمى هذه الآثار الى تراث المغرب ، مثلما تنتمى اليه الآثار الرومانية . كما أنها أيضا صلة تربط تلك الآثار بالثقافة الاسبانية ، وبامكان هذه الاخيرة أن تعتبرها تابعة لها ـ وذلك أن الفن العسكرى ، رغم الشذوذ الظاهر وأصله العدوانى ، يمكن أن يعد عنصرا من عناصر الثقافة ، ولا سيما عندما يفقد هدفه التقنى

10) فيما يتعلق بالازمات الداخلية التى عرفتها الحامية الاسبانية فى بجاية ، نجد وصفا حسنا لتلك الازمات من طرف شاهد عيان تحدث عن تخلى الاسبانيين عن المدينة . راجع :

— C. Fernandez Duro : Perdida de la cindad de Bujia, en Africa, ano 1555, referida por un clérigo vizcaino, testigo de vista, "Boletin de Real Academia de la Historia" : Madrid vol. 38 - 39 (1901), 465 - 537.

وهناك وثيقتان غير مطبوعتين ، يمكن لنا أن نتبين من خلالهما التنظيم الداخلى للمدينة ، من الناحية المدنية A. G. S. . Seccion "Guerra Antigua", leg. XXV ; Sec. Camara de Castilla, leg. 48 (1084)

ومن الناحية الدينية A. G. S. Seccion "Guerra Antigua", leg XXI هذا ، وهناك أيضا وثائق عديدة وهامة جدا ، بسيمنكاس ، تخص مدينة عنابة ، قد نسخت فى القرن 19 م : وهى محفوظة بمادريد ، فى المصلحة التاريخية العسكرية ، حسبما ورد فى فهرست مجموعة «أباريسى» : Collection "Aparici" : Catalogo de la Biblioteca Central Militar, 1945, documents n° 855-861

11) راجع : A. G. S. : Seccion "Guerra Antigua" leg. XVI et XVII

العدوانى ـ ؛ هذا وان الدراسة الجدية لهذه الآثار ، تحت اشراف أثريين اختصاصيين ، ربما تبين أن هذه الحصون « الاسبانية » هى أيضا مغربية ، وذلك أنها فى أغلب الاحيان بنيت على أنقاض « ربط » أو حصون مغربية راجعة الى العصر الوسيط ، أو أجريت عليها تحويلات أيام مختلف الولاة المغاربة ، الذين تصدوا بعد ذلك الى مدافعة الغارات الاجنبية ، ولذا ، فيجب القيام بتحقيق الاسطورة المغربية التى نشأت حول « حصون كارلوس الخامس » ، باجراء أبحاث علمية جدية ، لاحلالها منزلتها الحقيقية ، وليست بالوضيعة ، كما ينبغى القيام بنفس العمل فى اسبانيا ، حول سائر « الابراج العربية » التى تنسب الى العرب كلما جهل أصل مبنى أثرى منهار • ويجدر القول بأن آثـــار تلك المبانىء على الشواطىء الجزائرية ، تبلغ عددا وافرا وتكتسى أهمية تدعو كلا من الاسبانيين والجزائريين الى العناية بحفظها ، رغم ما قد تستشعره للمعاصرين مـــن ماض عنيف •

ومن شأن هذه الاعتبارات ، التى تضاف الى احتلال الاسبانيين لعنابة ، أن تؤدى بنا الى سلسلة أخرى من التأملات ، فى نطاق أوسع وأهم ، حول عرض تاريخ تلك الاعتداءات التى تظهر فى تاريخ العلاقات بين الدول ، بصفة عامة ، وبين الدول المتجاورة، بصفة خاصة ، مثلما هو الامر بالنسبة للجزائر واسبانيا • فكيف يكون عرض تاريخ تلك الحروب القاسية بدون المساهمة فى استمرار البغضاء أو العداوة بين القطريـــن ، الى يومنا هذا ، وربما أيضا الى المستقبل ؟ فعـــلى المؤرخين أن يشعروا بمسؤوليتهم فى هذا المجال • ولا ينبغى على الباحث ، فى هذا الصدد ، أن يقدح فى ماضى بلاده ، أو أن ينكر القيم الوطنية التى يتحلى بها بلده وأجداده • الا أن مهمة تهيئة مستقبل سلمى بين الشعوب تتعلق الى حد ما بكيفية عرض المؤرخين لتاريخ بلادهم ، فى يومنا هـــذا •

وهذا يكتسى أهمية خاصة فيما يخص العلاقات بين المسيحيين والمسلمين باسبانيا ، أعنى بلاد الاندلس ، كما يسميها العرب • فليس من السهل عرض تاريخ حروب دامت قرونا ، بين المغاربة والاسبانيين ، اذ يصطدم أحيانا فى ذهن المؤرخ شعور الوطنية المناضلة بنزعة سلمية لا عنفية ، ولا سيما أنه يعلم ، فى كثير من الاحيان ، بالتجربة

التى تمليها عليه المجابهات الحديثة الاسبانية المغربية ، ان الشعوب ليس لها تاثير كبير فى القرارات السياسية والعسكرية التى يتخذها المسيرون ، وخصوصا فى العصر الذى أشرنا اليه ·

وهكذا ، ورغبة فى الوصول الى تفكير مشترك ، فان المؤتمر الاسلامى المسيحى الثالث ، الذى سينعقد بقرطبة ، سيجعل على الارجح ، موضوعه الرئيسى عرض تاريخ تلك الحروب السياسية الدينية ، مع توخى عدم امتداد المواقف العدائية · ومن المؤسف أن تاريخ اسبانيا الاسلامى المسيحى يشتمل على أمثلة عديدة لمجالات تتطلب مزيدا من التأمل · وكذلك التاريخ الجزائرى الاسبانى فى فترة الاحتلال الاسبانى لعنابة ·

ب) هجرة الاندلسيين الى ناحية عنابة فى القرن 11هـ/17م ·

لا يخفى على أحد أهمية المساهمة الاندلسية فى تشييد صرح الحضارة المغربية ، ابان طرد المسلمين « الموريسكوس » ، فى القرن 11هـ/17م · وقد شرع فى دراسة هذا الموضوع ، بصفة جزئية فى أقطار المغرب الاربعة · وهذه الابحاث قد عرفت تقدما ملحوظا بتونس (12) ، بينما هى ، فى المغرب الاقصى ، وافرة العدد مع بعض القصور فى الجانب العلمى (13) ، وفى ليبيا لا تزال فى مرحلتها الاولى ، مع ملاحظة أهمية استيطان الاندلسيين فى درنة وطرابلس وفى ناحية جبل نفوسة (14) · اما

---

12) جمعت البيبليوغرافيا الاساسية وأهم الدراسات فى الكتاب التالى :

M. de Epalza - R. Petit : Recueil d'Etudes sur les Morisques Andalous de Tunisie ; Madrid 1974

ويضاف الى ذلك رسالتان فى اطار الدراسات العليا فى التاريخ بجامعة تونس (يولية1975) من عمل باحثين فى مركز الدراسات الاسبانية الاندلسية . وهما حاليا تحت الطبع · وقد قام هذان الباحثان بالدراستين التاليتين :

A. Gafsi : Estudio economico-social de un pueblo andalusi de Tunez : Qal'at al-Andalus de 1847 à 1881, "Almenara" (Madrid, vol. 9 (1976), (sous presse), et M. Benali : Un pueblo andalusi en Tunez en el siglo XIX : Soliman, "Miscelanea de Estudios Arabes " (Granada), (sous presse).

13) كانت آخر دراسة أحادية هامة حول أندلسيى سلا . من انتاج الاستاذ غونز الفيز بوسطو G. Gouzalvez Busto (تطوان ، 1975) ·

14) فعلا ، لا أعرف الا المعلومات التى وردت فى كتاب : M. de Epalza - R. Petit O. C., pp 180 et 80 وبعض الاشارات المتفرقة فى الرحلات التى قام بدراستها توربى دولوف (C. Turbet - Delof)

بالنسبة للجزائر ، فقد قام الاستاذ بلحميسى بتلخيص الوضع لمعلوماتنا الحالية (15) • الا أن وثائق جديدة قد ظهرت حديثا ، ونأمل أن أبحاثا قادمة ستمكن من تحسين معرفة هذا الفصل الهام للعلاقات الرابطة بين اسبانيا والمغرب (16) •

وفيما يخص ناحية عنابة ، فالمعلومات الحالية محدودة جدا • ولكن ينبغى القيام بجمعها ، فى انتظار اكتشاف أخبار أخرى ووثائق جديدة ، مما يسمح باثراء معلوماتنا •

فمن ذلك مخطوط يرجع الى القرن 11هـ/17م ، محفوظ بتونس ، ويدور موضوعه حول اثبات نسب « أشراف الاندلسيين » المهاجرين الى المغرب (17) • وقد حاول المؤلف المدعو ابن عبد الرفيع الشريف الاندلسى ، أن يبين انتماء عدد كبير من أشراف الاندلسيين الى الرسول صلى الله عليه وسلم ، كما ينتسب اليه أشراف المغرب ، ويذكر بعض الاسر الشريفة التى أجازت من المغرب ـ وخصوصا من عنابة ـ الى الاندلس ، ثم عادت منها ابان طردها (18) • ويؤكد بعض المؤرخين الفرنسيين لذلك العصر هذا النبأ ، حول الاسر الاندلسية المستقرة بعنابة ، فهم يشيرون الى تحول بعض الاندلسيين الذين طردوا من اسبانيا ، من جنوب فرنسا ، متوجهين الى عنابة • (19)

ومن أشهر الاندلسيين الذين هاجروا الى المغرب ، يجدر بنا ذكر مصطفى قردناش، شيخ الاندلسيين بتونس وطرابلس لمدة ما يقرب من نصف قرن ، الذى التجأ الى عنابة ،

---

15) فى مجلة «تاريخ وحضارة المغرب» (الجزائر) ، عدد 11،1974 ، ص 45 ـ 48 •

16) يقوم حاليا أستاذ جزائرى بدراسة الوثائق المتعلقة بأندلسيى مدينة الجزائر فى القرن 19 م ، والمحفوظة فى دار الوثائق الوطنية ، كما سيقوم السيد محمود بوعياد ، مدير المكتبة الوطنية ، بنشر وثائق أخرى تتعلق بأندلسيى تلمسان ، هذا ، وقد عثر السيد ابن عطية ، أستاذ بجامعة الجزائر ، على معلومات هامة فيما يخص مدينة الجزائر •

17) **«الانوار النبوية فى آباء خير البرية»** ، مخطوط بالمكتبة الوطنية بتونس • وقد نشر قسما منه أ. تركى ، تحت عنوان : **وثائق عن الهجرة الاندلسية الاخيرة الى تونس ،** « حوليات الجامعة التونسية » (تونس) ، ج 4،1967 ، ص 23 ـ 82 ، وترجم قسم منه فى الكتاب التالى : M. de Epalza - R. Petit : O. C., pp. 115-127

18) راجع : Ibid, p. 123.

19) راجع: L. Cardaillac : Morisques en Provence, dans M. de Epalza - R. Petit, o. c., p. 94

بعد أن طرد من تونس (20) • وقد قام فى عنابة بالنهوض بزراعة الزيتون الكثيفة ، كما سبق له أن فعل ذلك فى ممتلكاته الزراعية الشاسعة بالجزيرة (Cap Bon) وقـد ورد أحيانا وصفه بكونه أبرز مثال لكبار التجار الاندلسيين فى المغرب ، الذين أصبحوا كبار الملاك القرويين الجدد ، ـ ما يناسب « المعمرين » فى هذا العصر ـ ، فى بلاد المغرب التى استقبلتهم (21) • ومن المهم أن تجرى أبحاث لمعرفة ما اذا كان هذا الاندلسى قد خلف أحفادا بعنابة ، وهل كان لما أدخله من تقنيات زراعية جديدة تأثير استمـــر فى ناحية عنابة • (22)

ج) الازمة التى نشات بين الجزائر واسبانيا فى القرن 13 هـ/19 م ، والتى تسبب فيها أحد سكان جزيرة منورقة ، بمدينة عنابة •

والآن ، ننتقل من الصراعات العسكرية فى القـــرن 10 هـ/16 م ، ومن هجـرات المسلمين فى القرن 11 هـ/17 م ، الى حادث غريب فى العلاقات بين القطرين ، خـــلال تلك الفترة السلمية التى دامت نصف قــرن ، وتمتد من اتفاقيات الصلـــح الجزائرية الاسبانية الى الاحتلال الفرنسى (23) •

20) حول هذه الشخصية ، راجع :
M. de Epalza : Moriscos et Andalous en Tunisie au XVII[e] siècle, dans M. de Epalza - R. Petit, o. c., pp. 152 - 155, 159 - 180 ; J. D. Latham : Contribution à l'étude des immigrations andalouses et leur place dans l'histoire de la Tunisie, dans le même recueil, pp. 32 - 33, 44 - 48, 52, 54, 60.

21) راجع :
D. Brahimi : Quelques jugements sur les Maures Andalous dans les régences turques au XVII[e] siècle "Revue d'Histoire et de Civilisation du Maghreb" (Alger), 9 (1970), 39 - 51, reproduit de nouveau avec introduction de M. de Epalza dans M. de Epalza — R. Petit, o. c., pp. 135 - 149.

22) كان أحد أبنائه ، على الاقل ، مستقرا بتونس بعد نفيه ، حسبما ذكره م. دى ايبالزا راجع : M. de Epalza — R. Petit, o. c., pp. 180 - 181

23) حول هذه الاتفاقية بين الجزائر واسبانيا ، راجع أحدث بيبليوغرافيا فى الدراسات التالية : م. بلحميسى : **صفحات من تاريخ العلاقات الجزائرية الاسبانية : معاهدة 1786 بين الجــزائر واسبـانيا ، سبب ابرامها ، مضمونها ، نتائجها** مجلة «تاريخ وحضارة المغـــرب» (الجزائر) ، عدد 11، 1974 ، ص 5 ــ 22 :
M. de Epalza : Algunas consecuencias del Tratado de Paz Hispano — Argelino de 1786, dans Homenaje a Guillermo Guastavino, Madrid 1974, pp. 443 - 459 ; L. Cara de Aguila : Les Espagnols en Afrique, les relations politiques et commerciales avec la régence d'Alger de 1786 à 1830. Thèse de doctorat de 3[e] cycle, université de Bordeaux III, 1974 ; J. B. Vilar : Relaciones comerciales hispano-argelinas en el periodo 1791 - 1814, "Hispania" (Madrid), vol. 34 (1974), 435 - 442 ; J. B. Vilar : Sociedad espanola en la Argelia otomana (1791 - 1814), "Almenara" (Madrid), vol. 9 (1976), (sous presse).

ولم يكن الامر ، فى الاصل ، سوى مجرد حادث عرضى عادى للمشاكل الادارية التى تنتج عن القرصنة والملاحة فى البحر المتوسط ، حتى فى فترات السلم بين القطرين (24) وفى سنة 1812 م ، حدث أن دخل ميناء عنابة قرصان من جزيرة منورقة ، فى الجـــزر الشرقية (الباليار) . لقد كان ذلك أمـــرا طبيعيا ، اذ العلاقات التجارية بـين منورقة والجزائر كانت جد متواصلة . تحت حماية معاهدة الصلح ، كما بين ذلك كتاب جزائرى حديث ، مفيد جدا (25) . وفعلا ، فقد كان لنشاط المنورقيين دور حـاسم فى اقـــامه معاهدات الصلح مع الدول الاسـلامية ، وذلك بفضـــل مساعى الوزير الاول الكونت دى فلوريدا بلانكا ، ووزير المالية سولير ، القوى النفوذ ؛ وكان هذا الاخـــير منورقيا وقريبا لعدة قناصلة اسبانيين وأوروبيين فى استنبول وطرابلس وتونس والجـــزائر وطنجة وعنابة (26) . هذا ، ولم تخصص دراسات كافية لدور المنورقيين فى المغرب ، الذى سيمتد طويلا ، حتى أيام الاحتلال الفرنسى (27) . ومن جهة أخرى ، لم يكن هذا النشاط منعدم الاثر فى سياسة اسبانيا المتوسطية ، الرامية الى اقامة توازن بين روسيا وبين تركيا وحلفائها المسلمين ، انطلاقا من ميناء ماهون بجزيرة منورقة (28) .

24) توجد وثائق عديدة بخصوص هذه القضية . وهناك ملخص حسن ، يضعهـــا فى السياق السياسى الاسبانى المغربى ، محفوظ ضمن أرشيفات الشؤون الخارجية بمادريد . وقد نشره وترجمه م. دى ايبالزا ، تحت عنوان : **تقرير حول العلاقات الاسبانية المغربية سنة 1812** ، «المجلة التاريخية المغـــربية» (تونس) عــدد 4 1975 ، ص 91 ـــ 96 ، وأيضا :
M. de Epalza : Informa sobra las relaciones hispano-magrebies en 1812, "Almenara" (Madrid), vol. 9 (1976), (sous presse).

25) محمد العربى الزبيرى ، **التجارة الخارجية لشرق الجزائر** ، الجزائر ، بدون تاريخ .

26) راجع :
A. Martel : Luis Arnold et Joseph Allegro, consuls du Bey de Tunis à Bône, Paris 1967, et M. de Epalza - A. Gafsi : Documents sur l'histoire des relations tuniso-espagnoles au XIX^e/XIII^e siècle, "Les cahiers de Tunisie" (Tunis), (sous presse).

27) راجع :
J. B. Vilar : Las Baleares y la expedicion francesa a Argel en 1830, "Mayurqa" (Palma de Mallorca), vol. 13 (1975), pp. 220 - 225
وكذلك كتابه الهام حول نزوح الاسبانيين الى الجزائر أيام الاحتلال الفرنسى فى القرن 19م (جائزة «افريقيا» لسنة 1975) ، (تحت الطبع) .

28) راجع :
A. M. Shop Soler : Las relaciones entre Espana y Rusia en la epoca de Carlos IV, Barcelona 1971 et J. Llabres : Los buques de la marina imperial rusa en Baleares (1769^e- 1914), "Revista general de Marina" (Madrid), n° 182 (1972), 121 - 137.

اذن ، هذه سفينة القرصان المنورقي ، قد رست بعنابة • واذا بـه يتهم بالاستيلاء على قارب من قوارب عنابة ، قبل ذلك بأيام • وفي انتظار نتيجة التحقيق حول مساهمته في الاستيلاء على قارب عنابة ، انتزعت منه وثائقه الشخصية وبعض أدوات الملاحـة ، تحت مسؤولية نائب قنصل اسبانيا بعنابة • وفعلا ، لم يكن للمنورقي يد في الاعتداء ، الذي ثبت بعد ذلك أنه ارتكب من طرف سفينة سردانية • الا أن ذلك المنورقي كان في حالة غير قانونية ، اذ أنه لم يكن يملك من بين رجـال سفينته العـدد المطلوب مـن الاسبانيين ليمكن اعتبار السفينة اسبانية ، وليتمتع بالامتيازات والحماية التي تخولها اتفاقية الصلح الجزائرية الاسبانية • فكان أكثر من ثلثي رجال السفينة من بحارة فرنسا وجنوة وسردانية وصقلية ونابلي • وهذا النوع من الحالات الخارجة عن القانون كان في كثير من الاحيان مصدرا للنزاعات القائمة بين الحكومتين الاسبانية والجزائرية • وكان الجزائريون يطالبون ، بحق وبصرامة ، باحترام القانون في هذه الشؤون البحرية ، التي كثيرا ما كانت غامضة (29) • وقد خشي القرصان المنورقي من سوء مغبة هذه الوضعية ، فانتهز فرصة مرور اسطول انجليزي ، وفر ليلا ، متسببا في قيام أزمة من أخطر الازمات التي حدثت في القرن 19 م بين الجزائر واسبانيا •

وفي الواقع ، فان العلاقات الطيبة التي تلت ابـرام معاهدة الصلح بين الجـزائر واسبانيا سنة 1786 م (30) ، قد تبعها فتور تدريجي ، يرجع بصفة خاصة الى الحـالة المالية السيئة التي كانت تعيشها قنصلية اسبانيا في الجزائر (31) • وقد نتـج عن الوضعية الاقتصادية في عهد كارلوس الرابع ، وعن الفوضى الشاملة التي احدثها الغزو النابليوني لاسبانيا وحرب التحرير التي تلته ، أن بقيت القنصلية سنوات عديدة مـن

29) انظر أمثلة عديدة في المرجع التالي : M. de Epalza : Algunas consecuencias..., pp. 454-455, 457 وتقوم الاستاذة الجزائرية ف. بوذه بتحضير أطروحة حول القانونية التي كانت تخضع لها كل هذه القضايا البحرية الجزائرية الاسبانية ، بعد معاهدة صلح سنة 1786.

30) راجع بخاصة الوثائق الرسمية الجزائرية في المرجع التالي :

M. de Epalza : Notice sur un fonds de documents officiels algériens du XIIe/XVIIIe siècle, conservés à Madrid, "Archives Nationales" (Alger), (sous presse).

31) راجع التقرير المشار اليه في الهامش 24 •

دون أن تحصل على أى اعتمادات مالية ، وأصبحت عاجزة عن تأدية الديون العظيمة الى غرمائها اليهود ، من أسرة بكرى • وهكذا ، لم يفتأ الوضع يزداد تازما حتى مع السلطات الجزائرية نفسهـــا •

وذلك أن قضية القرصان المنورقى كانت الفرصة التى استغلتها الحكومة الجزائرية للاعراب عن استيائها الكلى ازاء الحكومة الاسبانية • فالقى القبض على نائب القنصل ، وحمل مكبلا بالقيود الى الجزائر ، وحكم عليه بالاشغال الشاقة ، وكذلك العشرات مـن الاسبانيين الذين كانوا آنذاك بالجزائر • وطلب من الحكومة الاسبانية أن تسلم القرصان أو أن تدفع مبلغا عظيما من المال كتعويض • وكذلك طلب منها دفع المتأخر من الديون التى عليها للدولة الجزائرية وللمواطنين الجزائريين • وباختصار فقد دامت الازمة سنوات عديدة ، حتى بعد أن ثبتت براءة القرصان المنورقى • وتحتوى الارشيفات الاسبانية ، وحتى أبعدها ظاهرا عن المشاكل المتوسطية ، على كثير من الوثائق حول «ديون الجزائر» الشهيرة ، التى حاولت الحكومة الاسبانية أن تحمل الغرف التجارية تأديتها ، وكذلك مختلف الجماعات المحلية بشواطىء البحر المتوسط ، وحتى فرسان القديس حنا ببيت المقـــدس (32) •

وليس فى وسعنا أن ندخل فى تفاصيل نتائج هذه القضية ، التى اثـيرت بعنابة ، والتى أنهيت فعلا سنة 1827 ، وابان الاحتلال الفرنسى ، بيد أنه قد يكون من المفيـد أن يشار اليها كنقطة هامة للبحث عن العلاقات التاريخية بين القطرين •

الخـــاتمـة :

وفى ختام هذا الحديث حول ثلاث نقاط صغيرة من العلاقات التاريخية بين عنـــابة واسبانيا ، لا يسعنا الا أن نهيـب بالمؤرخين على مواصلة أبحاثهم عن تاريخ الجـــزائر واسبانيا المشترك • ومن المحتمل جـــدا أن هذه الابحاث ستؤدى الى مفاجآت عـديدة ومعلومات هامة حول تاريخ هذين القطرين المتوسطيين •

---

32) راجع مثلا :
M. Revuelta Gonzalez : La bailia de Poblacion de la Orden de San Juan de Jerusalem, Publicaciones de la institucion "Tello Tellez de Meneses" (Palencia) nº 32 (1971), 203 - 237.

عنابة بين اسمها وموقعها وعلاقاتها مع العالم المتوسطي حتى الإحتلال الفرنسي

د . ليلى الصباغ
استاذة التاريخ بجامعة دمشق
ـ سوريا ـ

كلما رن اسم (عنابة) فى سمعى ، تدفق فى خاطرى ، وعلى لسانى بيت شعر لكثير عزة يقول فيه :

وقـد جعلـن بـراق بـدر
يمينـا والعنـابـة عـن شمـال

ولا يلبث أن يجر وراءه بيتين لجرير :

أنكـرت عهـدك غير أنك عـارف
طلـلا بالـوية العنـاب محيـلا
فتعـز ان نفـع العـزاء عكلفا
بالشـوق يظهـر للفـراق عـويـلا

وليست الرابطة فى توارد تلك الخواطر الشعرية سوى لفظ « العناب » على الرغم من أنه ورد مضموم العين تارة ، ومحذوف التاء أخرى ، وعلى الرغم من أن « جريرا » و « كثير عزة » قد قصدا موضعين متباينين فيما بينهما ، ومختلفين عن « عنابة » الجزائر ، الا أنه يحلو لابناء المشرق عادة أن يشعروا أن أسماء الاماكن قد تكون مشتركة بين المشرق العربى ومغربه مع اختلاف مواقعها ، كجزء من رابطة فكر ، ومشاعر ، وتاريخ

ونرات : وقد دفعني هذا التوافق الجزئي في التسمية الى استفتــاء كتب الجغرافيا ، والتاريخ ، ومعاجم اللغة العربية ، والبلدان بحثا عن الاماكن التي تشترك مع (عنابة الجزائر) بالاسم ، وعوامل تسميتها بهذا اللفظ ، وخرجت من تنقيبي في هذا المجال بأمريــــن :

أولهما : أن عديدا من الاماكن ضمن المشرق العربي يشترك مع (عنابة الجزائــر) بالاسم ، أكان بتشديد النون أو تخفيفها ، بضم العين أو فتحها ، وبالتاء في آخر الكلمة أو اهمالها ؛ فـ (عناب) جبل في طريق مكة (1) ، و (عناب) طريق من المدينة الى فيد (2) ، و (عناب) جبل أسود بالمروت (3) و (العناب) صحراء (دون تحديــــد لمكانها) (4) و (العنابة) موضع على ثلاثة أميال من الحسينية في طريق مكة (5) ، و (عنابة) قارة سوداء أسفل من الرويقة بين مكة والمدينة (6) و (العنابة) كذلــك مارة في ديار كلاب بين مستوى الغوط والرقة (شمالي نجد فجنوب غربي العـــراق) كانت تسلك الى المدينة ، وكان « علي زين العابدين » (ابن الحسين بن علي بن أبي طالب) يسكنها ، وأصحاب الحديث يشددونه (7) وقد وردت بالتخفيف (8) و (عنابة السفينة) مرتفع أثري في شمالي سورية قرب نهر الفرات (8) مكرر .

---

1) ياقوت الحموي : معجم البلدان (دار صادر بيروت 1957) ...ج 14 ص 159 (مادتا العناب والعنابة) ابن منظور : لسان العرب (دار صادر بيروت 1957) . ج 5 ص 631 . مادة (عنـــب) .

2) المصدران نفساهما ـ الصفحتان ذاتهما . (فيد) . تقع في منتصف الطريق الى مكة المكرمة من الكوفة بالعراق .

3) المصدران نفساهما . الصفحتان ذاتهما (المروت) . من بلاد الغساسنة في جنوبي بلاد الشام . وكذلك في « النيباج » من جنوبي العراق .

4) المصدران نفساهما . الصفحتان ذاتهما . 5) ياقوت الحموي : المصدر نفسه . الصفحة ذاتهـــا .

6) لسان العرب ج 5 . ص 631 مادة (عنب) .

7) ياقوت الحموي المصدر نفسه ج 14 . ص 160 مادة (العنابة) .

8) لسان العرب ج 5 . ص 631 .

8) مكرر . آثار الفرات . اعداد مديرية الآثار والمتاحف حلب 1974 .

وقد أضاف معجم (تاج العروس) الى ما ذكر آنفا قوله : « وكان يسمع منها بدمشق » (9) وفى الواقع ان فى دمشق محلة تدعى أرض « العنابة » (10) ، تقع قرب (باب السلامة) من أبواب دمشق ، وقد عرفت بهوائها النقى (11) ، وأنه كان فيها دور وقصور (12) وكان يسكنها كبار أعيان دمشق فى القرن الحادى عشر للهجرة · (13)

وقد نسبت هذه المحلة الى ثمر (العناب) (14) الذى زرع شجره فى أرضها قبل

---

9) المرتضى الزبيدى (القاهرة 1306 هـ) المجلد الاول ص 401 مادة (عنب) ·

10) أبو البقاء عبد الله بن محمد البدرى المصرى الدمشقى (ولد عام 847 هـ/1443) نزهة الانام فى محاسن الشام (القاهرة 1341 هـ) ص 270 ـ البورينى ، تراجم الاعيان من أبناء الزمان (دمشق 1959 ، تحقيق صلاح الدين المنجد) ·· ج 1 ، ص 54 ـ الغزى الكواكب السائرة فى أعيان المائة العاشرة (حريصا 1959) ، ج 3 ، ص 40 ·

11) صلاح الدين المنجد : تعليق على كتاب (تراجم الاعيان) السالف ج 1 ، ص 54 الا أن تعليقا على نسخة من مخطوط (الكواكب السائرة) يحدد المكان بقوله : « حارة عنابة فوق باب توما » ج 3 ـ 40 ·

12) أبو البقاء المصرى الدمشقى : المصدر السابق ، ص 270 ·

13) البورينى : المصدر السابق ، ص 54 ·

14) العناب : ثمر معروف وواحدته « عنابة » · ويقال له كذلك (السنجلان) بلسان الفرس ، وربما سمى ثمر الاراك عنابا (لسان العرب ·· ج 5 ، ص 631 مادة عنب) · ويسمى باللغة الفرنسية Jujube وباللاتينية Zigiphum ، وأشجار العناب أشجار شوكية ، ويعرف منه ما يقارب الاربعين نوعا فى المناطق المدارية فى آسيا وأمريكا ، وبعض الانواع يزرع أشجارا تزيينية ، وبعضها الآخر لثمارها · والعناب العادى شجيرة بارتفاع يتراوح بين (2 ـ 8) أمتار · أزهارها صفراء ، وتنبث فى جنوبى أوروبا وآسيا وتزرع فى حوض البحر المتوسط · وثمر العناب يشبه الزيتون ، وهو أخضر فى أوله ، ثم يصبح أحمر اللون بلب أبيض ، وهو حلو الطعم · ويستهلك العناب رطبا ، ومجففا ، ومربى · Grand Larousse Encyclopédique - Art (Jujubier)

ويرى (الطب العربى) فى العناب فوائد شتى ، منها : أنه نافع للشفاء من السعال والربو ، ووجع الكليتين والمثانة ، وأن رطبه أفضل من يابسه · واذا كان نضيجا لين الطبيعة ولا سيما اليابس منه ، واذا كان غضا عفصا حبس الطبيعة ، وسكن هيجان الدم وحدته ··· واذا ما جفف ورقه وسحق ونثر على الاكل نفع فى ذلك نفعا لا يبلغه غيره من الدواء ··· وشرابه بارد رطب ينفع من السعال اليابس والحصبة والجدرى ··· ولقد أشار الى تلك المنافع وغيرها (أبو البقاء المصرى الدمشقى) فى مؤلفه الآنف الذكر (ص 271 ـ 272) ناقلا عن الطبيب (الاسرائيلى) و (الشريف الادريسى) ·

الاسلام على ما يبدو ، ووجد فى الاسلام منه « فرد شجرة فبنى ما حولها وسميت المحلة بها » ، (15) واذا كانت أسباب التسمية قد تطابقت بين (محلة العنابة) بدمشق و (مدينة العنابة) فى الجزائر ، فان عوامل تسمية الاماكن الاخرى المذكورة آنفا ، ومعظمها فى شبه جزيرة العرب · مجهولة لدينا ، وان كان بعضها يدل على معان أخرى لكلمة عناب غير عناب الثمر (16) ·

أما ثانى الامرين اللذين كشف عنهما البحث فهو أن معاجم اللغة وكتب الجغرافيا العربية والرحلات السابقة للقرن التاسع الهجرى/الرابع عشر الميلادى ، والتى وصلت الى علمى (17) ، لم تورد اسم (عنابة) الجزائر ضمن العنابات وكذلك كتب التاريخ ·

15) يبدو أن شجر العناب لم يكن ينبت فى دمشق قبل الاسلام ، وانما كان يجلب الثمر اليها من الخارج ويعزو (أبو البقاء) زراعة العناب فيها الى القصة التالية التى توضح مدى اهتمام الطب بهذا النبات · فقد بين أنه كان فى هذه البقعة من دمشق زمن الروم (البزنطيين) كاهن كان يتعبد فى صومعة بتلك الارض فحصلت له علة أشرف فيها على الهلاك فنزل عنده تاجر من تجار الروم ، ومن جملة متجره خمسة أحمال عناب ، فحلها ونشرها ، وكانت دمشق محلة من العناب ، وليس يوجد بها حبة ، فصار هذا الكاهن يتناول منه وقد طاب له ، فلما أصبح جاء اليه الطبيب فوجده قد نصل من تلك العلة ، ووجد الكاهن فى نفسه نشاطا ، فقال له : ما الذى استعملت البارحة ؟ قال : الشىء الفلانى ، ونسى أن يذكر له العناب ، فقال الطبيب : ولعلك استعملت عنابا ، قال : نعم ، ومن أخبرك بذلك ؟ قال : لعلمى أن علتك هذه لا يبرئها سواه وهو معدوم ، واختشيت أن أعلق خاطرك به · فزرع الكاهن الارض الذى حول صومعته جميعها عنابا ، وتقرب بها فى كل من احتاج منها الى شىء يأخذه (نزهة الانام فى محاسن الشام ، ص 270 ـ 271) ·

16) ارجع الى لفظ (عنب) فى (لسان العرب) و (تاج العروس) · علما أن (عنابا) بفتح العين تعنى (رجلا يبيع العنب) ·

17) ابن حوقل (متوفى حوالى 367 هـ/977) · صورة الارض · (بيروت د· ت) ص 77

ـ المقدسى (حوالى 375 هـ /985) · أحسن التقاسيم فى معرفة الاقاليم ليدن 1906 · ص 216 ـ 226 ·

ـ البكرى (487 هـ/1094) · المغرب فى ذكرى بلاد افريقيا والمغرب (مكتبة المثنى بغداد د· ت) ص 54 ـ 55 ـ83 ·

ـ الادريسى (548 هـ/1153) المغرب وأرض السودان ومصر والاندلس (مقتطفة من كتابه نزهة المشتاق) ليدن 1864 ، ص 116 ـ 117 ·

لا بل ولم تشر الى جانب اسمها المتعارف عليه آنذاك وهو (بونة) أنه كان يطلق عليها كذلك اسم (عنابة) حتى أن الرحالة (البكرى) (المتوفى فى 487 هـ/1094 م) الذى يعطينا أفضل المعلومات عن تمصير (بونة) ، لا يذكر ضمن الاسماء التى تعاورت على المدينة أثناء تطورها ، كمدينة (زاوى) (18) و (بونة الحديثة) اسم عنابة ، وقد يستدل من ذلك أن الاسم العربى (عنابة) جديد نسبيا ، أو أنه لم يكن معروفا أو شائعا فى الحقيقة التى دونت فيها تلك المؤلفات : وتبين « دائرة المعارف الاسلامية » أنه لا يعرف بالضبط متى أطلق عليها هذا الاسم (19) ، ويخمن « براون BROWN » المعلق على كتاب «ليو الافريقى » المترجم للانكليزية ، أن هذه التسمية قد ترجع الى بدايات القرن السادس عشر (20) (العاشر الهجرى) ، اذ أن « ليو الافريقى » (الحسن بن الوزان) ،

- ياقوت الحموى (627 هـ/1229) معجم البلدان (دار صادر : بيروت 1957) ج 4 · ص 512 و ج 14 . ص 159 ـ 160 ·

- العبدرى (آخر القرن السابع الهجرى/الثالث عشر) : الرحلة المغربية ، تحقيق محمد الفاسى (الرباط 1968) ص 37 ـ 281 ·

- التجانى (717 هـ/1317) رحلة التجانى (تونس 1958) · (جاء الاسم متفرقا وعابرا) ·

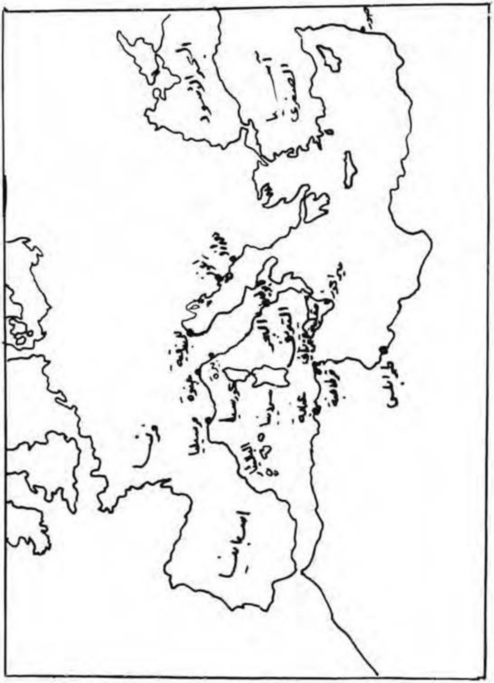
- شمس الدين الانصارى الدمشقى (شيخ الربوة) (727 هـ/326) · نخبة الدهر فى عجائب البحر (المثنى : بغداد د· ت) ص 235 ·

أبو الفداء (732 هـ/1331) · تقويم البلدان (باريس : دار الطباعة السلطانية 1840) . ص 141 ·

18) المغرب : ص 55 يفرق البكرى بين المدينة القديمة وهى مدينة (أفشتين) (أى سانت أغستين) العالم بدين النصرانية وهى على ساحل البحر فى مرتفع من الارض منيع · ويسميها مدينة (زاوى) ـ ويرجع المستشرق (دوسلان) التسمية الى أن المعز بن باديس رابع السلاطين من بنى زيرى قد أعطى هذه المدينة لقريبه (زاوى) بن زيرى Encyclopédie de l'Islam - Art. Bône (وزاوى بن زيرى هو الذى التجأ الى الاندلس بعد أن ثار على باديس ، ثم عاد الى القيروان عام 410 فى عهد المعز (ابن خلدون : ج 6 ، ص 179 ـ 180) ـ وبين مدينة جديدة بنيت على بعد ثلاثة أميال من السابقة وسميت (بونة الجديدة) ، وقد سورت بعد 450 هـ و (شيخ الربوة) فى (نخبة الدهر) ص 235 لا يعترف الا بهذه المدينة ويعتبر أن بناءها قد كان بعد 450 هـ ·

(19) Encyclopédie de l'Islam 2e Edition - Art. (ANNABA).

(20) Leo Africanus - The history and description of Africa (done into english) Its the year 1600 by John Pory - Edition by Dr. Brown (London MDCCCXCVII) III - P. 750.


إسبانيا
طرابلس
سردينيا
كورسيكا

فى وصفه لافريقيا فى مطلع القرن السادس عشر قد أطلق على (بونة) اسم (بلـــدان العناب) ، وعرفها بأنها المدينة التى عمرها المسلمون قرب هيبون القديمة بعد فتحهـم لها ، وعلى بعد ميلين منها ، واستخدموا فى بنائها خرائبها (21) ومع أن ابن خلدون لم يشر فى تاريخه ولا فى مقدمته الى (عنابة) الا تحت اسم (بونة) فان تعبير (بلد العناب) قد ورد فى كتابه · ويبدو من المكان الذى يعطيه هذا الاسم أنه المنطقة التى تقوم فيهـا (عنابة) · فقد بين عند بحثه فى هجرة (بنى هلال) و (سليم) أن (دريد) وهـــم أعز بطون (الاثبج) وأعلامهم كانت (مواطنهم ما بين بلد العناب الى قسنطينة··) (22) وقد تكون هذه التسمية الجديدة قد أطلقها هؤلاء العرب الوافدون مجددا على المنطقـــة خلف (عنابة) لكثرة ما رأوه من شجيرات العناب فى اقليمها (23) ، ثم لم تلبـــث أن انسحبت على المدينة نفسها التى يبدو أنه كان لها تجارة واسعة بهذه المادة (24) ، وكان السكان يجففونها فى الشمس ويتركونها حتى الشتاء (25) ، فكثير من العرب قد استوطن تلك الجهات (26) ، والمدينة نفسها ولاسيما (مرداس) (27) من بنى هلال والكعوب (28) وكذلك (عوف) من بنى سليم (29) هذا مع العـــلم أن سكانها قبل الهجرة الهـلالية السليمية ، وفى مطالعها ـ أى زمن البكرى ـ كانت من كتامة (30) ومن قبائل كثيرة من

(21) Ibid - P. 708.

22) العبر وديوان المبتدأ والخبر · (بيروت « نسخة غير محققة » د· ت) ج 6 ، ص 23· ولقد ورد التعبير (ولد العناب) وصحيحه (بلد العناب) ·

(23) Shaw (Th), Travels or Observation Relating to Several Parts of Barbary and the Levante (Oxford - M.DCC.XXX.VIII "1738" - p. 95).
Pellegrin, Essai sur les noms des lieux d'Algérie et de Tunisie (Tunis 1949) p. 126

24) اسماعيل سرهنك ، حقائق الاخبار عن دول البحار (مصر 1321 هـ) ج 1 ، ص 356

(25) Leo Africanus, op. cit. p. 708.

26) الادريسى ، المصدر السابق ، ص 240 (ولها ـ أى لبونة ـ أقاليم وأرض واسعة تغلبت العرب عليها) ـ مبارك بن محمد الهلالى الميلى : تاريخ الجزائر فى القديم والحديث (الجزائر د· ت) ج 2 ، ص 178 ·

27) ابن خلدون : المصدر السابق ، ج 6 ، ص 33 و Leo Africanus loc - cit. p. 709.

28) المصدر نفسه ، الصفحة ذاتها ·

29) الميلى ، المصدر السابق ج 2 ، ص 158 (وقد تقدمت عوف من سليم حوالى القـــرن الثامن من تونس الى ناحية عنابة) ·

30) ابن خلدون : ج 6 ، ص 148 · 31) البكرى ، المصدر السابق ، ص 55 ·

البربر ومن مصمودة وأوربة (31) فعرب من بنى هلال وسليم عمروا اذا اقليم (عنابة) حتى أن «مارمول» المؤرخ الاسبانى الذى زار الجزائر فى القرن السادس عشر/العاشر الهجرى يقدر أنه قد أصاب الاقليم بين قسنطينة وبونة من مقاتلة العرب المهاجرين الى الجـــزائر نحو عشرين ألفا معظمهم من بطن الحنانشة من رياح ، وذلك من أصل (199500) مقاتل توزعوا فى مجموع الجزائر (32) ·

واذا كان اسم (عنابة) لم يرد فى كتب الجغرافيين والمؤرخين قبل القرن التاسع بل العاشر للهجرة ـ ما عدا ما ذكر عن ابن خلدون سابقا ـ فان المدينة فى الواقع قد نالـت قسطا كبيرا من اهتمامهم ، انما تحت اسم (بونة) ، واسمها هذا ، على ما أشارت اليـه بعض الدراسات (33) قد أتى من اللاتينية (Bona بونا) وهى اختصار وربح للتعبير (هيبون وغيو كولونيا) أى (مستعمرة هيبون الملكية) كما كان يطلق عليها فى العهد الرومانى · وفى الحقيقة لقد عرفت (بونة) فى العصور القديمة تحت اسم (هيبو) · وقد اختلف الباحثون فى لغة اللفظ ومعناه ، فبعضهم يرى أنه فنيقى الاصل ، مشتق من كلمة Ubbôn التى تعنى (خليج أو ملجأ) ، وهذا تفسير عقلانى ينسجم مع واقـع موقع (بونة) ، ومع واقع تسميتها (هيبو دياريتوس) (بيزرت) التى قد تكون معاصرة لها فى النشأة (34) بينما يرى بعض الباحثين الآخرين أن (أوبـون) الفنيقية ترجمها اليونان بـ (أكرا) أى (الرأس) ، وهذا المعنى يتلاءم بدوره مع طبيعة الاماكن الثـلاثة التى أطلقت عليها هذه التسمية ، وهى (هيبـــو أكرا) عنـد رأس (بير غاوارا) فى طرابلس الغرب ، (هيبو أكرا) (بيزرت) عند الرأس الابيض ، و (هيبو أكرا) بونة قرب رأس غارد · بينما ربط فريق آخر بين (أوبون) والجذر العبرى (بايـه أو يافـه Iafeh) وتعنى (كائن جميل) ومنه اسم (يافا) الميناء فى بلاد الشام الفلسطينية · وقد يعنى ذاك الجذر كذلك (حصنا) ، أو (مرصدا للمراقبة) (35) أما الرحالة الانكليزى

---

32) الميلى : المصدر السابق ج 2 ، ص 166 ، مستندا الى
Recherche sur l'origine des peuples - CARETT
المعتمد بدوره على Marmol - Description générale de l'Afrique (h).

(33) A. Pellegrin, op. cit. P. 126.

(34) Erwan Marec - Hippone la Royale Antique - Hippo Régius (Alger 1950 - P. 16)

(35) Pellegrin - loc. cit. P. 125-126.

(شو) فى القرن الثامن عشر فانه يؤيد رأى (بوشار Bochart) (36) بأن (هيبون) آتية من (أوبو) Ubbô و (أوبون Ubbôn) التى اذا ما ربطت بالجذر العربى عنت (مستنقعا مائيا) (37) ، ولعله يقصد كلمة (العبب) و (يعب) و (العباب) وتعنى المياه المتدفقة (38) وذلك لانه رأى أن (انخفاض المنطقة المجاورة لهيبو وغمر المياه الدائم للارض) يجعل ذلك التفسير معقولا ومنسجما مع الواقع (39) .

ومهما يكن التفسير الذى أعطى لاسم هيبو ، فان أغلبية الباحثين تقر أن التسمية فنيقية الاصل ، وأن عناصر وافدة اليها من الخارج ومن بلاد الشام بالذات فى أقصى البحر المتوسط الشرقى ، قد حملته للمدينة ، وهذا يفتح صفحة مثيرة من حياة بونة توضح مدى الصلات التى كانت لهذه المدينة مع العالم حولها ، وأثر موقعها فى تلك الصلات .

و(بونة)التى أتم العرب المسلمون فتحها على يد (حسان بن النعمان) وفى عهد الخليفة الاموى (عبد الملك بن مروان) (40) (65 ـ 86 هـ/684 ـ 705) ، مدينة يبدو أنها قديمة جدا على الساحل الافريقى المغربى المتوسطى والاوسط ، بل هى « عميدة المدن القديمة فى الجزائر » (41) . فهى واحدة من أولى النزلات (الاسكالات) على الساحل الافريقى الشمالى ، التى لابد أنه قد أقامها فى ماض بعيد ، بحارة مغامرون وجريئون ، كمحطة على طريق انطلاقهم ورحلتهم الطويلة من المشرق الى بلاد (التارتيسيين) الغنية بالفضة (42) ويخمن بعض البحاثة المعاصرين أن هؤلاء المغامرين قد يكونون من الايجيين

36) لاهوتى بروتستنتى فرنسى (1559 ـ 1667) كتب الجغرافيا المقدسة géographie sacrée
(37) Shaw (th) op. cit. p. 97.
38) لسان العرب ج 2 ، ص 205 مادة (عنب) .
(39) Shaw : Loc. cit.
40) ابن خلدون ، المصدر السابق ج 4 ، ص 187 . ويشير الى أن الفل من اعداء المسلمين قد انحازوا الى (باجة) و (بونة) وتحصنوا بها بعد سقوط قرطاجنة فى يد حسان ، الا أن (ليو الافريقى) يؤكد أن فتحها قد تم فى عهد الخليفة الراشدى (عثمان ابن عفان) (23 ـ 35 هـ/643 ـ 655) . وأن المسلمين قد خربوها 708 . op. cit. - P.
(41) Marec - op. cit. - Avant-propos P. 11.
42) كانت مدينة (تارتيسوس Tartessus) (وتقع عند مصب الوادى الكبير فى بلاد الاندلس) محطة الزامية على الطريق الغربية للتصدير ، والتى قد يكون (اليونان) قد طرقوها منذ القرن الرابع عشر ق م. الا أن (الفنيقيين) جابوها حتما فى القرن الثانى عشر ق م. ، ثم (الفوكيين) فى القرن السابع ق م. ، واخيرا وصلها (القرطاجنيون) الذين طردوا اليونان من هذه الاجزاء Grand Larousse Encyclopédique Art. (TARTESSUS)

الكريتيين (شعوب البحر) الذين كانت لهم علاقة مع الليبيين سكان البلاد الاصليين ـ كما أسماهم اليونـان ـ أو (الامازيغ) كما كانوا يسمون أنفسهم • ويفترض بعضهـم أن تأسيسها قد يرجع الى الالف الثالثة ق م ، (43) • واذا كان هناك شـك حول تأسيس الايجيين الكريتيين لها ، فانه من المؤكد أنه كان للفينقيين أهل بـلاد الشـام الساحلية مؤسسة فنيقية فيها ، ومنذ القرن الثانى عشر ق م ، أى قبل أربعة قرون من رسو الاميرة (ديدون) الصورية عـلى السـاحل الافريقى وتأسيسها مـدينة (قرطاجنة) بحسب الاسطورة •• (44) فموقع بونة اذا كان من أولى المواقع على الساحل المغربى ـ الامازيغى التى استلفتت أنظار شعوب المشرق الماخرة عبـاب البحر المتوسط الى أقصى غـربه ، محاذية لشواطئه ، وباحثة عن اقتصاد أوفر ، ومعرفة أو سع ، ومغامرة أخصب •

وفى الواقع ان موقع بونة أو هيبون أو عنابة اليوم يستوقف الملاح الذى خبر دقائق الساحل الشمالى الافريقى وطبيعته ، بعبوره من شرقه الى غربه ، ومن غربه الى شـرقه ، والذى تفهم البحر المتوسط ورياحه ، وتياراته ، وأعماقه ، وشواطئه الاخرى ، والذى يحلم بآمال توسعية فيه ، وباقامة صلات فى أرجائه فبونة تقع :

أولا : قريبا من مدخل أو مخرج باب صقلية أو بتعبير أدق على سيف الحد الغـربى لذلك الجزء من البحر المتوسط القائم بين افريقيا وصقلية والذى لا يحمل اسما (45) • ذلك البحر بعتباته الغنية بالاسماك والمرجان ، والاسفنج ، وجـزره الصغيرة المتناثرة ككركنة ، وطبرقة ، ومالطة ، وجربا ، والتى يكون طريقا من الطريقين البحريين اللذين لابد للسفن الوافدة من المشرق أو من المغرب أن تعبر أحدهما (46) وحدود هذا البحـر تتمشى مع الجسر الجيولوجى القديم الممتد من صقلية الى افريقيا ، والمحصور فى الشرق

---

(43) Marec - Loc - cit. P. 16.

44) ان (ديدون) هى الاميرة الفنيقية من مدينة (صـور) الشامية التى تنسب اليها أسطورة انها هربت من مدينتها مع اتباعها ، ورست بسفينتها فى موقع (قرطاجنة) وطلبت من سكانها (الليبيين) أن يمنحوها أرضا تقيم عليها تكون بمساحة جلد ثور • فعملت على تقطيع ذلك الجلد شرائح رفيعة حتى تكون منه أكبر مساحة ممكنة •

(45) Braudel : La Méditerranée et le monde méditerranéen à l'époque de Philippe II (Paris 1949) p. 83.

46) ان الطريق الثانى هو عبر مضيق مسينا

بين خط يمتد من (طرابلس الغرب) الى (سيراكوز) فى صقلية ، وفى الغرب بين بونة الى(ترابانى)فيها • وفى هذا البحر والى الشرق من بونة تقع أرصفة المرجان الغنية الممتدة على كل شرقى الجزائر وشمالى تونس والتى أعطت الساحل اسم (ساحل المرجان) (47) والتى أفاض الرحالة الجغرافيون العرب بوصف بعض محطاته كـ (مرسى الخرز) الذى كان يستخرج منه فى القرن الرابع للهجرة/العاشر للميلاد/وأيام الحكم الاسلامى فى هذه البقاع ، أجود المرجان المعروف ، والذى يقع قريبا من بونة والى شرقها ، كما بينوا كيفية استخراجه ، ومدى النشاط فى الحصول عليه (48) ، وتلك الارصفة المرجانية هى التى أسالت لعاب الاوروبيين مذ بدأ نشاطهم التجارى يقوى فى البحر المتوسط فى القرن الثانى عشر ، ولا سيما لعاب الصقليين الذين يكونون الحافة الثانية من هذا البحر ، والنابولونيين والجنويين ، والبيزيين والكورسيكيين ، الذين كانوا يطلون عليه عبر اجتيازهم البحر التيرينى فى جنوبه ، فتقابلهم بونة والارصفة المرجانية قربها • وقد ازدادت شهيتهم له فى القرن الخامس عشر ، ولا سيما جنوة التى كانت تعمل على

47) أنظر Grand Larousse Encyclopédique (GLE) art (Corail) (Vol. 3, p. 493).

48) أنظر ابن حوقل ، المصدر السابق ، ص 77 ، البكرى ، ص 55 ، الادريسى ، ص 116 معجم البلدان ج 7 ، ص 106 ، شيخ الربوة ، نخبة الدهر ، ص 235 •

لقد وصف (الادريسى) مرسى الخرز بقوله : مدينة صغيرة ، عليها سور حصين ، ولها قصبة وحولها عرب كثير وعمارة أهلها لها على صيد المرجان • والمرجان يوجد بها كثيرا ، وهو أجود جميع المرجان الموجود بسائر الاقطار ، مثل ما يوجد منه بمدينة سبتة وصقلية • ويقصد التجار من سائر البلاد الى هذه المدينة فيخرجون منه الكثير الى جميع الجهات ويعمل به فى كل الاوقات الخمسون قاربا والزائد والناقص ، وفى كل قارب العشرون رجلا وما زاد وما نقص •

ويعطى (ياقوت الحموى) صورة عن تقنية صيد المرجان ، يدل على طول باع العرب فى هذا المضمار • فيقول : « يتخذ لاستخراجه صليب من خشب طوله قدر الذراع ثم يشد طول ذلك الصليب حجر ، ويشد فيه حبل ، ويركب صاحبه فى قارب ويبعد عن الساحل قدر نصف فرسخ • وفى مقر تلك المسافة ينبت المرجان ، فيرسل ذلك الصليب فى الماء الى أن ينتهى الى القرار ، ثم يمر بالقارب يمينا وشمالا ومستديرا الى أن يعلق المرجان فى ذوائب الصليب ، ثم يقتلعه بقوة ويرميه اليه ، فيخرج وقد علق فى ذلك الصليب جسم مشجر الى القصر ما هو ، أغبر القشر ، فاذا حل عنه قشره ، خرج أحمر اللون فتفصله الصناع •

استخراجه من قرب بونة (49) ، والتى حصلت على امتياز احتكاره فى جزيرة طبرقة على الساحل التونسى فى القر ن السادس عشر (50) ، فالمرجان (51) لعب دورا هاما فى علاقات دول البحر المتوسط الاوروبية ببونة بل اباالجزائر كلها ، ولا أدل على ذلك فى العلاقات الفرنسية الجزائرية فى القرن السادس عشر/العاشر هـ التى بداياتها الرسمية حصول شركة كورسيكية ـ فرنسية على امتياز باستثمار المرجان قرب بونة عام 1560 ، واقامة هذه الشركة لـ (حصن فرنسا Bastion de France) ، وما نجم عن ذلك من تواصل العلاقات بين توتر واسترخاء ، وعنف وسلام • (52)

وهكذا فوقوع بونة لصيقة بأرصفة المرجان الممتاز النوع ، وفى الوقت ذاته فى مداخل البحر البترينى الجنوبية (53) ومخارجه ، أو كما كانت تسميه وثائق صقلية بقنوات كورسيكا وسردينيا ، جعلها محط أنظار جميع البلدان التى تنفتح عليه كجنوة ومرسيليا فى أقصى الشمال ، وطوسكانا فى الشمال الشرقى ، وكورسيكا ، وسردينيا فى الغرب •

وبالاضافة الى هذا فان بونة تقع فى مطلع التيه البحرى الذى يمتد من الشواطىء الصقلية والسردينية الغربية حتى البالسيكار فاسبانيا وأقصى المغرب والذى يمكن

(49) Leo Africanus, op. cit. III. p. 709.

50) يذكر (فيان G. Wian) فى كتابه (تونس la Tunisie) P. 106 أن هذا الامتياز قد أعطى للجنويين مقابل تحريرهم غازى البحر (طرغد) الذى كان قد أسر من قبل (دوريا) عند مهاجمته لجزيرة كورسيكا الجنوية وقد كان هذا الامتياز الذى حصل عليه آل اللوميلينى Lomellini والغريمالدى Grimaldi سببا فى ثرائهم الفاحش • وقد استطاعت جنوة تأمين احتكاره بفضل أسطول صياديها المهرة ، ومراكز صناعته فيها ، واهتمام تجارها به • اذ كان حليه ثمينة لها أسواقها اللهفة فى أقصى آسيا ، وكانت تصدره عبر طريق مصر ــ الشرق الاقصى وتأخذ مقابله التوابل • وكانت البندقية تتاجر به كذلك مع الليفانت وتطلبه A.D.S. Venise, Sen, Secreta "Constantinople, 3/c. 27 août 1561"

51) هناك وثائق عديدة ودراسات حول المرجان استثماره • أنظر تعليق (الدكتور براون) على كتاب (ليو الافريقى III. p. 750-51 و (بروديل) p. 335, N 7, op. cit.

52) أنظر :

— Paul Giraud, Les origines de l'empire français nord-africain. Paris (1939).
— F. Charles Roux, France en Afrique du Nord avant 1830 (Paris M.C.M.XXXII).

53) الى هذا المعنى يشير (البكرى ، ص 55 عندما يقول عن « مرسى الخرز » قرب بونة (ان مقطعها بقرب من جزيرة سردينيا بينهما نحو مجريين) (المجرى : مائة ميل بحرى • الميلى ج 2 ، ص 143) •

تسميته ببحر سردينيا ، وقد كان صعب الاجتياز لعدم توافر شواطىء صالحة للملاحة ، ومراسى أمينة تحمى المراكب من الهبات العاصفة لرياح « الليفانت » و « النورد » (54) (الشرقية ، والشمالية الغربية) . فبونة هى المحطة القريبة التى على السفن المتوجهة من المشرق الى المغرب عبر هذا التيه أن تمر أو ترسو فيها ، وهى المحطة الآمنة التى لا بديل عنها ، والتى تفتح ذراعيها مرحبة بالسفن الوافدة من المغرب واسبانيا والباليار قبل متابعتها طريقها الى المشرق .

ثانيا : وبالاضافة الى تلك الخصائص لموقع بونة ، فان التركيب الجغرافى النادر له ، على شاطىء فقير بالملاجىء الطبيعية من بحر عاصف ، جعلت عابر البحر يأمن اليها ، والمطل من البر على البحر يمسح البحر كله منها بنظرة واحدة (55) . فوجودها على خليج واسع بين رأسى (غارد) و (روزا) ، وانفتاح هذا الخليج نحو الشمال الشرقى ، وانتصاب جبل ايدوغ شامخا (1008 م) الى شمالها الغربى ، وحمايتها بذلك من الرياح الغربية والشمالية السائدة جعلتها واحدا من المراسى الآمنة القليلة على الساحل الشمالى الافريقى (56) ، هذا وان الضباب (وادى السيبوس) فى أعماق ذلك الخليج ، وربطه بين بونة والداخل بفتحه لها مع روافده ، خلفيتها القسنطينية من البنذ الجبلية والسهول المرتفعة ، الزاخرة بالغابات الصنوبرية فى العصور السالفة لصناعة السفن ، والتى كانت تعج فى غابر الايام بحيوانات متنوعة جدا استفادت منها روما فى ملاعبها ، وجعلت البقعة مرتعا للقنص . ولبونة سهل خصيب جدا وهو السهل الوحيد فى أقصى شرقى

(54 Braudel, op. cit. p. 100

(55 Shaw, op. cit. p. 97

(56 — Marec, op. cit. p. 16 : Encyclopedia Britannica (E.B.) (1970 ed.) Item. Annaba.
— Nagel, Algérie (Encyclopédie de voyage) Genève 1974. p. 323 - Shaw, loc. cit.

الا أن اسماعيل سرهنك (المصدر السابق ج 1 ، ص 356) الى جانب اثباته أنها (شبه فرصة عظيمة بين رأسين ممتدين فى البحر الى مسافة بعيدة) فانه يؤكد انها ليست بمرفأ أمين . ويستدل على ذلك بأنه تعطل فيها عام 1835 أربع عشرة سفينة منها ابريق حربى) . وقد ينسجم حديث سرهنك هذا ، مع ما أشار اليه الرحالة (شو) فى القرن الثامن عشر من أن طرح الرسوبات النهرية فى مرسى الميناء واهمال تنظيفه قد جعل المرسى أقل امانة وملاءمة من السابق (P . 98) هذا بالاضافة الى أن ابن خلدون فى مقدمته ص قد أكد على عدم أمانها من الاعداء .

الجزائر المطل على البحر ، اذ من المعروف أن جبال الاطلس التلى الشرقى تتزاحم لتقترب منه (57) وهو مروى ريا حسنا بمجارى مياه لا تنضب صيفا • فوراء عنابة اذا عمـــق أرضى غنى ، زراعة ومرعى ، وثروات معدنية (58) ، وهو الذى قال عنه الكاتب الفرنسى « بيير لوتى » (1850 ـ 1923) • « انه أكثر الاقاليم خضرة وازهارا ومرعى » (59) • وقد انتزعت بونة بتكوينها الجغرافى هذا ، وبخصب خلفيتها ، اعجاب كل من زارهـــا من الكتاب العرب المسلمين ، والرحالة الاجانب ، على الرغم من أن بعضهم قد رآها وهى ليست فى أفضل أحوالها ، وبونة بالنسبة لابن حوقل فى أواخر القرن الرابع للهجرة العاشر للميلاد ، مدينة مقتدرة ليست بالكبيرة ولا بالصغيرة ، فيـــها خصب ورخص موصوف ، وفواكه وبساتين قريبة ، وأكثر فواكهها من باديتها ، والقمح بها والشعـير فى أكثر أوقاتها كما لا قدر له ••• ويزرع بها الكتان ••• وبها من العسل والخـــير والمير ما تزيد به على ما داناها من البلاد المجاورة لها ••• وأكثر سوائمهم البقر ، ولهـم اقليم واسع ، وبادية ، وحوزة بها نتاج كثير ، وقل من بها تفوته الخيل السائمة للانتاج (60) • و (بونة) فى عهد (البكرى) أى فى الربع الاخير من القرن الخامس للهجرة/الحادى عشر للميلاد ، وبعد قرن من حديث (ابن حوقل) مؤلفة مـن مدينتين قديمة وحديثة ، وهى « ذات تمر وزرع •• كثيرة اللحم واللبن ، والحـــوت والعســــل ، وأكثر لحمانهم البقر ••• » (61) • وبقربها « ماء سايح يسقى بساتين وهو مستنزه حسن » (62) •

(57 Alazard, Bencheneb, Boyer et autres, Initiation à l'Algérie (Paris S.D.) Chap. I p. 26.

58) لقد أشار معظم جغرافى العرب الى غناها بمعدن الحـديد (معجم البلدان ج 4 ، ص 512) (الادريسى للمصدر السابق ، ص 116) (ابن حوقل : صورة الارض ، ص 77) (المقدسى المصدر السابق ، ص 226) (أبو الفداء المصدر السابق ص 141) وهى لا تزال الى الآن تشتهر باستخراجه من مناجم (أوينزة) • ويضاف اليه اليوم (الفوسفات) مـن الكويف ، والزرنيخ من منجم (كاريزاس) والتونفتن كذلك • أنظر من أجــل النشاط الصناعى فى عنابة اليوم •

E.B. item (Annaba) - Grand Larousse. Ency. art. (Algérie) et (Bône).

59) استفادة من Marec, op. cit., p. 16

60) المصدر السابق ، ص 77

61) المغــرب ، ص 55

62) المصدر نفسه ، الصفحة ذاتها

وعلى الرغم من أن بونة كان قد أغار عليها النورمان واحتلوها بعد نزع صقلية من المسلمين وذلك عام 548 هـ/1154 ، منتهزين فرصة قضاء الموحدين على مملكة بجاية الحمادية ، وعلى الرغم من « ضعفها وقلة عمارتها » (63) فى عهد عاملها (الحارث الحمادى) النائب عن (روجر النورمندى) ، فان (الادريسى) يصفها كما وصفها (ابن حوقل) بأن « بها من أنواع الفاكهة ما يعم أهلها ، وأكثر فواكهها ، من باديتها ، والقمح والشعير فى أوقات الاصابات .. كثير جدا ــ ويزرع بأرضها الكتان، والعسل بها موجود ممكن وكذلك السمن ، وأكثر سوائمهم البقر ، ولها أقاليم وأرض واسعة ... » (64) .

ورسم أوصافها (أبو الفداء) فى القرن الثامن الهجرى نقلا عن (ابن سعيد المغربى) (685 هـ/1286) . وكانت آنذاك تحت حكم الحفصيين ورثة الموحدين ــ بأنها « مدينة جليلة ، عامرة على البحر ، خصبة الزرع ، كثيرة الفواكه رخية ... ويزرع بها كتان كثير .. وهى على آخر سلطنة بجاية وأول سلطنة افريقيا » (65) .

وفى مطلع القرن العاشر/السادس عشر يصف (ليو الافريقى) خلفيتها الغنية بقوله : « ووراء المدينة يمتد سهل فسيح واسع طوله (40) ميلا، وعرضه عشرون وبعض الاميال ، غنى بالقمح ، ويسكنه بعض العرب من مرداس ، ولدى هؤلاء كمية كبيرة من الابقار ، ويحملون كمية كبيرة من السمن الى بونة .. » (66) .

وبعد قرنين ونيف من (ليو الافريقى) هبطها الرحالة الانكليزى (شو) أى فى القرن الثانى عشر للهجرة/الثامن عشر وبين أن « موقعها ممتاز للتجارة والمبادلات ، وللصيد واللهو .. وتتمتع بهواء صحى ، ولها ميناء واسع ، وقربها جبال متنوعة مملوءة بالاشجار وسهول تجتازها الانهار» (67) ... ويجمع كثير من العناب من جوارها و « كمية كبيرة من القمح والجلود تحمل منها كل عام » (68) .

63) المصدر السابق ، ص 117
64) المصدر نفسه ، الصفحة ذاتها .
65) تقويم البلدان ، ص 141
66) Op. cit., p. 709
67) Op. cit., p. 97
68) Ibid, p. 96

ان موقع بونة مميزاته الخارجية والداخلية الآنفة الذكر ـ أى بكونها تطل على مداخل القنوات البحرية الرئيسية فى البحر المتوسط الغربى والشرقى بل وفى مجراها ، مع غناها بمنتجات البحر كالسمك والمرجان ، وبتكوينها الطبيعى الفذ كميناء محم وبخلفية برية عميقة وغنية اقتصاديا ـ قد رسم فى الواقع خطوط علاقاتها مع العالم المتوسطى خارج عالمها المغربى الخاص ·

فوقوع بونة على أقصى حد بحر (صقلية ـ تونس) جعلها تعيش محورى العلاقات اللذين شقاه عبر التاريخ وهما محور المشرق والمغرب وبالعكس ، ومحور الشمال والجنوب وبالعكس ، بكل ما فيهما من أطر سلام وأطر حرب ، ومن تأثيرات بشرية ، وحضارية ، ففى العصور القديمة وكفة القوة والحضارة فى المشرق أرجح ، وحركة الانتقال منها الى المغرب أنشط ، اذا « بهيبو » بونة تتلقف منه البشر والتأسيس والاسم حيث كانت للوافدين منهم محطة عبور وتجارة ، وعندما أسست (قرطاجنة) من المشرق أيضا ، وليس بعيدا عن يمينها ، فانها تتوأمت معها ، وربطت مصيرها بمصيرها ، وأخذت عاداتها وتقاليدها ، ودينها ولغتها (69) فالمدينتان من منشأ فنيقى واحد ، وأمانيهما التجارية منسجمة ، ويجمعهما بحر واحد ، وموقع متشابه ، ولابد أن (هيبو) قد أسهمت مع قرطاجنة فى بناء تلك الامبراطورية الواسعة من المحطات التجارية التى زرعتها المدينة الفنيقية المعتزة بذاتها على سواحل صقلية ، وكورسيكا ، وسردينيا ، أو بتعبير آخر فى ركوب محور الفيض من الجنوب نحو الشمال عبر بحر صقلية ـ افريقيا ، فالبحر التيرينى ، فالتيه البحرى السالف الذكر واستيعاب ذلك الشمال · ان محور الشمال ـ الجنوب وبالعكس فى العلاقات فى بحر صقلية ـ افريقيا كان دائما أقوى وأعنف من محور العلاقات المشرقية ـ المغربية لتقارب طرفى البحر ، وسهولة التواصل، والتباين الحضارى والبشرى ، وللمطامع الاقتصادية لكل طرف من أطراف هذا البحر بالآخر ، عبر التاريخ كان الطرف الاقدر هو الذى ينساح على الطرف الاضعف وكأنه يود أن يحقق وحدة الطرفين بأن يجمع فى صعيد واحد ، وتحت سيادة واحدة ، قمح صقلية وجبنها مع قمح بونة وسمنها ، وطون صقلية و نبيذها الى زيت جربا ، وما

(69 Marec, op. cit., p. 19

يقدمه الساحل ا لافريقى المقابل من مرجان وجلود وصوف ، وأبقار صغيرة ، ورخـــام جميل ، وحديد من منتجاته الخاصة ، وما يصل اليه من أعماق افريقيا من تبر وعـاج ، وجلود وعبيد . بل قد ينساح هذا التيار ـ اذا كان يسير باتجاه الشمال ـ نحو أقصى شمال البحر التيرينى ليستوعب نحاس سردينيا وفضتها (70) .

ومثلما عاشت (هيبو) حياة ازدهار (قرطاجنة) ، بل وأسهمت فيها ، فانها عاشت صراعاتها عندما ارتد محور الشمال ـ الجنوب عليها فى بحر صقلية افريقيا ، وفى البحر التيرينى حيث أغلقت مرسيليا فى وجهها موانى بلاد الغال واسبانيا ، وبقيت كورسيكا فى يد الاتيروسكيين ، وشرعت صقلية تتخلص من قبضتها ، وروما تتحداها وتحرض مستعمراتها عليها ، وعندما خاضت قرطاجنة حروبها البونية ، قدمت خلفية (هيبون) النوميدية لها فرسانها ا لرائعين الذين أرهبوا ايطاليا فى مطالع تلك الحـروب . وخلال ذلك الصراع الشمالى الجنوبى انبثقت مملكتا (نوميديا) المحليتين . ويبدو ان (هيبو) قد اختيرت بعد معركة زاما (201 ق م) من قبل احدى المملكتين لتكون مقرا مفضـلا لملوكها يطلون منها على مواقع الصراع . وقد تكون منذ ذلك الوقت قد غـــدت عاصمة لنوميديا الشرقية (مملكة ماسيل) التى كان رئيسها (غولا) جد (ماسينيسا) (71) ، وقد تكون أكتسبت صفة « الملكية Regius » منذ ذلك الوقـــت ، ولكن (بونـة) عاشت أوقاتا عصيبة خلال تلك الفترة لان الصراع كان لا يزال قائما وكانت هـى فى لبه ، وظلت كذلك حتى سقطت مدينة هانيبعل عام 146 ق م ، ونالت (هيبو) استقلالها الاول تحت صولجـان (ميسيبسا) عـلى النقيض مـن تسميتها (هيبـــو دياريتوس) (بنزرت) التى هدمت مع قرطاجنة وضمت الى (اقليم افريقيا الرومانى) .

ودام هذا الاستقلال الذى حملها اسم (هيبون الملكيةHippo Regius قرنا ، الا أنهـا ظلت وفية لعلاقاتها المشرقية السابقة مع قرطاجنة أو بتعبير أدق ما خلفته تلك العلاقات من آثار اجتماعية وفكرية بخاصـــة»(72) .

(70) Ch. André Julien, Histoire de l'Afrique du Nord (Paris 1966) I. p. 82. (70

(71) Marec, op. cit., p. 20.

72) لقد بقيت (هيبون) تتكلم البونية وتحتضن المفهومات السامية عن الاله الواحد
Ibid

واذا كان موقعها قد فرض عليها صراع قرطاجنة ـ روما ، فانه عاد ليفرض عليها صراعها مع روما نفسها التى تغلبت على ملكها (يوغرتا) عام 104 ق م ، ووضعت نوميديا وعاصمتها (هيبو الملكية) تحت نصف تبعية لروما ، ودخل حكامها فى صراعات السلطة فيها وفى خليجها سقط القائد العادل البونى (سيبيون) وحليفها ، صريع سيفه ، عندما فاجأه أسطول (سيتيوس) قائد يوليوس قيصر وأحاط بسفنه ، وفيها لاقى ملكها (جوبا الاول) المصير نفسه عام 46 قم (73) ، واستوعب محور الشمال الجنوب ، وحول (يوليوس قيصر) مملكة جوبا الى (مقاطعة افريقيا الجديدة) وجعل حدها الغربى غربى (هيبون) .

وفى ظل السلام الرومانى ، تفاعلت الحضارة القرطاجنية ـ النوميدية مع الرومانية لتجعل من (هيبون) مركز حضارة يانعة استغلتها روما لصالحها ولا سيما فى المنحى الاقتصادى ، فارتقت زراعتها ، وتدرجت زراعة الاشجار المثمرة على سفوح الجبال المجاورة ، كالتين واللوز ، والرمان والعناب الذى يبدو أنه بقى منتوجا أساسيا للبلاد عبر العصور ، وتقدمت غابات الزيتون حتى مداخل المدينة ، وانتشرت معاصر الزيت فى أركان الاقليم (74) ، لقد كانت هيبون حديقة على حافة البحر ، فيها الفيل الصغير ، والخيول النوميدية التى كانت تربى لتنال قصب السبق على ملاعب روما ، وفيها يربى الثور الصغير الذى لا زالت منطقتها تشتهر به الى الآن ، وكذلك الغنم الذى كان مدار تجارة هامة ، ولقد اشتهرت (هيبون) أكثر ما اشتهرت بكرومها وحبوبها (75) ، كما هو حال عنابة اليوم ، وكانت مركز التصدير الاول للمقح الى روما ، ومن ثم فقد كانت مقر المكلف بشراء القمح لتموين روما (76) ، وظلت تلعب دور المصدر للقمح فى العصور الحديثة أكان سرا أو جهرا ، وكما كان المرجان عنصرا هاما فى علاقاتها مع العالم المتوسطى الاوروبى المقابل لها ، فان القمح لعب دورا مماثلا ان لم يكن أكثر

(73) Ibid, p. 23 - Julien, op. cit. I. p. 119 - 122

(74) Marec, p. 25.

(75) Ibid.

(76) Albertini, Hippone et l'administration des domaines impériaux. Bulletin de l'Académie d'Hippone. n. 35 - 1925, p. 57 - 99.

أهمية (77) • فأوروبا المتوسطية الجائعة لـــه كانت تسعى اليه والى مناطقه بشتى الوسائل والطرق ، فمشكلة القمح قضية هامة فى حياة البحر المتوسط وعلاقاته (78) .

ولم تكن (هيبون) فى علاقاتها مع روما تزودها بالحبوب ، والعنب ، وغيرها مـــن المواد الغذائية بل انتزعت منها روما كل ما كانت تنتجه خلفيتها • فبدلا من سفـــن صور وصيدا المشرقية ـ المغربية ، كانت مراكب رومـــا هى التى تغـدو وتروح بين الشمال والجنوب حاملة رخام فيلفيلة ، والبورفير الاحمر والاخضر ، والاخشاب الثمينة والعاج والحيوانات المفترسة (لالعاب السيرك) •

ويبدو أنه فى عهد (تراجان) سحب اليها الماء بقناة من منابع الغابات العليا ، وقد تكون نهايتها هى (« بير النثرة » المنقورة على ضفة البحر فى حجر صلد) التى أشـار اليها البكرى وكان الناس يشربون منها فى عهده (79) ، ويبدو كذلك أن هيبون قـد عمرت على نمط المـدن الرومانية ، فحـــوت حمامات ومسارح ، وزينت بالفيسيفساء والتماثيل ، وهى ما كشفت الحفريات المعاصرة عنه (80) •

ولم تغرق (هيبون) تحت تأثير الحضارة المادية الغربية ، بل عـــاد تيـار المشرق المغرب اليها يبعث ويتجاوب مع الخلفية الكامنة ، جاء هذه المرة فكريا عقائديا مماثـــلا بالمسيحية (81) ، وقد لاقت فيها هذه الديانة تربة خصبة ، ونفوسا مستعدة للعقيدة الجديدة اذ أن السكان الاصليين الذين تمازجوا مع العناصر السامية الفنيقية تغلغل فى ذاتهم مفهوم الاله الواحد ، ومبادىء المساواة ، وكان اعتناق (هيبون) للمسيحية بعـد الوثنية بمثابة تحد لتيارات الشمال الاوروبى ، أو هو رد فعل عميق للعلاقة المشرقية المغربية على العلاقة الشمالية الجنوبية ، وفى الوقت ذاته تحرك قومى ، وبالفعل فقـــد

77) أنظر : مذكرات الحاج أحمد الشريف الزهار ـ تحقيق المدنى (الجزائر 197) ، ص 65 Ch. Roux. op. cit. p. 66

78) أنظـــر Braudel. op. cit. p. 277 - 284

79) المصدر السابق ، ص 55 و 83

80) أنظر فى Marec. op. cit. p.

81) أنظر حول انتقال المسيحية وانتشارها فى شمالى افريقيا الميلى ، المصدر السابق ج 1 ص 219 ـ 223

وقعت (هيبون) فى صراع عقائدى مع روما ، التى شنت حملة اضطهاد دينى ضـــدها كان من ضحاياها عديد من مسيحيها أيام حكم الامبراطور فاليريان ، وديو قليسيان (82)

وعندما رضخت الامبراطورية الرومانية لتيار المسيحية المشرقى ، وضعفت قبضتها تحت طرقات البرابرة فى أوروبا ، بدت (هيبون) هالة نور فكرى لامع ، اذ تالق الفكر المسيحى فيها على يد أسقفها (سان أوغستين) (345 ـ 430) الذى بقى فيها خمسا وثلاثين عاما ، جعل من اسقفيته خلالها محط حياة فكرية يانعة ، ومركزا وضعت فيه الكنيسة الكاثوليكية أسسها النهائية ، وفيها اجتمعت المجالس الهامة للكنيسة الافريقية (83) ، وعندما اكتسح (ألاريك) ، ملك (الوزيغوط) مدينة روما عام 410 ، كانت هيبون ملتقى انظار المسيحية وأملها، وموئلها البديل ، وفيها كتب (سان أوغستين) ، كتابه الشهير (مدينة الله) التى رد فيها على الوثنيين الذين نسبوا متـاعب الامبراطورية الرومانية الى غضب الآلهة من انتشار المسيحية ، والتى أكد فيها ايمانه بأن (مدينة الله) هـــى فوق البرابرة ، وفوق كل اكتساح ، بل وفوق كل زمـان ومكـان ، وكأنه بذلك كان يصف مدينته مدينة (هيبون) ويقصدها ، ويحفزها على الصمود مهما توالت عليهـا النكبات ، وكان له ذلك عندما عاد تيار الشمال (الاوروبى) ليستوعب الجنوب (الافريقى) همجيا كاسحا بغزوات الڤاندال بعد عشرين عاما من هجوم الاريك على روما ، ووقفت (هيبون) المدينة المحتضرة وهى فى احدى ذرى نشاطها الثقافى تحاول أن تذب عــن نفسها ، كما علمها اسقفها ، واستبسلت ثمانى عشرة شهرا أمام حصار قاسى ، ويبدو أن مقاومتها هذه غدت طبيعة فيها يتوارثها أجيالها عبـر التاريخ ، ولم يعش قديسها بعد سقوطها عام 430 الا أشهرا .

وتحولت عاصمة للڤاندال لاربع سنوات ، ثم تحولوا عنها الى قرطاجنة ، وبعد قرن عاد التيار المشرقى لينالها بجستينان عام 533 ، وبتركيز الحكم البيزنطى فيها لقـرن آخر من الزمن وعاد طرفا بحر صقلية افريقيا ليد واحدة ، وبقيت هيبون مركز أسقفية خـــلالـــه .

(82 أنظـــر Marec op. cit. p. 33
(83 E.I. 1re Ed. art. Bône

ومرة أخرى عاد المشرق قوة عقائدية ـ فكرية لامعة ، وقوة بشرية موحدة ضخمة بظهور الاسلام ، وشرع بالانتشار غربا ، وعادت بونة لتنضوى فى خضمه ، ولا تشير المصادر العربية تفصيلا الى فتحها ونوعيته ولكن يمكن القول مع « فيليب حتى » أن الدين الاسلامى قد استهوى افئدة سكانها كما استهوى افئدة سكان الشمال الافريقى للقرابة فى العرق ، والتشابه فى المجتمع ، وللفكرية السامية السابقة (84) ، ومع ذلك فانه يبدوأن بعض سكانها بقى على الدين المسيحى بدليل انتخاب أهلها أسقفا لهم فى عهد بنى حماد (85) ، الا أن الاسلام استوعبهم فى عهد الموحدين ·

وباستقرار الاسلام فى المغرب ، اختل التوازن على بحر صقلية ـ افريقيا ، فعاد محور الجنوب الشمال يتحرك ، ولما كان المسلمون هم القوة العظمى عسكريا ، واقتصاديا وروحيا ، فان حركة المد كانت من ساحل افريقيا الى الشمال ، ففاض (الاغالبة) حكام القيروان وبونة على صقلية وجنوبى البرالطويل (ايطاليا) ، ولابد أن بونة كانت ضمن تلك المسالح والحصون والرباطات التى زرعها الاغالبة على ساحل شمالى افريقيا حارسة لسوأحلها من بيزنطة ، ومجهزة الرجال والسفن للغزو (86) ، ولو أنه ليس هناك اشارة صريحة الى ذلك · الا أن اشارة المقدسى الى أنها كانت مدينة مسورة (87) فى القرن الرابع الهجرى لدليل على تحصينها من قبل المسلمين ، أتم ذلك فى عهد الاغالبة أو الفاطميين بعدهم ، ولابد أنها لعبت دورها فى عمليات الغزو البحرى التى وصل به الفاطميون عام 322 هـ/933 الى مدينة (جنوة) فى أعماق البحر التيرينى وفتحوها ، وأحرقوا مراكب لسردينيا (88) ، لان بونة بموقعها فى مدخل البحر التيرينى ، وقريبا من سردينيا مهيأة لهذه المهمة · ويثبت هذه الفرضية ما ذكره (ابن حوقل) ، من أنه كان (فيها عامل قائم بنفسه ومعه من البربر عسكر لا يزول كالرابطة) (89) · وذلك

84) تاريخ العرب (مطول) (ترجمه الى العربية جبرائيل جبور وادوار جرجى ، بيروت 1949) ج 2 ، ص 280 ·
85) الميلى المصدر السابق ج 2 ، 211
86) ابن خلدون : المصدر السابق ج 4 ، ص 203
87) أحسن التقاسيم ، ص 226
88) ابن خلدون ج 4 ، ص 208
89) المصدر السابق ، ص 77

فى أواخر عهد الفاطميين فى تونس وما وراءها ... كما أن (البكرى) بعد أقل من قرن يؤكد على أن مرسى بونة « مرسى منيع » ، « ومنه كانت تخرج الشوانى غازية الى بلاد الروم وجزيرة سردانية وكرسقة وما والاها » (90) . « وفى مدينة (مرسى الخرز) القريبة منها كانت تنشأ السفن والمراكب البحرية التى تغزى بها الى بلاد الروم .. والى هذه المدينة يقصد الغزاة من كل أفق لان مقطعها يقرب من سردينيا » (91) .

ويبدو أن هذا الدور الجهادى في علاقاتها مع المسيحية المتوسطية قد حافظت عليه بونة عبر الفترات التالية من تاريخها ، ولو أنها لم تفقد أبدا دورها التجارى القديم ، وكونها محطة تجارية هامة على خط المبادلات المشرقية المغربية وبالعكس . ومن ثم فانها كانت احدى محطات العمل التجارى للاندلسيين ، فاكثر تجارها كان منهم (92) ، الا أن دورها الحربى هذا كان مثار نقمة شمالها الاوروبى ، بل ومغربها الاندلسى المسلم الاموى ومرسى انتقامهما ، ففى عام 345 هـ/956 بعث الناصر صاحب الاندلس أسطوله باتجاهها وأخرق مرسى الخرز (93) كجزء من الصراع الفاطمى ـ الاموى . وفى عام 426هـ/1034 هاجمها أهل (بيزا) و (جنوه) انتقاما من نشاطها البحرى الحربى (94) ورغبة من المدينتين اللتين أخذتا تستفيقان للنشاط التجارى فى البحر المتوسط ومكاسبه ، فى ابعاد المسلمين من البحر التيرينى بل من كل الحوض الغربى للبحر المتوسط ، ولذا فانهما تحالفتا عام 1017 لطرد المسلمين من سردينيا واقتسام الجزيرة (95) ، فمحور العلاقات الشمالية الجنوبية عاد قويا اذا أمام بوادر ضعف الجنوب المسلم ، ويقظة الشمال النصرانى ، وظهور شعوب جديدة على مسرح السياسة كالنورمنديين الذين انتزعوا تدريجيا جزيرة صقلية من المسلمين (منذ عام 452 هـ 1060 م وحتى 485/1091) ، وكذلك مالطة ، وافتتحوا الحروب الصليبية عبر البحر المتوسط ، كما كان الاسبان قد ابتدؤوها فى الاندلس ، وسعى هؤلاء النورمنديين

90) المصدر السابق ، ص 83
91) المصدر السابق ، ص 55
92) المصدر نفسه ، الصفحة ذاتها . 93) ابن خلدون ج 4 ، ص 46 .
94) E.I. 1re Ed. art. Bône
95) G.L.E. art. (Génes)

لاستيعاب الشمال الافريقى المقابل لهم منتهزين صراعاته الداخلية ، وهجمات الهجـرة الهلالية ، وانشغال المشرق العربى الاسلامى بالسطو الصليبى على أرضه • وقد يكون تركز النورمنديين فى صقلية ، متزامنا مع هجمات الهلاليين العرب على الشمال الافريقى هو الذى دعا سكان مدينة بونة الى تسوير مدينتهم الجديدة (96) ، وذلك ليدرؤوا عنها هجمات الداخل والخارج ، وان كان هذا التسوير موجها على الاغلب ضد الخارج ، وقد تكون نشاة المدينة الحديثة كلها قد تم فى هذه الفترة ـ كما أورد ذلك (شيخ الربوة) (97) ، حيث عمرت فى مكان صالح للدفاع ، وبعيد عن الاول ثلاثة أميال (98) ، الى شماله مهما يكن ، فقد كانت بونة ضمن مشروع روجر النورمندى للقبض على جنوب بحر صقلية ـ تونس ، ولذا فبعد حملة واسعة على جيجل ، وشرشال ، وتنس ، وجزر كركنة ، وطرابلس ، والمهدية ، وصفاقس ، وسوسة ، فانه أنفذ أمير بحـره (فيليب المهداوى) لاحتلالها عـام 549 هـ/1154 ، وأناب عنه فى حكمها الحارث من أمـــراء بنى حماد • ولكن الموحدين ما لبثوا أن استعادوا التراب الاسلامى ومنه بونـــة عام 556 هـ/1160 (99) •

وظلت بونة تعانى المد الشمالى الاوروبى المتفاقم الذى كان ملحا على ابعاد المسلمين من البحر التيرينى ، وكـان الاوروبيون قد شرعوا بتكوين قرصنة تغير على المـــوانىء الاسلامية ، فتنهب وتسلب الارزاق ، وتحـــرق وتدمر ، ثم تتخطف النـــاس أسرى ليبيعوهم عبيدا ، أو ليأخذوا فديتهم مالا وفيرا • ويبدو أن المشرق الاسلامى على الرغم من مآسيه هو الآخر لم يكن غافلا عما يجرى • ويصور (ابن جبير) فى رحلته مأساة أسرى المسلمين المغاربة وتعاطف المشرق الاسلامى معهم فقد قال : « ومن الفواجع التى يعانيها من حل (بلاد الكفر) أسرى المسلمين يرسفون فى القيود ، ويصرفون فى الخدمة

96) أنظر البكرى ، ص 55
97) نخبة الدهر ، ص 235
98) البكرى ، ص 55
99) انتقلت بونة بعد الموحدين الى حكم الحفصيين ، وكانت موضع نزاع بين أمراء تونس وبجاية وقسنطينة ، وبين المرينيين والحفصيين الا أنها كانت لعامين (760/1358 ـ 762 1360) قصبة مملكة صغيرة أسسها الامير الحفصى (الفضل) • كما كانت خلال حكم الموحدين ولعامين أيضا بيد (ابن غانية) الذى انتزعها من الموحدين (599 ـ 601 هـ/1202 ـ 1205) •

الشاقة تصريف العبيد ، والاسيرات المسلمات كذلك فى أسوقهن خلاخيل الحـــديد ، فتنفطر لهم الافئدة» (100)· ويستطرد فيشير الى أن مسلمى بلاد الشام من الاثرياء الرجال والنساء كانوا يوصون بقسم من أموالهم فى « افتكاك المغاربة خاصة » ، بل أن نور الدين الزنكى نفسه كان يعمـل فى هذا السبيل (101) · ويذكـر (ابن جبـير) بالذات أمر رجل مغربى من بونة ـ عمل بجاية ـ كان أسيرا فتخلص على أيدى تاجـــر شامى ، له قوافله العاملة مع بلاد الفرنجة (102) ·

واستفحل أمر البحريات الاوروبية فى القرن السابع الهجرى/الثالث عشر للميلاد واحتل الاراغونيون صقلية عام 1282 ، وأتبعوها بسردينيا 1325 · وتبدى التيـــار الكتالونى الغربى تيارا قويا ، وجامحا من الباليـار نحو الشرق بطريق سردينيا وصقلية وأقام مستعمرات بحرية كانت فى واقعها محطـــات للقرصنة ، وبخاصة فى سردينيا وصقلية ، وعلى مقربة من بونة · وكان الاسطول الحفصى قد تـدنى مستواه عـــددا ، وتقنية وعدة (103) · بالنسبة لاساطيل جنوة ، وبيـــزة ، والاراغون ، فهذه وسعت من عماراتها البحرية ، وطورت من صناعة سفنها ، وارتقت بتقنية تجارتها (104) ، وجاء التامين البحرى ليوسع من نشاطها (105) ، وبذلك بدا لها المغرب الاسلامى المنقسم على نفسه فريسة سهلة ، ولا سيما بالنسبة للاراغونيين الذين رأوا فيه امتدادا لبـــلاد الاندلس المسلمة وحرب المسيحية ضدها،ومن ثم شرع صاحب صقلية وهو نائب عن ملك برشلونة يشن غاراته على الشمال الافريقى المسلم·ففى عام 686هـ/1287 غدر وحلفاؤه بمرسى الخرز القريب من بونة ، واقتحموها بعد أن ثلموا أسوارها واكتسحوا ما فيها ، واحتملوا أهلها أسرى واضرموا بيوتها (106) ، وفى عام 688 هـ/1289 هاجموا جزيرة

---

100) طبعة ليدن 1907 ، ص 307 ابتدأ ابن جبير رحلته من المغـــرب الى المشرق عام 578 هـ/1182 ·

101) المصدر نفسه ، ص 307 ـ 308

102) المصدر نفسه ، 308

103) Ch. André Julien, op. cit. p. 149

104) Ibid. p. 123

105) أنظر C.L.E. art. (Gênes)

106) ابن خلدون ج 6 ، 306

جربا ، وانتهبوها وحملوا أهلها أسرى وسبيا • وفى عام 686 هـ/1287 ظفر العـــدو بجزيرة ميورقا كذلك (107) ، وفى 689 هـ/1290 هاجموا المهدية (108) ، وفى العام ذاته حصروا (بونة) وأسروا من ضاحيتها أشخاصا (109) ، ويبدو أن الرحالة المغربى (العبدرى) قد زارها حوالى ذلك الوقت ، والنشاط البحرى الحربى الاوروبى فى أوجه ـ فكان حديثه عنها حديث أسى شعـــرى مسجع اذ « وجدها بطوارق الغـير مغبونة ، مبسوطة البسيط ، ولكنها بزحف النوائب مطوية مجنونة ، تلاحظ من كثب فحوصا ممتدة ، وتراعى من البحر جزره ومده ، تغازلها العيون من جور النوائب ، وتأسى لهـا النفوس من الاسهم الصوائب •• » (110) • وأشـــار الى تلك القرصنة الاوروبية ، وكيف أن بونة أثناء مروره منها قد مر « بها زورق للنصارى لا تبلـغ عمارته عشرين شخصا ، وقد حصروا البلد حتى قطعوا عنها الدخول والخروج ، وأسروا من البـــر أشخاصا فامسكوهم للفـــداء بمرسى البلـــد » ، واعتبر العبدرى ذلك مـن أغـــرب المسموعات (111) لان عشرين شخصا فقط يتحكمون بمدينة • وهذا يدل على انحطاط أمرها ، وذبول حيويتها من كثرة الغارات عليها •

ويحاول (ابن خلدون) فى مقدمته أن يعلل أسباب تواتر غارات النصارى عليها ، وطمعهم بها ، بالبنية الجغرافية لموقعها الذى لا يقوم فى موضع متوعر من الجبل ، كمـا أن أهلها كانوا « من الحضر المتعودين للدعة وقد خرجوا عن حكم المقاتلة ، وصاروا عيالا وليس بساحتها عمران للقبائل أهل العصبيات » • وشأنها فى ذلك بحسب ابن خلدون شأن طرابلس من المغرب وسلا والاسكندرية من المشرق • وهى بموقعها هذا على نقيض سبتة وبجاية وبلد القل على صغرها التى اختطت فى هضاب الجبال وعـلى أسنمتها ،

107) المصدر نفسه ، الصفحة ذاتها
108) المصدر نفسه ، الصفحة ذاتها
109) الميلى المصدر السابق ج 2 ، 393
110) الرحلة المغربية ، تحقيق محمد الفاسى ، ص 37
111) المصدر نفسه ، الصفحة ذاتها ، ولقد أدخـــل العبدرى بـــونة ضمن منظومته الشعرية للرحلة فقال فيها :

وبـــونة قـد أبـانت من أبـانت ★ صــــروف الـدهر من ســـام ســرى

وتكاثرت القبائل والعصائب حولها ، فكان لها بذلك منعة من العدو ، فيئس من طروقها لما يكابده من وعرها (112) . وقد يكون نقد ابن خلدون موقع (عنابة) أو (بونة الحديثة) صحيحا من حيث ابتعاده عن وادى السيبوس ـ كما كان عليه موقع هيبو القديمة ـ والاتصال المباشر بالداخل وبأهل العصبيات فيه ، الا أن المكان الذى اختير لها زمن الهجرة الهلالية كان صالحا للدفاع (113) ، لانه بنى وفى أذهان أصحابه الانطلاق فى مجال الغزو البحرى (114) لا التجارة فحسب .

وفى الحقيقة على الرغم مما تعرضت اليه بونة بسبب موقعها من محن ، فانها بقيت مركزا تجاريا مطروقا ، أو بتعبير أصح نزلة (تسلة) ، تطمح عديد من الدويلات الاوروبية بالتجارة فيها ومعها ، ولا سيما بعد أن سعت تلك الدويلات ومنذ عهد الموحدين ـ لاقامة علاقات تجارية سلمية مع الشمال الافريقى ، وعقد اتفاقيات ، وكانت جمهورية (جنوة) من أوائل المدن التجارية الاوروبية التى طرقت هذا الباب (115) ، وأسست على اثر ذلك شركات خاصة للتجارة بالمغرب (116) ، وكذلك فعل البيزيون عام 552 هـ/1157 (117) . وتوسع نطاق الدول الاوروبية الطامحة بهذه العلاقات السلمية المربحة فى عهد الحفصيين ، فدخلت البندقية الميدان ووقعت اتفاقها عام 629 هـ/1231 وجددت بيزة اتفاقها عام 632 هـ/1234 وحصلت على ضمانات أوسع عام 1353/751 ، كما جدد الاتفاق مع جنوة عام 634 هـ/1267 (118) ، وتقدمت الاراغون الى السلام كذلك عام 670 هـ/1271 (119) ، ودعمت الاتفاقات السالفة فى

112) ص 349

113) Nagel, Algérie, p. 323

114) Ibid.

115) لقدوقعت مع الموحدين معاهدة عام 548 هـ/1153 ضمنت فيها لرعاياها حرية التجارة فى المغرب الاسلامى برا وبحرا على أن يؤخذ من البضائع الواردة الى بجاية العشر والى غيرها ثمانية فى المائة (أنظر الميلى المصدر السابق ج 2 ، ص 265) .

116) المصدر نفسه ، الصفحة ذاتها

117) Ch. André Julien, op. cit. II. p. 123

118) Ibid. p. 151

119) Ibid. p. 139

الوقت ذاته (1271 ـ 1272) (120) وكل تلك الاتفاقات تمثل الصورة الاولية (121)، لما يسمى بالامتيازات التى ستوقعها فرنسا مع الدولة العثمانية عام 942/1535 ·

وهكذا كان لتلك الدول الاوروبية المعاهدة فنادقها فى بونة ، كما كان لها فنادقها فى تونس وبجاية وصفاقس وقابس وجربا (122) ، الا أن تلك الاتفاقات لم تمنـــع صاحب برشلونة ـ كما رأينا ـ من شن غاراته السالفة الذكر وعلى بـــونة نفسها · وأمام جموح الغرب ، وتكالبه على العــالم الاسلامى بحمـــلاته الصليبية فى المشرق ، والاندلس ، والمغرب ، ثم أمام تبدى بعض التخلخل فى وحدته وقوته ، ولا سيما بعـد طرده نهائيا من المشرق 691 هـ/1291 ، « تمت عزائم كثـيرة مـن المسلمين بسواحل افريقيا لغزو بلادهم ، وشرع فى ذلك أهل بجاية ··· فيجتمع النفير والطائفة من غزاة البحر ويصطنعون الاسطول ، ويتخيرون له أبطال الرجال ، ثم يركبونه الى ســواحل الفرنجة وجزائرهم ، على حين غفلة فيتخطفون فيها ما قدروا عليه ، ويصارعون مـــا يلقون من أساطيل الكفرة ، فيظفرون بها غالبا ، ويعودون بالغنائم والسبى والاسرى حتى امتلأت سواحل الثغـــور القريبة من بجاية بأسراهم تضج طـــرق البلاد بضجة السلاسل والاغلال عندما ينتشرون فى حاجاتهم ، ويغالون فى فدائهم بما يتعذر منـه أو يكاد » (123) · ويعطى ابن خلدون لهذا « التنظيم الشعبى » للغزو ، ورد الاعتداء بالاعتداء تاريخا منتصف القرن الثامن للهجرة/الرابع عشر للميلاد (124) · وتنظيم

(120) Ibid

(121) لقد نصت تلك الاتفاقات فى خطوطها العامة على تأمين الملاحة والتجارة المتبادلة ، وتحديد أسس التجارة بين الطرفين وضمـــان اقامـــة الاوروبيين الاجانب فى الاسكالات (الموانىء المغربية) ، وأن يكون لكل جاليـــة أوروبية (أمـــة) قنصلها وفندقها لحماية بضائعها ، واقامة أفرادها ، وأن تضمن المسؤولية الفردية أى لا يعاقب مثلا كل أفـــراد الجاليات أو الجالية الواحدة كلها لذنب اقترفه واحد منهم ، أو لتصرف سىء قامت به دويلة من دويلاتهم · يرجع لتفصيل أكبر لـ
Mas Latrie, Traités de Paix et de Commerce... (Paris 1872 - 1875).

(122) Julien, loc. cit. p. 151

(123) ابن خلدون ج 6 ، ص 399 ـ 400 ·

(124) المصدر نفسه ، ص 399 اذ يقول : « منذ ثلاثين عاما » وكان يتكلم عن الحملة على المهـــدية ·

الجهاد البحري هذا الذى باركته على ما يبدو الدولة الحفصية ، أمـر حـــرى بالدراسة الدقيقة ، ومعرفة مدى تواصله بتنظيم الجهاد على أرض آسيا الصغرى وسواحلها فى بلاد المشرق ، وفى بلاد المشرق بعامة · ويبدو أن الحركة الجديدة هذه ، التى هـى فى واقعها امتداد شعبى لحرب « الثغور البحرية » التى ابتدأها المسلمون ضد بيزنطة مـــذ فتحهم لسواحل البحر المتوسط الشرقية والجنوبية ، والتى تابعها بحماسة واصـرار الاغالبة ، فالفاطميون ، والزيريون ، والموحدون ، قد أزعجت وأقلقت بـــال الـدول الاوروبية المتوسطية ، فقامت ترد على تيار الجنوب الزاحف اليها مـرة أخرى بعنف · وهكذا تحالفت « جنوة وبرشلونة ومن ورائهم بـحاروهم من أمـم النصرانية ، وأقلعو من جنوة » ، وحطوا بمرسى المهـــدية عـام 792 هـ/1389 ، الا أنهم لم يفلحـــوا فى احتلالها (125) ، بل أن سفن قالسنيا وميورقة قامت بهجوم على دليس عام 1398/800 وعلى بونة عام 801 هـ/1399 (126) ، ونزلت عليها فى (70) قطعة الا أنهم أقلعوا منها خائبين ودخلوا مرسى القل (127) ، وتتابعت هجمات دول البحر المتوسط الاوروبى على شمالى افريقيا فى القرن الخامس عشر (128) ، ودخلت البرتغال المعمعة بتوجيه غاراتها على ساحل المغرب الاقصى المتوسطى والاطلسى (129) ، الا أنه يلاحظ خفوت نسبى فى صوت تلك الهجمات فى النصف الثانى من القرن الخامس عشر · وقد يكون العـــامل الاكبر هو اطلالة الدولة العثمانية على البحر المتوسط الشرقى ، وتوسعها فى المشرق الاوروبى ، وتوجيهها بحريتها نحو مياه البحر المتوسط الاوسط فى عهـــد السلطان محمد الفاتح ، وفتح هذا الاخير لمدينة (القسطنطينية) ، مما جعل القـــوى الاوروبية البحرية المصارعة لموانىء المغرب الاسلامية توجه أنظارها الى الخطر الجديد الذى بدا لها

---

125) المصدر نفسه ، ص 400

126) Julien, op. cit. II. p. 143 وكانت الحملة ردا على مهاجمة غزاة البحر المغاربة لتوريبلانكا Torreblanca الميلى ، المصدر السابق ج 2 ، ص 393 ·

127) الميلى ، المصدر نفسه ، الصفحة ذاتها

128) فى عام 1424/828 هـ هاجم أسطول (الفونس الخامس) ملك الاراغون جـزر كركنة وجربا ، وكانوا قد امتلكوا الجزيرة الاخيرة قبلا من 1284 ـ 1335 Braudel op. cit. p. 84

129) هاجم البرتغاليون (تطوان) عام 1399 ، وسبتـــة عام 1415 ، وطنجـة 1437 ، والقصر الصغير (بين طنجة وسبتة) 1458

مهددا لمصالحها التجارية فى الشرق بل وساحقا لوجودها ، من أمثال البندقية وجنوة ، واسبانيا ذاتها ، ومن ثم فان الدول الاوروبية سارعت الى تجديد اتفاقاتها التجارية مع دول المغرب مع تودد لحكامها وتداخلات فى شؤونها ، ومنها فرنسا الويس الحادى عشر ، والبروفنس ، ومدن ايطاليا (130) • وكانت بـونة المرسى المحبب للمرسيليين والذى يتاجرون منه بكثـــرة (131) ، وكذلك للجنويين الذين كانوا يشترون منها القمـــح والسمن (132) ، كما كانوا يصيدون بقربها المرجان ، الا أن سكان عنابة على ما يبدو لم يكونوا يثقون بهم بدليل أنهم كانوا يعارضون انشاء هؤلاء حصنا لهم فى مدخل الثغر لرد هجمات القراصنة عنهم وهم يجمعون المرجان محتجين بأن الجنويين كانوا قـــد استولوا على مدينتهم بمثل هذه الخدعة سابقا (133) •

ومع تجديد الاتفاقات التجارية فى القرن التاسع الهجرى/الخامس عشر الميلادى ، فانه لا يبدو أن عنابة قد بلغت شأوا فى التجارة ، بل يظهر من حديث (ليو الافريقى) عنها فى مطلع القرن العاشر/السادس عشر أن المدينة متدهورة ، وقد يكون سبب ذلك الهجمات الخارجية التى تعرضت لها والتى لابد أنها دفعت عديدا من سكانها لهجرها ، والصراعات الداخلية بين حفصيين ومرينيين وانقسامات الحفصيين على أنفسهم • فقـد قدر عدد سكانها بـ (300) أسرة (134) ، ويظهر أنها لم تتلـــق مهاجرين أندلسيين كثيرى العدد بعد سقوط غرناطة أو قبلها ، مع أنها كانت ـ كما أسلفنا القول محـــط تجارة لهم وعلى طريق عبورهم الى المشرق • وقد يكون بعدها النسبى عن بلاد الاندلس ووقوعها فى محط الغارات الاوروبية عاملا فى ذلك • ويظهر أن تجارتها كانت محدودة ومع تونس وجزيرة جربا وجنوة فحسب (135) ، اذ أن ليـــو الافريقى لا يشـير الى

(130) Julien, op. cit. p. 144

(131) Ch. Roux. France en Afrique du Nord avant 1830 (Paris M.C.M.XXXII) p. 64

(132) Leo Africanus, op. cit. III .p. 709

(133) الا أنه يبدو أن الجنويين قد أنشأوا مثل هذا الحصـــن فى القرن الخامس عشر • أنظر حول هذا الامر Ibid. p. 709 - 710, Nagel, op. cit. p. 323

(134) Op. cit. p. 708

(135) Ibid. p. 709

جاليات أخرى . ويكمل « ليو الافريقى » وصفه لها بقوله : « انها لا تملك ينابيع ماء ، ولا ماء لديها سوى المجموع من المطر فى صهاريج ، ومبانيها منخفضة جدا ما عدا الكنيسة الوحيدة القائمة قرب البحر ، وبعض سكانها تجار ، أما الباقى فحرفيون ، وفيها صناعة كبيرة لنسيج الملابس الكتانية التى ينقل القسم الاعظم منها الى نوميديا » (136) ولم يشر الى نشاطها البحرى فى ميدان الغزو البحرى الا أنها مع صغرها ، ومظاهر ركودها النسبى ، فانها تبدت له مدينة قوية بدليل وصفه لسكانها بقوله : « ان سكان هذه المدينة أقوياء جدا بحيث يهددون ملك تونس » (137) . الا أنه لم يوضح وسائل قوتهم سوى اللهم اشارته الى وجود « قلعة حصينة فى المدينة بناها ملك تونس ، ويقيم فيها حاكمها الذى يعين من قبله » (138) .

واذا كانت عنابة قد أسهمت فى استقبال الجاليات الاوروبية المتوسطية المتاجرة ، فهل أسهم تجارها بالمقابل بعلاقات تجارية سلمية فى موانىء أوروبا المتوسطية ؟ اننا لا نملك بين أيدينا الآن وثائق توضح هذا الامر أو تلقى عليه ضوءا ، الا أن « اليهود » الموجودين فيها لابد أنه كانت لهم علاقاتهم التجارية مع تلك البقاع كما هو حالهم فى المدن التجارية الاسلامية التى وجدوا فيها ، أما علاقاتها التجارية مع المشرق العربى الاسلامى فليس هناك أيضا من الوثائق ما يجلوها .

وهكذا استقبلت عنابة القرن العاشر/السادس عشر وهى مدينة ذابلة ، ومهددة بالقوى الاوروبية المتوسطية عبر محور علاقاتها الشمالى ـ الجنوبى ، والممتدة هذه المرة الى شمالى البحر التيرينى كله ، وكذلك عبر المحور الغربى الشرقى الذى بدا أن اسبانيا المسيحية الموحدة هى الدافعة له . وفى الواقع لم تتغير المطامح الاقتصادية الاوروبية بالساحل المغربى ، وبعنابة منه ، بل قد تكون التطورات الجديدة الاوروبية فى مطلع العصور الحديثة قد أحجمتها وزادتها اندفاعا من تطور سياسى قومى ، ونمو فى المعارف نتيجة للكشوف الجغرافية ، ونهم للارباح والمكاسب ، الا أن القوى الاوروبية فى حوض

(136 Ibid
(137 Ibid
(138 Ibid

البحر المتوسط الغربى ، وفى بحر صقلية افريقيا ، قد تغيرت هذه المرة وتنامت عددا وقوة ، فقد غدت مملكة نابولى خاضعة للاراغون منذ 1455 ، ولما ضمت الاخيرة الى تاج قشتالة ، فقد حل الجندى القشتالى فى البحر التيرينى محل التاجر الكتلانى السابق ، وكذلك فى نابولى وصقلية ، وبذلك غدا هذا البحر المنفتح على عنابة يشعر بوطاة القوة العسكرية البرية والبحرية لاسبانيا بدل القوة التجارية ، ومع أن (جنوة) ظلت مبدئيا هى السائدة فى هذا البحر بسبب سيطرتها على كورسيكا ، وقوتها المالية المصرفية ، فان (فلورنسة) (طوسكانا) قامت تنافسها ، وغدا لها أسطول قرصنة كبير تديره طائفة (سانت أتيين) ، وينشط فى محاذاة شواطىء افريقيا لمفاجاة المراكب الوافدة من مصر أو جربا وعنابة والجزائر (139) ، وانبثق ميناء (ليفورن) الذى كان كما قال عنه (بروديل) بيزه وفلورسنا معا (140) · ويضاف الى هذه القوى قوة فرنسا ممثلة بالمرسيليين الذين سيزداد نشاطهم فى الربع الاخير من القرن السادس عشر ، هـذا ويجب ألا ينسى (الراغوزيون) الذين أخذت جنوه نفسها تستخدمهم فى النقل البحرى فكانوا يقومون بحمل القمح والملح للصقليين ويقومون بالرحلات الطويلة المدى بأتجاه اسبانيا والمشرق والاطلنطى ، وكذلك (البندقية) التى كان لها اسطولها التجـــارى الخاص الذى يجوب سواحل المغرب وموانئه ، وذلك من منتصف القرن التاسع/الخامس عشر (141) ·

الا أن كل تلك القوى الجديدة أو المتجددة لم تغمر التنظيم البحرى المغربى الذى نشأ منذ منتصف القرن الثامن الهجرى/الرابع عشر الميلادى ، والذى تمرس فى أفـــانين الغزو والهجوم على المراكب المسيحية والارض المسيحية ، والذى ازداد نشاطا فى القرن العاشر/السادس عشر بعد النكبة التى حلـــت بالمسلمين بسقوط غرناطة ، وسياسة اسبانيا تجاههم ، والمد الاستعمارى الاسبانى البرتغالى على سواحل المغرب ، واقتراب الاسبانى منه من عنابة ، بعد احتلاله القواعد المعروفة شمال الجزائر ، فمن البـــاب

139) وقد استند بروديل الى تعليمات موجهة الى قائد مراكب القراصنة للقيام بعملية هجوم عبر هذا الخط Braudel, op. cit. p. 89
Livorne 1er avril 1575 - A.D.S. Florence. Medicca 2077, F° 450 et VO.

140) Ibid

141) الميلى ج 2 ، ص 393 – و Ibid, p. 100

البحرى المفتوح بين صقلية وسردينيا والذى تطل عنابة على مداخله ، كانت أساطيل المغرب الغازية تتقدم نحو الشمال، وتفاجىء قنوات ملاحة جنوة ونيس والبروفنس (142) وعندما تسربت سفن انكلترة وهولانده عبر جبل طارق الى البحر المتوسط ، فانها لم تعفها من الغزو هى الاخرى ، فالمغرب كله وعنابة منه ، لم يلق السلاح والمجابهة أمام التحديات الجديدة ، بل ضاعف من عملياته البحرية ـ الحربية ضد جميع القوى النصرانية بل وقام باعادة تنظيم مؤسسته البحرية ـ الحربية حتى غدت أشبه « بصناعة » قائمة بذاتها ، لها مدنها ، وأساطيلها ، وبحارتها ، وصناعاتها ، وتجارتها ، ولا سيما بعد أن انضمت الى صفوفها أعداد غفيرة من مهاجرى المسلمين فى الاندلس تريد الانتقام ، واستعادة أوطانها ٠

وفى الواقع لقد لعب محور العلاقات المشرقية ـ المغربية وبالعكس دوره الخطير فى اعادة هذا التنظيم ودعمه ، فالدولة العثمانية المنتصرة فى المشرق ، والسائدة على الحوض الشرقى للبحر المتوسط ، مدت لذلك التنظيم يدا ، ونشرت وصايتها على المغرب الاوسط فالادنى ، وربطت بين أسطولها وأساطيل المؤسسة البحرية الحربية المغربية ، وبذلك عاد لعنابة دورها الحى ، فالخلفية المشرقية العميقة فى شرقى البحر المتوسط كانت دائما دعما لها وكسبا عبر تاريخها ٠

وكان الضغط الاسلامى هذه المرة على جميع القوى الاوروبية فى البحر المتوسط شديدا ، ولذا فانها لجات أمام مطامحها الاقتصادية ، والتوسعية الخفية والعلنية ، الى اتباع الخطة السابقة التى اتبعتها مع الموحدين وورثائهم من الدول المغربية ، لعقد اتفاقات تجارية على غرار السابقة ، تؤمن لها نشاطها التجارى ، واقامة جالياتها ، وتبعد عنها ما أسمته بـ « القرصنة البربرية » ، وذلك مع الدولة العثمانية الحاكمة فى الغرب الاوسط ٠ وكان اتفاق فرنسا معها عام 1535 الذى أطلق عليه اسم (الامتيازات) ، والذى تتابعت الدول فى عقد ما يشبهه معها ، وبذلك عاد التناوب بين التجارة والغزو فى علاقات الثغور المغربية ، ومنها عنابة ٠ ويمكن القول بأن دور عنابة فى العصر الحديث ، وحتى احتلال فرنسا النهائى لها عام 1832 ، لم يتغير ، أو بتعبير أدق ، ان

(142 Ibid, p. 89

علاقاتها عبر محوري الشمال ـ الجنوب ، والشرق والغرب ، بقيت علاقات تجارة سلمية وعلاقات توتر غزو أو رد غزو ، ويمكن تمييز الامور الآتية في علاقات التوتر مع القوى الاوروبية ·

1 ـ لقد كانت عنابة خلفية داعمة وقوية للنشاط البحري ـ الحربي (المغربي العثماني) الموجه لحرب القوى الاوروبية ، لنزع سيادة الحوض الغربي للبحر المتوسط منها ، وبذلك تكون منسجمة مع موقعها وماضيها مع تلك القوى التي طغت عليها في بعض الفترات ، ولذلك تقبلت ضم « خير الدين بربروس » لها عام 929 هـ/1522 (143) بل أن سكانها ثاروا على حكامهم الحفصيين عام 940 هـ/1533 ، وطلبوا عون خير الدين ثانية (144) ، وفي عنابة أكمل (خير الدين) استعداده لحملته التي مكنته من الاستيلاء على تونس عام 942 هـ/1535 · وعندما انهزم خير الدين في تونس أمام قوى شارلكان المهاجمة ، فان عنابة كانت وراءه ثائرة على موقف (الحسن الحفصي) المنحاز الى الاعداء ، واليها عاد ، « ومنها ركب البحر في عشرين غرابا » (145) ، الى ميورقة ، ومنها الى الجزائر (146) · وظلت ثائرة بأميرها الحفصي ضد سلطان تونس ـ وكان أباه ـ لان السلطان خذل المسلمين وتعاون مع الاعداء ، الا أن شارلكان تمكن من احتلالها بزعامة (المركيز دو مونديار) ، ووضع فيها حامية عدتها (600) مقاتل (147) ، وقد بقوا فيها خمس سنوات (942 ـ 1535/947 ـ 1540) وحاصروهم فيها أهل المدينة حصارا شديدا (148) ، ذاقوا فيه الامرين ، حتى أن تحقيقا رسميا عن وضع الحامية في اسبانيا عام 1540 كشف عن أن الجنود « من يأسهم كانوا يودون أن يصبحوا مسلمين » (149) .

---

143) Julien, op. cit. p. 257

144) E.I. 1re éd. art. "Bône"

145) محمد بن محمد الاندلسي السراج ، الحلل السندسية في الاخبار التونسية ج 1 ، القسم 4 ، ص 1094 (تونس 1970) · 146) الميلي ج 3 ، ص 60

147) E.I. op. cit. وشعر (براون) في تعليقه على كتاب (ليو الافريقي) أن الحامية كانت جنوية وبقيادة الفار زاغال Alvar Zagal وهؤلاء بعد أن حطموا تحصيناتها انسحبوا عند وفاة قائدهم ليعود اليها الاتراك وبربروس ·

148) Op. cit. p. 570
E.I. op. cit.

149) Julien, op. cit. II. p. 253

وعندما عاد (علج على) باى الجزائر لمهاجمة تونس برا عام 978/1570 هـ ، فـان عنابة كانت طريقا له وسندا يحمى مؤخرته ٠

2 ـ وبالاضافة الى ذلك الدعم ، فان عنابة كانت المرفأ الآمن لرسو سفن غزاة البحر الآمن خاصة من عواصف الرياح ، ومحطة يلجأ اليها هؤلاء الغزاة عند قيامهم بغزوات على شواطىء ايطاليا ، وفى طريق انطلاقهم عبر التيه البحرى الى اسبانيا ، أو فى قنوات البحر التيرينى ، أو عند عودتهم الى تونس والجزائر عن طريق سردينيا ، اذ نادرا مـا كانت المراكب تذهب مباشرة الى الجزائر المركز الاكبر للغزو البحرى الاسلامى (150) ، كما أنها بحمايتها من الرياح الغربية والشمالية ، فان بعض غزاة البحر كان يلجـأ اليها ، ليقضى الشتاء فى مينائها ، ويراقب نشاط القرصنة المسيحية فى فتحة البحـر أمامه ، فمن المعروف أن نشاط الغزو يفتر فى هذه المرحلة من العام ، لسوء الاحوال الجوية (151) ، وتتضح أهمية عنابة للغزو البحرى الاسلامى ، أنها كانت ضمن الاغراءات التى رأى شارلكان تقديمها الى (خـير الدين بربروس) لاقناعه بالانحياز الى جانبه ، وترك الدولة العثمانية ، فقد وعده اثناء المفاوضات التى قامت بينهما بأن تكون لـه

(150) لقد تحدث (بيد روسالازار) فى كتابه المؤلف فى القرن السادس عشر عـن بعض حملات غزاة البحر المسلمين واتجاهاتها ، وهى توضح خط السير المشار اليه آنفـا فقد بين أن ثلاثة مراكب تركية تابعة لاسطول (طرغد) كانت قد اتخذت قاعدتها فى سهل تونس وجنوبى جربا ، ففى عام 1550 خرجت من قاعدتها لتتوقف قرب مدخل خليـج نابولى حيث عملت على مراقبة مؤخرة الاسطول الاسبانى الذى تحرك نحو صقلية ، وقامت المراكب الثلاثة بالاستيلاء على سفينة تموين ، ثم فرغيطة ، ثم على مركب محمل بالحجاج الى روما ، وبعد ذلك انفصل أحد المراكب وعاد الى جربا ، بينما تابـع المركبان طريقهما نحو الشمال الى قرب مصب التيبر فجزيرة البا ، الا أن واحدا اضطر للعودة ، فأتى عنابة ، ومنها الى الجزائر حيث باع غنيمته ، أما المركب الثالث المتبقى فقد تابع الرحلة وحـده ، وغزا كورسيكا ، واتجه الى اسبانيا ، ثم عاد الى بنزرت عن طريق سردينيا فعنابة ـ وبعد ذلك الى الجزائر Hispania Vientrix, Medina delcampo. 1552 (d'après Braudel, p. 727)

(151) يذكر (هايدو) الرحالة الاسبانى فى أواخر القرن السادس عشر أن الريس (مامى أرنوط) كان يشتى فى نهر بونا عـام 1579 (أى فى مصـب وادى السيبوس أو مدينة بونا) Braudel, p. 214 كما أن جميع القراصنة كانوا يشتون خارج الجزائر Braudel p. 124

بجاية وطرابلس وعنابة ، بينما كان بربروس يتظاهر بأنه لا يقبل عن الساحل المغربي كله بديلا (152) ·

3 ـ والى جانب كل ذلك فقد أسهمت عنابة في عمليات الغزو البحري نفسها ، الا أنها لم تكن على ما يبدو مركزا من مراكزه الكبرى ، فهي لم ترد ضمن قائمة المراكز الاساسية الشهيرة التي كانت للقرصنة المسيحية أو للغزو الاسلامي في البحر المتوسط في القرن السادس عشر (153) ، وقد تكون احاطتها بالعديد من مراكز القرصنة الاوروبية القريبة أو البعيدة كترابانى القريبة في صقلية ، وفرسان القديس يوحنا في مالطة ، وسانت ايتين في طوسكانا ، هو السبب في ذاك التقلص النسبي ، أو قد يكون نشاط مدينة الجزائر الكبير في هذا الميدان الذي بلغ أوجه بين 1538 ـ 1571 ، والذي كان بحجم البحر المتوسط كله ، قد غطى نشاطها ، ومع ذلك فان التقارير الواردة عن ذاك النشاط ، توضح أنه كان يتناسب في الواقع مع حجمها وأحوالها في ذاك القرن ، ويظهر في الوقت نفسه تعاونها الوثيق مع مجموع المؤسسة البحرية ـ الحربية المغربية والعثمانية · فهناك تقرير من مرسيليا ، وفد الى اسبانيا ، وعلق عليه الملك فيليب الثاني نفسه ، يشير الى أنه قد خرج في عام 1564 من مراكب الغزو الاسلامي من الساحل المغربي « خمسون مركبا من الجزائر ، وثلاثون من طرابلس ، وستة عشر من بونة ، وأربعة من قريز Velez » (154) · وفي الواقع ، ان التعاون بين غزاة البحر المسلمين قد لا يظهر بشكل واضح عمل كل ميناء على حدة ، هذا علما أن مركبا واحدا كان قادرا أحيانا على القيام بعمليات غزو مثخنة بالعدو (155) ، ولابد من الاضافة أن

(152) C. Capasso, Barbarossa. Carlo V. Rivista Storica ital. 1932 - (Braudel, p. 725)
أنظر كذلك الميلي المصدر السابق ج 3 ، ص 64 ·

(153) يعدد (بروديل) تلك المراكز ، فيبين أن الاسلامية منها هي قالونا ، ودورازو ، وطرابلس الغرب ، وتونس ، وبنزرت ، والجزائر ، وتطوان ، والعرايش ، وسلا ، أما المسيحية فهي لاقاليت ، وليفورن ، وبيزا ، ومسينا ، وباليرمو ، وترابانى ، ومالطة ، وبالما ما يورقة ، والمريه ، وقلنسية ، وفيوم ، وسينيا (p. 697)

(154) Avisos de Marsella, 2 mai 1564. Sim E° 1393 (d'après Braudel, p. 710)

(155) و 155) مكرر ، انظر الهامش 150) أي ارسال كل صيف مركبا مشحونا بالشحم والسمن للمراكب الجهادية من ميناء عنابة ، ومن قبل بـاي قسنطينة الى داي الجزائر ، مذكرات الحاج أحمد الشريف الزهار ، الجزائر 1974 ، ص 47

الامر لم يدرس بعد وثائقيا على الصعيد العربى • ويظهر تعاون عنابة كذلك فى عمليات الغزو اسهامها وولايتها قسنطينة ، ماديا ، فى دعم المراكب الجهادية ، بارسال ما يسمى بزكاة الشرق (155) مكرر •

4 ـ ولم يقتصر دور عنابة الحربى فى علاقاتها مع العالم الاوروبى المتوسطى على ما سلف ، وانما كان لها دورها الذى مارسه رجالها الاشداء ، كما وصفهم ليو الافريقى (156) ، وأظهرت فيه أنها مدينة قد تمرست فى عمليات المقاومة والدفاع عـن الذات ضـــد الهجمات الخارجية الاوروبية ، أو تهديداتها ، فقد أسهمت عام 976 هـ/1568 بمهاجمة القاعـدة (الباستيون دوفرانس) (157) التى أقامتها الشركـة الكورسيكية المرسيلية (لينشيو ـ ديريه) قرب مرسى الخرز غير بعيد عـن عنابة ، والتى حصنتها لحماية امتيازها الذى حصلت عليه من داى الجزائر ، أو سلطان القسطنطينية عـــام 698 هـ/1560 (158) ، لصيد المرجان شرقى عنابة ، والذى أضيف اليه فيما بعد حق تأسيس مراكز تجارية لها فى عنابة والقل ورأس روز ، فقد أزعج سكان الجزائر وعنابة القريبة أن الشركة قد أخذت تصدر ما تنتجه البلاد من قمح وشعـــير وقنب وجلـود وشموع وغيرها ، وفجر نقمتها تصدير القمح بالذات ، ولا سيما أثناء تعرض البـــلاد للمجاعات (159) ، علما أن القمح كان من المواد التى تحظر الدولة العثمانية تصديره ؛ حرصا على الغذاء الرئيسى للسكان (160) • وعندما عاد الفرنسيون الى احتـــلاله فى العام نفسه ، وسعوا لدى السلطنة العثمانية للتأكيد ضمن امتيازاتهم المجددة عـــلى امتياز صيد المرجان ، ونالو ذلك منها عام 1597 و 1604 ، فان جنـــود عنابة برئاسة مراد رايس ، عادوا الى مهاجمته وتخريبه عام 1604 ، بأمر من الديوان الجزائرى (161) ، ولما أرسلت فرنسا ثانية بين 1618 ـ 1620 حملتـــين صغيرتين الى الساحل الجزائرى

(156 Op. cit. p. 709

(157 يحيى بو عـــزيز ، المـــوجز فى تاريـــخ (الجـــزائر 1965) ج 1 ، ص 160
Ch. Roux, op. cit. p. 67

(158 هناك اختلاف حول مانح الامتياز هل هو الداى ، أو السلطان Ibid, p. 63

(159 Ibid. p. 66

(160 Gibb and Bown, Islamique Society and The West. Part II, p. 14 (New-York) ; (London - Toronto 1955) أنظر هامشى (77) و (78) من هذا البحث ومتنهما

(161 Ch. Roux, op. cit. p. 67

لتستعيد الحصن ، وكانت العلاقات قد ساءت بينها وبين الجزائر بسبب مقتل السفراء الجزائريين فى مرسيليا ، الذين أرسلو للمفاوضة ، فان عسكر عنابة مؤيدا من الاهالى ، قام بمهاجمته ثانية عام 1621 (162) 0 وهذا يذكر بما قاله (ليو الافريقى) عن رفض سكان (بلد العناب) اقامة حصن جنـــوى قريب منهم خشية العـودة الى احتـــلال مدينتهم (163) ، وينسجم كذلك مع تضييقهم الخناق على الحامية الاسبانية فيها عـام (1540) ، كما أشرنا سالفا • ويجب ألا ينسى أن وجود (حصن فرنسا) بقربهم وعمله بالتجارة ، ينافس المدينة تجاريا ، ويضعفها •

ويظهر دور عنابة المحارب والمقـاوم للهجمات الخارجية كذلك فى مقاومتها العنيدة للهجوم الذى دبرته (طوسكانا) عام 1607/1026 (164) ، مستغلة توتر العلاقات بين فرنسا والجزائر ، وطامعة باحتـــلال المدينة بعد أن تبـــدى ضعف الروابط العثمانية الجزائرية (165) ، وقد جاء لنجدة المدينة (محمد بن فارح) باى قسنطينة الذى استشهد فى المعركة (166) ، الا أن العنابيين تمكنوا من دفع المهاجمين عن مدينتهم •

ولم تكن عنابة أقل دفعا للقوى الاوروبية المغيرة عليها فى الفترات التالية مما كانت عليه عبر تاريخها الطويل ، ويبدو أن الرحالة (شو) قد أدرك هذه الحقيقة ، فوصفها بأنها : « مدينة قـــوية ومحاربة » (167) • وفى القـــرن التاسع عشر عندما حاولت

162) Ibid p. 104 لقد استعاد الفرنسيون هذا الحصن عام 1626 بعد مفاوضات طويلة قام بها (مانسون نابالون) • وأقامـــت (الشركة الافريقية الفرنسية) مركزها فيه أولا ، الا أنها نقلت هذا المركز الى القل • ويعلل (شو) الانتقال بالوضع الجغرافى والمستنقعات السائدة ، ويصف مركزهم فى القـــل بأن فيه منزلا رائعـا وحديقة ، وفى المركز (300) من صيادى المرجان ومجموعة من الجند ، ومركز أسلحة Op. cit. p. 98

163) أنظر كذلك هامش 133) Op. cit. p. 709 - 710

164) الميلى المصدر السابق ج 3 ، ص 150 ، و Braudel, op. cit. p. 1043

165) يحاول (بروديل) تعليل ذلك الهجوم بالمطامع الاوروبية والمشروعات الاوروبية العديدة لاستيعاب الشمال الافريقى المسلم (انظر Braudel, p. 84 حول هذه المشروعات) وبالنزعة الاستقلالية الجزائرية التى جعلتها فريسة للجشع الاوروبى •

166) الميلى المصدر نفسه الصفحة ذاتها

167) Op. cit. p. 97

سفينتان ، برتغاليتان عام 1220 هـ/1805 دخول مينائها للاستيلاء على احدى القطع الحربية التابعة لاسطول الجزائر ، فان السفينة قاومتها (168) ، مدعمة بقوى المدينة نفسها ، مما دفعها للانهزام ، ولما حاول الانكليز الذين حلوا محل الفرنسيين فى امتياز صيد المرجان فى نواحى عنابة أن ينزلوا الى البر دون اذن ، صادمهم أهل المدينة وجيرانهم ، وقتلوا رجال البحر الانكليز ، وقبضت مراكبهم ، وصودر مرجانهم (169) ، مما كان عاملا من عوامل حملة اكسماوث الانكليزية على الجزائر عام 1815 ٠

وهكذا فعنابة ظلت تقاوم استيعاب التيارات الشمالية الجارفة عبر محور علاقاتها المتوسطية الشمالية الجنوبية، منذ القرن الثانى عشر/السادس الهجرى، وصمدت ببسالة ، بل أن فرنسا نفسها عندما بعثت حملتها على الجزائر عام 1246ز/1830 ، فانها لم تستطع أن توطد أقدامها فى عنابة الا بعد عامين ، وبعد مقاومة شديدة ٠ (170)

واذا كان ذلك هو دور عنابة الحربى فى العصر الحديث ، وهو دور دفاعى ، ولو اكتسب أحيانا الشكل الهجومى ، فهو دور غنى وحافل ، فان دورها التجارى الذى بدا خابيا نسبيا فى مطلع القرن السادس عشر ـ اذا ما صدق وصف ليو الافريقى ـ عاد الى التفتح والحياة ، وذلك للاستقرار الداخلى النسبى فيها ، نتيجة فرض السلطة الحاكمة ذاتها عليها (171) ، ولنشاط الغزو وتدفق غنائمه ، وللنشاط التجارى الدولى فى البحر المتوسط بعامة ، وزيادة حركة النقل البحرى بين المشرق العربى والغرب الاوروبى ، ولتفضيل الدول الاوروبية المتاجرة مع الجزائر مدينة عنابة على غيرها لموقعها أولا المشار اليه آنفا ، ولاهتمام الجزائر بالغزو البحرى على نطاق واسع ، ومن ثم فان

168) مذكرات الحاج الزهار ، ص 97

169) المصدر نفسه ، ص 121 ، وتعليق المحقق أحمد توفيق المدنى ، ص 128

170) E.I. 1re éd. art. (Bône) ، وكذلك محمد العربى الزبيرى : المقاومة فى الجزائر 1830 ـ 1848 ، مجلة الأصالة ، مارس 1976 ، ص 104 ٠

171) لقد أوضح المؤرخ Colomb فى بحثه عن الجزائر التركية L'Algérie turque فى المؤلف المشترك المشار اليه آنفا Initiation à l'Algérie p. 116 واستنادا الى ماذكره الاسقف بواره Poiret فى زيارته لمنطقة (القل ـ قسنطينة ـ بجاية) فى الربع الاخير من القرن الثامن عشر ، أنه اذا كانت الحامية فى بونة (عنابة) مع قلة عددها تفرض السيطرة التركية على سكانها ، واذا كان الواحد منهم يهاب التركى ، فان هذا ليس الامر فى بجاية أو القالة يستنتج من ذلك أن قبضة السلطة كانت قوية على عنابة ٠

كثيرا من المراكب كانت تتجنبها ، ولانصراف تلك الـــدول عـن الموانىء التى احتلتها اسبانيا كوهران ، حرصا على علاقاتها الحسنة مـــع المغاربة المسلمين ، ولذبول تلـك الموانىء اقتصاديا ، وهربا من علاقات مع اسبانيا قد تتوتر ، وهكذا فانها كانت تلجـأ الى الموانىء الاسلامية كتاجورة ، ومصراته ، وعنابة ، بل والجزائر نفسها ، على الرغم من محاولات اسبانيا تنشيط اسكالاتها الافريقية ، وتحويل التجـــارة اليها ، ومن هـذه الدويلات فخاصة البندقية (172) . بل أن اسبانيا نفسها على ما يبدو كانت تتاجـــر خارج مراكزها ، تلك عندما عاودت تجارتها مع الشمال الافريقى بعد عام 1530 (173) ، وهكذا ازدهر اقتصاد عنابة ، ونافست الجزائر فى تجارتها (174) ، وقد أشار تقرير اسبانى فى عام 1581 الى أن « بونة مدينة كثيرة السكان وهذا مخالف لقول ليو الافريقى فى مطلع القرن ـ تصنع الخزف الجميل ، وتصدر السمن والصوف والعسل والشموع » (175) ، وكانت شركة (لينش ديديده) حريصة عند اختيار مكان الباستيون أن يكون قريبا من عنابة ، لقيمتها التجارية لتجار مرسيلية (176) ، وبالفعل فان هذه المـدينة كانت مركزا من مراكز أعمال « الشركة الافريقية الفرنسية » ، وبخاصة ما يتعلق بشراء الجلود والاصواف والحبوب (177) والشموع (178) ، وذلك مقابل أن تـــدفع لحكومة الجزائر سنويا كمية من المال (179) ، وقد كان لعنابة فى تجـــارة فرنسا وفى صيدها للمرجان أهمية كبيرة بدليل تفكير لويس الرابع عشر بالاستيلاء عليها ، وجعلها محطة حصينة (180) ، بل أنه عندما انحطت تجارة فرنسا فى مدينة الجزائر ، فانها بقيـت

172) Sanudo, Diarii XXVII, p. 25 (d'après Braudel, p. 688)
Bibliothèque Nationale (Paris) Esp. 6e F° S. 112 113. 18 juin 1570

173) Sim E° 334 - Ibid.

174) Julien, op. cit. II p. 281

175) Relacion de Todos los puertos de Berberia que deben de ganarse y fortificarse - Sim. E° 1339 (d'après Braudel, p. 685).

176) Ch. Roux, op. cit. p. 64

177) E.I. 1re éd. (Bône)

178) يشير (شو) الى أنه كان للشركة الافريقية الفرنسيةاحتكار تلك المواد op. cit. p. 98

179) يبين الرحالة السالف الذكر الى أن الشركة كانت تدفع ما قيمته (30) الف دولار أو ما يعادل (5000) جنيه انكليزى ، وأنها كانت توزعها على حكومة الجزائر ، وقائد عنابة ورؤساء القبائل المجاورين p. 98

180) E.I. op. cit.

فى القل ، وعنابة ، والقالة ، وقد ازدهرت تجارتها معها بخاصة بعد أن سمح لها بتصدير الحبوب (181) ، وقد عملت « غرفة تجارة مرسيليا » بدورها على تنمية نشاطها فيها وفى تلك الاسكلتين الاخريتين ، وقد حصلت التجارة المرسيلية عبر نشاطها فى تلك الاسكالات على مرابح ضخمة ، وقد عبرت الغرفة عن أرباحها تلك بأن سكت ميدالية تمثل افريقيا ، وهى تحمل برق الرخاء والوفرة ، وقد تدلت منه سنابل القمح(182) ٠

وفى الواقع كانت علاقات عنابة التجارية فى القرن الثامن عشر نشيطة مع فرنسا بالذات ، وكان لهذه الاخيرة قنصلها فيها (183) ، بينما ضعفت علاقاتها مع الامم الاخرى ما عدا انكلترة (184) ٠ ويبدو أن عنابة كانت تستورد مختلف السلع المصنوعة من فرنسا وانكلترة ، وتزودها هى بالمواد المشار اليها آنفا ، وأهمها القمح والابقار ، الا أنه يظهر أن باشا الجزائر كان لا يسمح أحيانا بتصدير الحبوب (185) والابقار خوفا من المجاعات التى كانت البلاد تتعرض لها بين آونة وأخرى ٠

ولابد من التنويه أخيرا أن ازدهار التجارة الاوروبية قد لا يعنى ازدهار التجارة العنابية الوطنية وارتداد أرباحها الى أهالى المدينة ، بل ربما تستفيد من ذلك فئة محدودة جدا من السكان ، ولا سيما اليهود الذين كانت لهم صلاتهم بخاصة مع ميناء (ليفورن) ومع عدد من اسكالات الشرق وموانىء الغرب ، كما كان عليه الحال بالنسبة للتجارة الاوروبية فى المشرق العربى ، وفى مجموع المغرب المتوسطى وهذا يتطلب بدوره دراسة متعمقة موثقة ليكون الحكم سليما ٠

وأخيرا ، يمكن ا لقول أن عنابة فى محورى علاقاتها مع العالم المتوسطى كانت مركز تفاعل لهذين المحورين ، وجزءا من علاقات مجموع المغرب الاسلامى ، مع ذلك العالم المتوسطى وبحره المتلاطم بشتى التيارات ، فاذا كان ذاك التفاعل بين محورى علاقاتها ،

181) Julien, op. cit. II. p. 290
182) Ibid
183) مذكرات الحاج أحمد الشريف الزهار ، ص 76
184) Julien, loc. cit.
185) أنظر مذكرات الحاج أحمد الشريف الزهار ، ص 49 ــ 50

وما حملاه اليها من تيارات بشرية ودينية ، وفكرية ، واقتصادية ، وتجارب حياتية ، قد أكسبها نضجا وقوة ، فانه فى الوقت ذاته قد حملها كثيرا من الاسى عنـدما كانت تؤدى باخلاص دورها النضالى المدافع والمهاجم الذى فرضه عليها موقعها ٠ لقد عانـت عبر تاريخها صراعا طويلا ، فتيارات الشرق والغرب قد حملت اليها البشر ، والفكر ، والعقيدة ، ومفهومات رخاء ، فتبنتها وتمازجت معها فغدت ذاتها ، وجاءت علاقات الشمال الجنوب ، وأرادت هى الاخرى أن تحمل اليها البشر ، والفكر ، والعقيدة ، ومفهومات رخاء الا أنها رفضتها وقاومتها للتباين بينها وبـين ذاك الشمال بالبشر ، والفكـــر ، والعقيدة ومضمونات الرخاء ، فكانت علاقات حارة دمية تمثل صـــورة حية من ذاك الصراع الحضارى الطويل بين الغرب والشرق ، والذى كانت تتحكم فيه عوامل العقيدة وعوامل الاقتصاد ، ويود كل واحد أن يستوعب الآخر ، الا أن عنابة خرجت من ذلـك الصراع معافاة ، وعادت لتعيش ضمن ترابها القومى حياة السلام والرخاء كما تفهمه ، لقد قال عنها (شو) عندما زارها فى القرن الثامن عشر : « ان موقعها رائع ـــ وامكاناتها كبيرة ٠٠ فاذا ما رممت خرائبها ، وأنـفقت عليها العناية الكافية ، ونظف مرفؤها فانها ستصبح أكثر المـدن ازدهـارا فى الشمال الافريقى » (186) ٠ ويبـدو أن حاضـــر (بلد العناب) يسير فى هذا الاتجاه ٠

واذا ما كان اسمها قد أثار فى ذهنى ـك الطليعة الشعرية ، فان علاقاتها مع العالم المتوسطى تلح على بتعبير أدبى قد يخفف من جفاء الموضوع ويلخصه ، ويـــرسم بعض صوره ملونة قد لا تكون معبرة تمام التعبير الا أن فيها بعض الواقع وهى : لقد عاشت (عنابة) علاقاتها المتوسطية بين أصفر وثلاثة أحامر : أصفر القمح ، وأحمر العناب ، وأحمر المرجان ، وأحمر نجيع الجهاد عن العقيدة والوجود ٠

op. cit., p. 96-97 (186

احداث لواء جديد فى الجزائر فى أواخر القرن السادس عشر يتركب من

بلد العناب وباستيون ومتبارقة وقلعة باجة

د. خليل ساحل اوغل
مدرس التاريخ الاقتصادى
كلية الاقتصاد ـ جامعة
استانبول ـ تركيا ـ

كان العثمانيون يقومون باحصاء كل اقليم دخل حوزتهم ولكن شمال افريقيا العثمانى وبعض ممتلكاتهم فى آسيا وأوروبا كان لهم طابع خاص وميزة ادارية وبقيت خارج نطاق البلاد التى شملها الاحصاء • وقد تصدى الحكم العثمانى لاحصاء المغرب مرارا والظاهر ان ذلك بقى فى حيز الفكرة ولم يدخل فى حيز العمل • ولهذا لا نجد عن التقسيمات الادارية فى المغرب فى مجاميع القوانين ولا كليات المنشآت الرسمية ولا التواريخ التى تعج بها مكتبات العاصمة العثمانية عن التقسيمات الادارية فى المغرب شيئا • والظاهر أن الشخص الوحيد الذى تعرض للموضوع هو أحد رجال الدور القانونى وصاحب التوقيع فى ديوانه • فالتوقيعى هو الشخص الوحيد الذى يتعرض للدفاتر

الخاقانية أى دفاتر الاحصاء ويعلق على حواشيها كل ما يحصل من تبدلات بامر خـاص سلطانى • ومهمته تخوله الوقوف على التقسيمات الادارية • والمقصود هنا هو مصطفى ابن جلال التوقيعى صاحب التاريخ الموسوم بـ « طبقات الممالك ودرجات المسالك » • وهذا التاريخ ما يزال مخطوطا منه عدة نسخ فى مكاتب استانبول • ونعول هنـا على نسخة الفاتح رقم 4422 ومخطوطات الفاتح اليوم فى مكتبة السليمانية •

يورد لنا مصطفى بن جلال التوقيعى بحث الجزاير فى الطبقة (يريد بذلك الفصل) العاشر فيقول ان الجزاير الواقعة فى أرض المغرب والتى تجاور الخليج البندقانى وتقارب البرتقال بكلريكية عبارة عن (25) درجة ويقصد بذلك وحدة ادارية من سنجق، أو وطن، وقبيلة.ونحن نسردها مع المحافظة على املاء الكاتب •

الدرجة الاولى لواء الجزائر مع ما فيه من بنادر (اسكله) وقبائل وغير ذلك •

2 سنجـق مليانـة
3 سنجـق مديـه
4 سنجـق تنس
5 سنجـق بسكـرة
6 سنجـق مستغانـم
7 سنجق بلد العناب
8 سنجـق قسطنطينة
9 مدينـة تلمسـان
10 مدينـة قلعـه
11 قلعـة شرشـل
12 قلعـة جيجـل
13 قلعـة دلس
14 قبائـل سوماتـه
15 قبائـل موزايـه

16 قبائــل بنى خليل

17 قبائــل بنى موسى

18 قبائــل غمراسيــه

19 قبائــل صنهاجــة

20 قبائــل فليــه (أو مليه)

21 قبائــل خشنــه

22 عربــان بنى راشــد

23 عربــان بنى عامــر

24 عربــان سويــد

25 عربــان حناشى

ويفيد هذا وضع الجزائر فى أواسط القرن السادس عشر فتاريخ مصطفى بن جلال لا يستوعب سلطنة سليمان القانونى الذى تولى الحكم بـين 926 ـ 974هـ • (1520 ـ 1566م) • ويجب أن نضيف ان السناجق وحدودها ومشتملاتها كانت تتغــير مع الزمن وحسب الاوضاع الراهنة•ولا نعرف من مصطفى بن جلال التوقيعى عن ما يضم كل سنجق من السناجق التى عددها • والذى حدانا الى كتابة هذا المقال الصغــير هو وثيقة عثرنا عليها فى دار الوثائق التابعة لرئاسة الوزراء الكائن فى استانبول • فان زعيم يتصرف زعامة فى تونس عبارة عن 60000 درهم (اقجه عثمانية)جاء طالبا امرة سنجق يتركب من بلد العناب وباستيون فرانسه ومتبارقه (؟) وقلعة باجــة وتكفل بدفع 10000 دينار سنويا من دخل هذا السنجق الى الخزانة • فوجهة نظــــر الطالب وهو القائد محمد تتركز على أن تشكيل السنجق على هذه الصورة من الاماكن التى عددها سوف تؤدى الى فضل فى الدخل على المصرف • طبعا اننا لا نعرف عــن هذه الاماكن شيئا ولا ندرى أهل كانت تدخل فى حدود سنجق آخر ام لا ؟ وهل فضل فى دخل السنجق الجديد هو عجز فى ميزانية سنجق آخر انفصلت عنه تلك الامكنــة أم لا ؟ والوثيقة ماخوذة من دفتر كان ينعت بدفتر الرؤوس • ودفاتر الرؤوس هى الدفاتر التى كان يسجل فيها الاحوال الشخصية للمستخدمين من قبل الدولة من نصب وترفيع أو كما كان يقال فيها من ترقى أو مبادلة الى ما سوى ذلك • وهذا الدفتــر

يحمل رقم (كبه جى 238) وقد أوردنا صورة هذه الوثيقة وهى فى وسط الصحيفة 160 • وفى الصورة عدة انحآت من قبل أمير امراء الجزائر من أجل منصب أو ترقى • أما الوثيقة التى تهمنا فى الصورة فهى التى تحمل رقم 1 وقد كتبناها بلسانها الاصلى لتسهل قراءتها وأوردنا بعدها ترجمتها باللغة العربية •

يـــوم

السبت فى 18 شوال سنة 988

الأصـــل التركى **باخط همايـون**

لـــــواء

جزاير غرب بكلر بكى جعفر باشا ايله رمضان باشا وتونس وبلاد ساحل وقيروان قاضيلرى مكتوب كوندروب جزاير غربده بلد العناب وفرانسه باستيونى ومتبارقـه وباجه قلعه سى سنجاق اولورسه خزينه ءعامرهيه انفع اولوب جزايرك وطنلرى مصارفنه يتشوب فضله مال قالدوغى مقرردر ولايت مزبورهنك قديمى امكدارى اولوب تونسده التمش بيك اقجه زعامتى اولان قايد محمد محكمهيه كلوب ذكر اولنان يرلر سنجاغله عنايت بيور لورسه هربيل خزانه ءعامرهيه اون بيك التون ويرمكى شرط ايدوب هرسنه حقلشمق قبول ايدرين ديدوكين عرض اتمكين ذكر اولنان يرلر سنجاغله مشار اليه قايد محمده (بويورلدى) •

لـــــواء

الترجمـــة **بموجب خط همايونى (مبارك ، سلطانى)**

تقدم كل من بكلر بكية (أمير أمـراء) الجزاير وهما جعفر باشا ورمضان بـاشـا وقضاة تونس وبلاد الساحل والقيروان برسائل اشاروا فيها واشادوا باحداث سنجق يتركب من بلد العناب وباستيون فرانسه ومتبارقه (؟) وقلعة باجه فبهذا سوف يتكافأ دخل ومصارف الاوطان فى الجزاير ويزيد الدخل حتما على المصرف وهذا للخزانة العامرة انفع • وان القائد محمد وهو زعيم من زعماء تلك الولاية سبقت خدماته يتصرف زعامة فى تونس تبلغ 000 60 اقجه (الاقجه هى واحد النقد الفضى العثمانى وتزن فى هذا العهد 682 مليغراما) جاء الى المحكمه وقال انه يتكفل بدفـــع عشرة آلاف دينـار (والدينار العثمانى يساوى 80 اقجه فى ذلك العهد ويزن 3،5 غرامات) سنويا يحاسب عليها فى آخر كل سنة ويرضى بقطع العلاقة فى ختام كل عام فأعطينا القائد محمد تلك الاماكن المارة الذكر على سبيل سنجق (وأمرنا بها اليه) •

– 2 –

ارسل بكلر بك طرابلس الغرب كتاب قال فيه ان عبدى بن حسين وهو احد فرسان قلعة درنيس فى لواء كليس (فى يوغسلافيا حاليا) واوده باشى براتب يومى يبلغ سبع اقجات احد من سبقت خدماته وانه يريد تيمارا (اقطاعا عسكريا) عوضا عن راتبه فأمرنا له بذلك من طرابلس ·

– 3 –

ارسل بكلر بك طرابلس (وهو يكتب طربلوس) الغرب كتابا قال فيه ان رمضان وهو آغا « بشلو » يه قلعة ديرانوغراج فى لواء كليس وهو يتصرف عشرة آلاف اقجه ممن سبقت محمود خدماته وانه وقع فى أسر الكفار وتم خلاصه حاليا فأمرنا له بتيمار عبارة عن ثلثى راتبه النقدى ·

– 4 –

أمرنا بتيمار عبارة عن ثلثى الراتب النقدى لكل من رمضان وابراهيم وهما من طائفة « المتفرقة » فى الجزاير براتب يومى يبلغ ثلاثون درهما (اقجه عثمانية) بناء على سابق خدماتهم وبناء على عرض دفعة بكلر بك الجزائر ·

– 5 –

أمرنا لكل من محمد بن عبد الله وولى بن عبد الله لسابقه خدماتهم وبناء على عريضة دفعها بكلر بك جزائر الغرب بتيمار بدائيا بثلاثة آلاف أقجه ·

– 6 –

أمرنا لسنان بن عبد الله وهو متفرقة براتب يومى يبلغ ثلاثون أقجه (ان يتقاضاها) من الجزاير بناء على سابق خدماته وعلى عريضة دفعها بكلر بك الجزائر ·

– 7 –

أمرنا بزيادة وترقى عبارة عن 1500 أقجه لمحمود بن عبد الله الذى بيده أمر يخوله تيمار يبلغ 12000 أقجه بناء على سابق خدماته وعلى كتاب أرسله حسن باشا أمير امراء الجزائر فى السابق ·



صفحة من دفتر الروس تعود ليوم السبت 18 شوال 988 .

Juillet 1819 (30)

صورة مكتوب من المعظم المكرم السيد محمد خوجه وكيل الخرج دار الجهاد الى المعظم مركانتي عنابه

5 B 24

وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه

الحمد لله وحده

حفظ الله تعالى بمنه وكرمه مقام المعظم الارفع الهمام الانفع ابنا علي مركانتي عنابه اكرمه الله

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ورضوانه العميم وازكى تحيات لا تزال عن محمد ... بمنه وكرمه امين وبعد فليكن في علمكم

الخير والعافية ونعم الله المتوالية التي نطلب من الله دوامها وابقاها علينا وعليكم امين

علمكم ان قونصو الفرنصيص قال لنا ان اهل عنابه قالوا لاهل المراكب الذي يصطادون المرجان لا بد تشروا

من عندنا الكمانية لانها عادة وهم ابوا من الشراء لانهم عندهم ما يكفيهم نعم ابنا بلا عليهم فيهم ان اراد

الشراء فلهم ذلك وان ابو بلا عليهم فيهم هكذا نبه عليهم يفعل كل واحد في موضعه وهذا هو

المذكر به منا اليكم وكذا لابد بسوى حبكم ودمتم في امان الله وحفظه وحرسه ورعايته

وكتب بامر المعظم المكرم السيد محمد خوجه وكيل الخرج بباب الجهاد امنه الله بمنه وكرمه امين

رسالة موجهة من وكيل الخرج بالجزائر الى تجار عنابة تتعلق بكيفية التعامل مع التجار الفرنسيين بعنابة ·

أغسطين العنابي
ومقاومة الحركة الدوناتية

د. ابو عمران الشيخ
قسم الفلسفة - جامعة الجزائر

عاش أغسطين العنابي من سنة 354 الى سنة 430 بعد الميلاد وتولى وظيفة أسقف بونة (عنابة) حوالى 40 سنة واشتغل مدة ربــع قـــرن بمقاومة الحركة اللوناتية . واعتبر أن هذه المقاومة هى أهم شىء فى حياته • وقامت حركة دونات Donat فى بداية الامر على خلاف دينى ولكنه سرعان ما تطور الى مقاومة شعبية ضد الحـــكم الرومانى والكنيسة الكاثوليكية التى ساندته فى مواقفه .

وكان الامر الحقيقى الذى تسبب فى نشأة المقاومة الدوناتية هو التعاسة التى شملت أغلبية الاهالى فى افريقيا الرومانية ولا سيما الفــلاحين الفقراء الــذين انتزعت منهم أراضيهم بعد احتلال بلادهم ، فتعرضوا الى اضطهاد المعمرين الاجانب وحلفائهم مـــن بعض المحظوظين الاهـــالى •

ولم يتفطن أغسطين لذلك الدافع الحقيقى لحركة دونات ولم ير فى أنصارها ســوى أهل بدعة تمردوا على الكنيسة الام والسلطة الرومانية ولذا قاومهم مقاومة مستميتة الى

آخر لحظة من حياته • ويبدو لنا أن هذه الحركة التى استمرت أكثر من مائة سنة جديرة بالدراسة ، وسنتعرض فيها على التوالى الى أسباب المقاومة التى عمت بلاد نوميديا وموريطانيا الوسطى ــ وهما تقريبا الجزائر الحالية ــ ثم الى موقف أغسطين منها والدور الهام الذى لعبه فى الظروف التى مرت بها • ولاشك أن المتتبعين لوضعية نوميديا آنذاك سيلاحظون وجوه التشابه بين السياسة الاستعمارية فى افريقيا الرومانية وسياسة فرنسا فى الجزائر والمغرب العربى عدة قرون بعد انقراض امبراطورية روما ــ ولا غرابة فى ذلك ، لان الحضارة الفرنسية وليدة الحضارة الرومانية •

نشأة الحركة الدوناتية وتطورها :

ظهرت حركة دونات حوالى سنة 311 م عندما اضطهد الامبراطور **ديوكليسيان** (Diocletien) الديانة المسيحية فارتد بعض المسؤولين المسيحيين وسلموا كتبهم المقدسة الى الموظفين الرومانيين • فعارض هؤلاء المرتدين جماعة من الاهالى الافارقة ولم يعترفوا بسلطة الخونة (traîtres ou traditores) وتزعم المعارضة **دونات** (Donat) أسقف قرطاجة (313 ــ 355 م) مؤكدا أن الكنيسة ليست لها صلة بالامبراطورية • ولكن روما لم توافقه على هذا فأصر على رأيه وانتصر له عدد من الاهالى المسيحيين فنشأت الحركة الدوناتية واعتبرت نفسها هى الكنيسة الحقيقية الوحيدة اذ لم تتعامل مع الحكم الرومانى الوثنى وقرر الدوناتيون اعادة « تعميد » (baptème) الكاثوليك فعرفوا بذلك الاسم (rebaptisants) وعلق بهم (1) ، وانفصلت الحركة الدوناتية عن الكنيسة الرسمية واحتفظت بمعابدها (basiliques) وممتلكاتها •

ولم يكن هذا الشقاق الدينى فى الواقع الا ستارا ظاهريا لان الهدف الاساسى من قيام الحركة الدوناتية هو مقاومة النظام الاجتماعى والسياسى الذى كان يتجسد فى الكنيسة والحكم الاجنبى والدليل على ذلك تحالف سكان نوميديا مع الحركة المعارضة، وقد التفوا حولها وناصروها بكل ما لديهم من قوة وكان جلهم من الاهالى الفلاحين الذين لم يتعلموا اللغة اللاتينية ــ وهى لغة المحتل ــ وكان الامر الذى دفعهم الى تأييد

(1) بوسيديوس (Possidius) : حياة القديس أغسطين ، ص 21 •

الحركة الدوناتية سياسة الدولة الرومانية التى انتزعت منهم أراضيهم وسلمتها الى المعمرين الذين جاءوا من ايطاليا واستولوا على خيرات البلاد • ويقول أحد المؤرخين صراحة : « ان امتلاك الارض من حق الشعب الغالب » • (2)

وبحكم هذا الاستعمار الاستيطانى أبعدت الدولة الرومانية الاهالى عن المناطق الخصبة وحشرتهم فى الجبال والهضاب الرعوية والصحراء • وتوسع المعمرون بحيث أن ستة منهم أصبحوا يمتلكون نصف أراضى افريقيا (3) • واستخدموا فى مزارعهم بعض الاهالى وشددوا عليهم واستغلوهم واستعبدوهم الى حد جعل الفلاحين الفقراء ينظمون الثورات المتواصلة لمقاومة وضعهم السىء وللدفاع عن حقوقهم بعد ما حاول بعضهم عبثا أن يرفعوا الامر الى الامبراطور بروما •

ونشبت الثورة الاولى سنة 235م ، وشملت نوميديا وموريطانيا فتسلح الفلاحون الاهالى بما استطاعوا وخربوا مزارع المعمرين وأحرقوها • فأطلق عليهم أعدائهم اسم « مختلسى السقيفة » (circoncellions) فاشتهروا به وانتسب الثوار كلهم الى الحركة الدوناتية وظهر نشاطهم غربا وشرقا من قرية التافة (Altava) أى قرية أولاد ميمون بقرب تلمسان حاليا الى **أوزيا** (Auzia) **التى هى سور الغزلان اليوم** الى مدينة **ميليف** (Milev) أى ميلة الآن • وتركزت العمليات على تدمير الكنائس الكاثوليكية واضطهاد قساوستها •

وفى سنة 289م ، أصدر الامبراطور **كونستان** (constant) مرسوما لمقاومة الحركة الدوناتية فتولدت عنه ثورة قبائل الاوراس واستولى الثوار على الكنائس بمدينة **بغاى** (Baghaï) فى ناحية خنشلة وتيمغاد وغيرها • فغزى الجيش الرومانى المنطقة وسيطر على الوضع هناك وحاصر الاسقف الدوناتى فى مدينة **بغاى** (4) وبعد ذلك تمرد الاهالى من جديد فى وسط البلاد • فاضطر الامبراطور **ماكسيميان** (Maximien) أن يخمد الثورة بنفسه سنة 297م ، ولكن الامن لم يستمر الا قليلا • فتوالت العمليات

(2) غسطون بواسيه : افريقيا الرومانية ، ص 319 •
(3) المصدر السابق ، ص 152 •
(4) لويس برتراند : القديس أغسطين ، ص 27 •

وفر بعض الجنود الافارقة من جيش الاحتلال وتسلح المعمرون الرومانيون ليردوا عن مزارعهم أولئك الفلاحين المتمردين (5) ·

وفي سنة 372م ، قاد الامير النوميدي **فيرموس** (Firmus) مقاومة أخرى عبر موريطانيا الوسطى استمرت ثلاث سنوات اعتمد فيها على الاهالي وزعماء الدوناتية والفلاحين فأحرق مدينة **سيزاريا** (شرشال) والتجأ الى جبال جرجرة الى أن أخمد الجيش الروماني ثورته ؛ فساد « السلام الروماني » مدة من الزمن الى أن تمرد أخوه (6) **جيلدون** (Gildon) على روما وكان الاسقف الدوناتي **أوبتا** (Optat) لمدينة تيمغاد (Thimgad) من أكبر أنصاره حتى سمي « الجيلدوني » ·

ـ أغسطين والحركة الدوناتية

تعرف أغسطين على الحركة الدونانية منذ صغره اذ كان جل سكان قريته **تاغاست** (سوق اهراس) ينتمون اليها ؛ فارتدوا عن مذهب دونات · ·ا من مرسوم الامبراطور **كونستان** الذى أشرنا اليه سابقا واعتنقوا المذهب الكاثوليكي (7) وشاهد أغسطين أيضا جماعات مسلحة من الفلاحين تعتدى على مزارع أنصار الكنيسة الرسميةفيأنحاء نوميديا كلها وكان شعار المحرقين لتلك المزارع : « الحمد لله » فسجل أغسطين أن صراخهم كان مخيفا أكثر من زئير الاسود · (8)

وعندما عين أغسطين قسيسا لبونة (عنابة) سنة 391م ، وجد الحركة الدوناتية مسيطرة عليها ولم تكن تملك الاقلية الكاثوليكية الا كنيسة واحدة في المدينة وهي « كنيسة السلام » (9) وكان **بروكوليانوس** (Proculianus) هو الاسقف الدوناتي لبونة · وفي قرطاجة أيضا كان يوجد أسقف كاثوليكي وهو **اوريليوس** (Aurelius) وأسقف دوناتي وهو بارمينيانوس (Parmenianus) .

(5) شا ل أندرى جوليان : تاريخ شمال افريقيا ، ج I ، ص 198 ·
(6) فينوربيكي : حضارات شمال افريقيا ، ص 32 ·
(7) بول مونصو : التاريخ الادبي لافريقيا المسيحية ، ج 7 ، ص 29 ·
(8) لويس برتراند : ص 371 ·
(9) نفس المصدر ونفس الصفحة ·

وفى بداية الامر ا ختار أغسطين طريقة الحوار مع الدوناتيين اذ ارتأى « أنه يجب العمل بالكلمة والكفاح بالمناقشة والاقناع بالعقل » (10) · غير أن خصومه رفضـــوا الحديث مع من أنعتوه « بالمجادل القرطاجى » وأمروا أنصارهم بمقاطعته · وعندما وجه أغسطين رسائل الى **بروكليانوس** ردها له · فقرر أغسطين أن يعارض الدوانتية بالتآليف التى توزعت فى بونة وفى المدن المجاورة (11) نعرف منها 11 رسالة وضاعت 7 رسائل(12).

وكان أغسطين من أخطر المجادلين غير أنه لم يتصف بالدقة والموضوعية · فكان واثقا بنفسه مستعدا للتحدى متسرعا فى الرد قبل أن يتأمل النص كما يجب (13) · فتحامل على أعدائه بدون هوادة ولا رحمة واستعمل كل الوسائل للحط من شأنهم والتغلب عليهم فسخر من تجبر **بيتيليانوس** (Petilianus) وخشونة **كريسبينوس** (Crispinus) وبلادة **بريميانوس** (Primianus) أسقف قرطاجة وسياسته المتضارية وتهكم **بكريسكونيوس** (Cresconius) فى النحو واتهم **ايميرتوس** (Emeritus) أسقف شرشال بعـدم التحـــرى **وغودينسيوس** (Gaudentius) أسقف تيمغاد بالتعصب ولم يسلم منه أحـــد من زعماء الحركة الدوناتية (14) ·

وقد اكتفى أغسطين بهذا الاسلوب الى حين ولم يطالب السلطة بمقاومة خصومه بالقوة ظنا منه أن العقوبة المالية كفيلة بردهم الى الطريق المستقيم · وبناء على هذه الفكرة سعى فى معاقبة عدوه كريسبينوس أسقف قالمة (Calama) فى ذلك ولم يأل جهـــدا حتى حوكم خصمه ولكن هذا الاخير رفض الحكم ورفع القضية الى الامبراطور بـــروما فاقــر الامبراطور معاقبته · (15)

وخلافا لما كان يظن أغسطين لم تتوقف الحركة الدوناتية فى نشاطها ولم تلتفت الى مقاومته لها ؛ بل ضاعفت عملياتها وحاربت الحكم الرومانى وحلفاءه من معمرين وزعماء

(10) أغسطين : رسالة الى فانسانسيوس (Vincentius) ، ص 68 ·
(11) بول مونصو ، ج 7 ، ص 18 ·
(12) تيكسرون : مختصر ، ص 38 ·
(13) هنرى مارو : أغسطين والاغسطينية ، ص 68 ·
(14) بول مونصو : التاريخ الادبى ، ج 7 ، ص 270 ·
(15) بوسيديوس : حياة القديس أغسطين ، ص 23 ·

الكنيسة الكاثوليكية ؛ فوقع **بوسيديوس** ــ أسقف قالمة وصديق أغسطين ــ فى كمين وضعته له جماعة من أنصار دونات فضربوه وانتزعوا منه أمتعته ودابته • واعتدت جماعة أخرى على **ماكسيميانوس** (Maximianus) أسقف بغاى فأشرف على الهلاك وتعرض أغسطين هو الآخر الى كمين غير أنه حاد ــ صدفة ــ عن طريقه المعتاد فنجا بنفسه (16) • وفى النهاية راجع أغسطين سياسته تجاه الدوناتية • فتساءل فى احدى رسائله : « لماذا اذن لا تجبر الكنيسة ابناءها على العودة اليها ما دام هؤلاء الابناء الضالون يستعملون القوة لمقاتلة الآخرين ؟ (17) •

اضطهاد الحركة الدوناتية

وبنى أغسطين فكرته على عبارة للمسيح التى تقول : « أجبروهم على الدخول » (Compelle entrare) وستعتمد محاكم التفتيش على نفس العبارة فى العصر الوسيط لتبرير اعمالها •

أعد لهم اغسطين « **ندوة قرطاجة** » التى انعقدت فى شهر يونيو 411 م • واستدعت السلطة اليها مجموعة من الزعماء الكاثوليكيين والدوناتيين يتجاوز عددهم 600 شخص ليتباحثوا فى الخلاف القائم بين الطائفتين • وترأس الندوة مندوب الامبراطور وكان من أنصار الكنيسة الرسمية ولهذا اتهمه الدوناتيون بالتحيز وكان الحكم عليهم مقررا قبل انعقاد الندوة • (18)

وفى هذه الظروف تغلب أغسطين على خصومه فاتهمتهم الندوة بالبدعة وقررت محاربتهم وابطال دعوتهم • وتولت السلطة الحاكمة مطاردتهم واضطهادهم فمنعتهم من اعادة « التعميد »وعقد الاجتماعات وفى حالة العصيان كان عقابهم بالمال أو بمصادرة ممتلكاتهم • وبالاضافة الى ذلك تميزت معاقبة الفلاحين بالضرب المبرح والقساوسة الدوناتيين بالنفى (19) • وسلمت الكنائس الدوناتيين للكاثوليكيين •

(16) المصدر السابق ، ص 22 •
(17) أغسطين : الرسالة 185 ، أنظر هنرى مارو ، ص 136 ــ 137 •
(18) شارل أندرى جليان : تاريخ شمال افريقيا ، ج 1 ، ص 224 •
(19) لويس برتراند : القديس أغسطين ، ص 388 •

وبطبيعة الحال كان رد الفعل عنيفا من طرف الدوناتيين فدافعوا عن أنفسهم وشنوا معارك كثيرة مركزة على أعدائهم وخربوا المزارع والممتلكات وأضرموا فيها النار ودبروا أغتيال بعض الخصوم • وقاد المقاومة المسلحة الزعماء الدوناتيون وساهم فيها جل الفلاحين الاهالى ولجأوا الى حرب العصابات والنظام السرى فسقط عدد كبير من الضحايا والمقاتلين فاعتبرهم الدوناتيون شهداء الحق وقدسوا قبورهم تقديسا وبالرغم من أن السلطة استعملت جميع امكانياتها العسكرية وغيرها الا أنها لم تستطع أن تقضى نهائيا على أنصار دونات الذين تحصنوا فى مناطق منيعة بنوميديا وموريطانيا • (20)

ـ فكيف يفسر تعصب أغسطين فى هذه القضية ؟ اختلفت آراء المؤرخين فى تفهم موقفه من الحركة الدوناتية • فرأى بعضهم أنه تعصب دينى سافر لا يبرره شيء • فقال أحدهم فى هذا المعنى : «ان أغسطين ـ فى نظرى ـ لم يكن أقل تعصبا من خصومه» •(21) وأضاف غيره أن أغسطين تبنى مبدأ خطيرا وهو الذى يبرر الارهاب فى مسائل الاعتقاد مندوز ـ وهو من أكبر المتخصصين فى اغسطين ـ ان أسقف بونه كان يرى ان الحق اعتناق عقيدة (22) • وحاول فريق آخر من المؤرخين أن يتفهم وجهة نظر أغسطين فى الامر اعتمادا على ما جاء فى مؤلفاته واعتبارا للظروف التى كان يعيشها • فيقول أندريه فأول كلمة ىالمسيح : « أجبروهم على الدخول » تأويلا يسمح للدولة باكراه الناس على والوحدة شيئان لا ينفصلان » (23) وبما أن الحركة الدوناتية خرجت عن الوحدة وارتكبت «جريمة التفرق» فكان لابد من مقاومتها بشدة الى أن يعود أنصارها الى الكنيسة الام • فوقع من حيث لا يشعر فى جدلية القمع والارهاب (24) • وبما أن أغسطين لم يكن خبيرا فى الامور السياسية لم يتفهم المشكلة الاجتماعية والاقتصادية التى كانت

---

(20) بول مونصو : التاريخ الادبى ، راجع شارل أندرى جليان ، ج 1 ، ص 225 •
(21) كريستيان كورتوا : المجلة الافريقية العدد 99 ، سنة 1955 ، ص 427 •
(22) شارل أندرى جوليان : تاريخ شمال افريقيا ، ج 1 ، ص 226 ـ 227 • •
(23) أندريه مندوز : القديس أغسطين ، ص 364 ـ 365
(24) المصدر السابق ، ص 373 •

الدافع المحرك للمقاومة الدوناتية ولم يتفطن لهدفها وهو ازالة النظام الفاسد الـــذى رضيت به الكنيسة فى افريقيا (25) ٠

وفى الواقع ان الباحث الذى يريد انصاف أغسطين من خلال دراسة نفسيته وأعماله ليدرك أن الرجل كان يميل الى احترام النظام القائم والسلطة الحاكمة واضعا مصلحـــة الكنيسة والامبراطورية فوق كل اعتبار وكان وفيا لهما مهما كانت الظروف ٠ فانـه أصبح افريقيا رومانيا لا يتصور وجوده ومصير بـلاده الا فى كنف الحضارة اللاتينية ٠ ومما يدل على ذلك موقفه فى آخر حياته من الغزو الاجنبى وظهور المقاومة الدوناتيـــة من جديد ؛ انه انتقل الى طبنة بقرب بسكرة ـ وهو فى حالة مرض (26) ـ محاولا اقناع القائد **بونيفاس** (Boniface) الذى تمرد على روما ليعود الى بونة مـــن أجل رد هجـوم **الوندال** (Vandales) والدوناتيين ٠ وتوفى أغسطين يوم 28 أغسطس سنة 430م ٠ فى الوقت الذى كان بونيفاس محاصرا برا وبحرا فى مدينة بونة من طرف الوندال وكـان متيقنا من نهاية الامبراطورية الرومانية والكنيسة الكاثوليكية فى افريقـــيا ويشهـد صديقه الاسقف **بوسيديوس** الذى ألف كتابا سماه « حياة القديس أغسطين » ـ أنه لم يبق الا ثلاث كنائس فى افريقيا وهى قرطاجة وبونة وسرتا ٠٠٠ وتدهور الوضـــع الى أن تم انتصار الوندال وانتهت افريقيا الرومانية ٠

(25) المصدر السابق ، ص 294 ـ 295 ٠
(26) لويس برتراند : القديس أغسطين ، ص 441 ـ 443 ٠

المـــراجـــع :

I ـ شارل أندرى جوليان : تاريخ شمال افريقيا ، ج I ، باريس 1956 .

— Ch. André Julien : Histoire de l'Afrique du Nord, t. I, édit. Payot ; Paris 1956.

2 ـ لويس برتراند : القديس أغسطين ، باريس ، 1913

— L. Bertrand : Saint Augustin, édit. Fayard ; Paris 1913.

3 ـ غاسطون بواسيه : افريقيا الرومانية ، باريس ، 1901 .

— G. Boissier : L'Afrique romaine, 6e édit. Hachette ; Paris 1901.

4 ـ كريستيان كورتوا : المدخل الى الجزائر ، باريس ، 1957 .

— Ch. Courtois : Initiation à l'Algérie, édit. Adrien - Maisonneuve ; Paris 1957.

5 ـ هنرى مارو : القديس أغسطين والاغسطينية ، باريس ، 1955 .

— H. Marrou : Saint Augustin et l'augustinisme, édit. du Seuil ; Paris 1955.

6 ـ بول مونصو : التاريخ الادبى لافريقيا المسيحية .

— P. Monceaux : Histoire littéraire de l'Afrique chrétienne.

7 ـ أندريه مندوز : القديس أغسطين ، باريس ، 1968 .

— A. Mandouze : Saint Augustin, Etudes augustiniennes ; Paris 1968.

8 ـ فيكتور بيكى : حضارات شمال افريقيا ، باريس 1921 .

— V. Piquet : Les civilisations de l'Afrique du Nord. Edit. A. Colin ; Paris 1921.

9 ـ بوسيديوس : حياة القديس اغسطين ، باريس ، فى مقدمة كتاب الاعترافات .

— Possidius : La vie de Saint Augustin. trad. L. Moreau, avec les confessions, édit. Gaume et Cie ; Paris, 9e édit.

10 ـ تيكسرون : مختصر الباترولوجيا ، باريس 1941 .

— J. Tixeront : Précis de patrologie ; 14e édit. Lecoffre ; Paris 1941.

مدينة العناب
في آثار الأدباء والكتاب

د. م. بالحميسى
معهد العلوم الاجتماعية - جامعة الجزائر

هذه المدينة القديمة جدا ، « من بناء الاوائل » ، كثيرة الآثار مشرفة على البحر ، قد لاحظ القدماء عذوبة مائها وحلاوة خضرها وفواكهها وجودة سمكها وجمال ارضها وبساتينها وحسن موقعها ونشاط مينائها وتردد التجار عليها وتعود الراغبين فى كسبها واخضاعها - وأتحفها الناس بأسماء عديدة فسميت على التوالى هبون (Hippone) وهبو رجيوس Hippo-Regius وبونة Bûna وبلاد العناب وبون Bône أو بون Bonne وصفا لارضها الخصبة .

وخطرت ببالى مواضيع عديدة بمناسبة ملتقى عنابة فترددت أولا ثم أقدمت على التعريف بمن كتب حول هذه المدينة المزدهرة وعلى ذكر مؤلفاتهم ومقالاتهم - وما أكثرها - آملا فى ان أحد الباحثين فى تاريخ المدن الجزائرية يستعين بهذه

الصفحات ويتحف « بلد العناب » بدراسة كافية شافية وجامعة وافية ونسأل اللـه التوفيق ...

ومن أهم المراجع العربية والفرنسية ما نعرضه على قراء هذا العدد الخاص .

1) التعرف على المدينة

Guide de la ville de Bône, plan général, rues, transports... Alger [Les guides pilotes] 1959 202 p.

2) دراسـات خاصـة

(monographies)

- Marçais (G.) : Annaba in Encyclopédie de l'Islam, 2[e] édi. T. I, p. 527.
- Bouyac (R.) : Histoire de Bône - Bône 1892.
- Feraud (Ch.) : Documents pour servir à l'histoire de Bône. Revue Africaine 1873 et 1888.
- Maitrot : Bône à travers les siècles.
- Pietri (l'abbé de) : Détails sur Bône et ses environs et divers autres sujets. Alger 1836, 55 p.
- Yver (G.) : Bône, Encyclopédie de l'Islam, 1[re] éd., T. I, p. 761-762.

3) التاريـخ القديـم

(Histoire ancienne)

- Pellegrin (A.) : Bône, étymologie ; Revue IBLA 1948. pp. 43-46 et 366.
- Carette (E.H.) : Précis historique et archéologique sur Hippone et ses environs, Paris 1841 25 p.
- Courtois (Chr.) : Les Vandales et l'Afrique. Paris 1955, 455 p.
- Gsell (Step.) : Atlas archéologique de l'Algérie - Texte - Alger - Paris 1911 - Feuillet n° 9 chap. 59, pp. 5-11.
- Marec (Erwan) : Hippone la royale, antique Hippo Regius. Alger 1954, 116 p.

4) تاريـخ العصور الوسطى

(Histoire du Mayen-Age)

- Brunschvic (R.) : La berbèrie orientale sous les Hafsides des origines à la fin du xv[e] siècle. 2 vol. Paris 1940.
- Julien (Ch. A.) : Histoire de l'Afrique du Nord. T. II.
- Golvin (L.) : Le Maghreb Central à l'époque des Zirides. Paris 1957.
- Idriss (H.R.) : La berbérie orientale sous les Zirides x[e]-xiii[e] siècle ; Paris 1962.

ابن خلـدون : كتـاب العبـر ج 5 و 6 .

5) العهـــد العثمـــانى

(Epoque ottomane)

— Mercier (E.) : Histoire de l'Afrique Septentrionale. 3ᵉ vol. ; Paris 1888 et 1891.
— Berbrugger : Algérie, Histoire pittoresque et monumentale (recueil de vues, costumes portraits avec textes descriptifs). Paris 1843.

مؤلف مجهول : غزوات عروج وخـير الدين .

6) الاحتـــلال الفرنـسى

— Chollet (Mᵉ) Bône de 1830 à 1881 ; Alger 1952 (D.E.S.).
— Cornulier Lucinière (Comte de) : La prise de Bône et de Bougie d'après les documents inédits 1832 - 1833 VIII -377 p. illust.
— Julien (Ch. A.) : Histoire de l'Algérie contemporaine ; Paris 1964 P.U.F.
— Mélia (J.) : Les bombardements de Bône et de Philippeville, 4 août 1914 ; Paris 1927 193 p.
— Seybouse (La) : Journal de Bône 1843...
— Toudouze : Mémoire pour les victimes du casetnement militaire de l'occupation civile à Bône depuis neuf années de conquête ; Toulouse 1840.

7) كتـب الرحـلات والجغرافيـة

ـ ياقوت الحموى : معجم البلدان .

ـ البغدادى (عبد الحق) مراصد الاطلاع ج 1 ص ،232 ط القاهرة 1954 .

ابن حوقل : « المسالك والممالـك » .

ـ المقدسى (شمس الدين) : « أحسن التقاسيم فى معرفة الاقاليم » .

ـ البكرى (أبو عبيد الله) : « المسالك والممالك ». كتاب المغرب فى ذكر بـــلاد افريقية والمغرب » .

ـ الادريسى (الشريف) : « نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق » .

ـ مؤلف مجهول : كتاب الاستبصار فى عجائب الامصار ص 17 ـ 18 .

ـ العبدرى (محمد بن محمد) : الرحلة المغربية ـ نشر كلية الآداب بالجزائر .

ـ التمقروتى (أبو الحسن على) : النفحة المسكية فى السفارة التركية .

— Flaux (A. de) : La régence de Tunis au XIXe *siècle ; Parie* 1865. *Ch. II. pp.* 5-14.
— Léon l'Africain : Description de l'Afrique.
— Shaw : Voyages.
— Piesse (L.) : Itinéraire historique et descriptif de l'Algérie ; Paris 1874, 544 p.

8) التراجـــم
(Biographies)

ـ ابن ميمون (محمد الجزائرى) : التحفة المرضية فى الدولة البقداشية : ترجمة سيدى قاسم أحمد البونى ص 116 ·

ـ القاضى عياض : كتاب المدارك : ترجمة الشيخ أبى عبد المالك مروان بن عـــلى ابن القطـــان ·

ـ عادل نويهص : معجم أعلام الجزائر · بيروت 1971 وفيه تراجم بونية ·

1) أحمد بن على بن يوسف البونى (توفى 622 هـ ـ 1225 م) ·

2) أحمد قاسم بن محمد ساسى التميمى البونى (1063 ـ 1139/1653 ـ 1726) ·

3) أحمد بن محمد بن على العنابى (توفى 776هـ/1374م) ·

4) على بن عبد الله الإنصارى البونى (ق 7هـ/13م) ·

محمد بن محمود ··· العنابى : (توفى 1271/1851) صاحب « السعى المحمود فى تاليف الجنود » وكتاب « ثبت الجزائرى » ·

5) مروان بن على الاسدى القطان (أبو مالك) توفى 439هـ/1047م ·

6) يحيى بن أبى بكر العماد (أبو زكريا البونى) ق 8 هـ/14 م ·

9) المســـاجـــد
(Mosquées)

— Marçais (G.) : La mosquée de Sidi Bou Mérouane, Mélanges W. Marçais ; pp. 225-236.
— Papier (Ad.) : La mosquée de Bône, Revue Africaine 1889 ; pp. 312-320.

10) المـــــرسى
(Le port)

— Billard (L.) : Les ports et la navigation de l'Algérie ; Paris 1930.

— Burger : Notice sur le port de Bône.
— Lacoste (L.) et Quesmard (C.) : Les ports antiques de l'Algérie ; Paris 1933.
— Laurent (P.) : Les ports maritimes algériens ; Alger SD. 112 p.
— Lieussou (A.) : Les ports de l'Algérie ; Paris 1857.
— Lespès (R.) : Bône port minier ; Revue Africaine 1930 ; pp. 129-153.
Annaba-port : Port autonome de Annaba, capitainerie, Farifs..., Annaba imprimerie Centrale autogérée.

11) الاقتصاد

(Economie)

— Dumoulin (R.) : La structure asymétrique de l'économie algérienne d'après une analyse de la région de Bône ; Paris 1959, 376 p.

حول

مسجد سيدى بومروان العتيق بعنابة

عبد الرحمان الجيلالى
مؤرخ ـ الجزائر

بعد تقديم أخلص التحيات والتقدير الوافر لكامل اعضاء هيئة وزارة التعليم الاصلى والشؤون الدينية ، وفى مقدمتهم جناب الاخ الكريم سيادة الوزير مولود قاسم نايت بلقاسم على حسن ظنهم بهذا العاجز الماثل امامكم فى اقتراحهم عليه القاء ما أسموه محاضرة بهذا القصر المنيف ، مع أننى ليس لى يد بهذا الامر ولا قبل لى به ، ولكنه نزولا عند رغبتهم الملحة ساحاول جهدى فى التحدث اليكم الليلة أيها الاخوة الكرام كمحاضر أو قل كمسامر يطوى هزيعا من الليل فى حديث أعده لاخوة له أوفياء يحوم حول التاريخ والفن المعمارى ، ولا جرم فى أن التاريخ هو أكبر عامل على الروح الوطنية ، حتى ليصح لنا أن نقول بأن الوطن هو تاريخ الوطن ، ولا حياة لامة الا باحياء ماضيها ، والموضوع هو ما علمتم : جامع سيدى بو مروان ببونة ـ عنابة ـ أو جامع بونة العتيق .

(*) محاضرة القيت فى المركز الثقافى الاسلامى بتاريخ 6 ربيع الاول 1395 هـ ـ الموافق لـ 19 مارس 1975 م .

ولقد اخترت الكلام حول هذا الموضوع لما يربط بين وزارتنا الموقرة هذه وبين المسجد بصفة عامة من الاتصال الوثيق : روابط متينة وأواصر ثابتة ، لا ينفك أحدهما عـــن الآخر ، فالتعليم الاصلي والشؤون الدينية مصدرهما واحد ، وذلك المصدر هو المسجد ٠

وركزت حديثي هذا حول مسجد سيدي بو مروان ببونة ـ عنابة ـ ذلك لما يمتاز به هذا المسجد أو يختص به ما بين مساجد الجزائر الجامعة من خصائص وامتيازات نادرة انفرد بها ما بين كثير من الجوامع ، وأهمها فى نظرى قيمته التاريخية الاثرية ، وهندسته الفنية ، ووضعيته الستراتيجية الحصينة ، وبذلك جاء حديثنا هذا يشتمل على أربعـة عنـــاصر :

أ ـ نشأة المسجد فى الاسلام بصفة عامة ٠

ب ـ جامع سيدى (بو مروان) ٠

ج ـ المدينة التى أنشىء بها هذا المسجد ـ وهى طبعا بونة ـ ٠

د ـ سيدى بو مـروان ٠

كلنا يعلم وانه بعد توحيد شبه الجزيرة العربية فى ظل الاسلام برز منها الفاتحون لنشر دينهم فى الآفاق ، فاحتلوا سوريا فى مدة وجيزة ، وتلوا عرش الاكاسرة والقياصرة وامتلكوا ناحية العراق وبلاد فارس ، ثم انتشروا غربا فى افريقيا والاندلس فاندكت لهم عروش الاباطرة ، واندفعوا شرقا نحو الهند والصين ٠ ففتحوا منهما من المدن القاصية ما لم يبلغه غيرهم من الفاتحين ، بحيث لم ينقض القرن الثـــانى للهجـــرة حتى كانت الامبراطورية العربية الاسلامية تمتد من جنوب فرنسا وجبال البيرينى غربا ، الى حدود طوروس وتركستان وواد كشمير شرقا ، وبذلك شملت ممتلكات العرب رقعـة زادت سعتها عن رقعة الامبراطورية الرومانية ايام بلوغها أقصى ما بلغته فى أوج اتساعها ٠

واندفع المسلمون الفاتحون ـ بطريق مباشر وغير مباشر ـ الى العناية بفن العـمارة والانشاء والتعمير وكان منطلقهم فى ذلك عما وصف القرآن الكريم به الجنة فقال : « لكن الذين اتقوا ربهم لهم غرف من فوقها غرف مبنية تجرى من تحتها الانهار » وقال فى آية أخرى : «والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنبوئنهم من الجنة غرفا تجرى من تحتها الانهار»

الآية ، وفى آية سورة سبأ ، وما أموالكم ولا أولادكم بالتى تقربكم عندنا زلفى ، الا من آمن وعمل صالحا فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا وهم فى الغرفات آمنون .

وصرح سليمان : قال انه صرح ممرد من قوارير ، وذكر الصوامع والبيع والمساجد فى آية سورة الحج : « ولو لا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا » الآية .

فما كان المسلمون يفتحون الامصار ويرون ما بها من الآثار حتى أقبلوا على البناء والتشييد فأقاموا قصورا شاهقة رشيقة التكوين ، موزونة الابعاد ، منمقة الجدران ، ضاع معظمها ويا للاسف ، ونفضت معاول علماء الآثار الاكفان عن بعضها ، وافلت من يد الدهر بعضها الآخر ، وهو ما نراه اليوم منبثا هنا وهناك فى أنحاء العالم شرقا وغربا ، منه جامع الرسول صلى الله عليه وسلم بقباء وبالمدينة المنورة وجامع عمرو بفسطاط مصر ، وجامع عقبة بالقيروان ، والمسجد الاقصى ـ المأسوف عليه ـ وقبة الصخرة ، والازهر ، وجامع دمشق ، وجامع قرطبة ، وجامع دلهى بالهند ، والقرويين بفاس ، وجامع الزيتونة بتونس ، ومساجد تلمسان والجامع الكبير وسيدى رمضان بالجزائر ، وذلك بالاضافة الى قصور القاهرة واسطنبول ودمشق ، وطشقند ، وفارس ، وما فى هذه البلاد من حصون وقلاع ... ومنها تلك الجوهرة الثمينة وذلك القصر العظيم الذى شيده بنوا الاحمر فى الاندلس ، وهو بغرفه الفسيحة وزخرفته الرائعة ، وقبابه الرشيقة العالية ، ومياهه الدافقة الرائقة ، وجناته ذات القطوف الدانية ، لهو خير شاهد على ما ذكرنا .

ولم يكن هنالك من بد للدولة الاسلامية فى مراحل تاريخها الطويل من تشييد العمائر المختلفة لخدمة أهدافها الدينية والمدنية والعسكرية بشكل اختلف حسب تلك الاهداف ، ويأتى فى مقدمة العمارة الدينية : المسجد .

فالمسجد أيها الاخوة الكرام هو كما تعلمون فضلا عن كونه المعبد الذى يجتمع فيه المسلمون صفا واحدا متساوين فى كل شىء ، وفى شرف العبودية ، وفى شرعة العبادة التى تصفو بها أنفسهم من التعلق بالشهوات والانغماس فى أدرانها ، وتطهر بها ارواحهم

من التفانى فى المادة وحدها والجشع فى جمعها ، ففيه أيضا توثيق لروابط الالفة والمحبة الخالصة بين الناس ، وهو الى ذلك كله المدرسة الجامعة التى انبثقت منها هذه المعارف الزاخرة التى نراها اليوم غمرت الشرق والغرب بنورها الساطع ، وكان لها من الاثر الفعال فى نهضة العالم المتمدن ما هو مشاهد من التقدم والرقى وما ستكشف عنه الايام غدا ، كما اعترف بذلك العلماء المنصفون وان أنكره المكابرون والجاحدون ٠

ولقد أحصى بعضهم ما جاءت الاشارة اليه من أنواع العلوم فى القرآن الكريم أو المعارف المستنبطة من القرآن فبلغ الى ما يزيد على عشرات آلاف علم ، قال **ابن العربى** (543 هـ) فى العواصم من القواصم فيما حكاه على **أبى الحسن الاشعرى** (324 هـ) قال بأنه كتب تفسيرا للقرآن يحتوى على خمسمائة مجلد ، فمنه أخذ الناس كتبهم ، ومنهم عبد الجبار الهمدانى وضع كتابا فى تفسير القرآن سماه المحيط فى مائة سفر ، قال ابن العربى قرأته فى خزانة المدرسة النظامية بمدينة السلام ـ بغداد ـ ، وفى الحقيقة ان كل علم تحتاج اليه الامة الاسلامية تراه شريعة المسجد أمرا واجبا وفرضا محتما من فروض الكفاية وعلى أمة الاجابة اتقانه ٠

وكما أن المسجد هو مدرسة جامعة كما قلنا فهو الى ذلك البرلمان الذى توضع فيه قوانين الدولة وتناقش فيه الآراء المستمدة من معين الكتاب والسنة لتسيير شؤون الدولة الاسلامية ذلك المعين العذب الزلال الذى لا يغيض ولا ينضب ٠ وهو الى ذلك كله المحكمة الشرعية العليا التى تجرى فيها أعدل الاحكام ، والتى شطرت بها أروع صفحات القضاء البشرى ٠ ومن المسجد كانت تبعث البعوث وتعقد الرايات وتعبأ الكتائب ، فالمسجد الجامع فى الاسلام هو عبارة عن مؤسسة جامعة عامة لما يجرى بين الناس فى حياتهم العامة من عادات وعبادات ومعاملات فهو منطلق الحياة السياسية والاجتماعية فى الامة الاسلامية قاطبة وهذا معنى وضع المنبر الذى هو أشبه بالعرش الى جانب المحراب فى المسجد ٠ ومن هذه المؤسسة العظيمة تخرج أبطال الاسلام وقادته وولاته وعلماؤه وحكماؤه وفلاسفته وهداته ٠ وها هى مدونات التاريخ تشهد بذلك ٠

فهذا هو المسجد أيها الاخوة الكرام وهذا هو دوره فى الاسلام ، ومن هنا جاءت الاهمية البالغة التى أولتها الدولة الاسلامية فى أول ما عنيت به من مؤسساتها الاولية ،

فكان المسجد هو أول مؤسسة فى الاسلام اطلاقا ، وكان ظهوره على يد النبى صلى الله عليه وسلم وهو سائر فى طريقه الى مهجره يثرب فما غادر قباء حتى أسس بها المسجد وهو المعنى بقول الله تبارك وتعالى : لمسجد أسس على التقوى من أول يوم ، الآية وما حل حبوته صلعم ولا حط رحله بالمدينة حتى أخذ فى انشاء المسجد وشارك بنفسه فى تأسيسه وتشييده ، وكان مبنيا باللبن وسقفه من الجريد وعمده خشب النخيل ، ثم زاد فيه عمر وبناه بنفس المواد التى بنى بها على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ، وجعل طوله مما يلى القبلة الى مؤخره مائة ذراع ، وفى الجانبين الآخرين مثل ذلك، فهو مربع الشكل ، وجعل الاساس قريبا من ثلاثة أذرع على الارض بالحجارة ، ثم بنوه باللبن ، ثم غيره عثمان فزاد فيه زيادة كثيرة وبنا جداره بالحجارة المنقوشة والقصة ، ـ وهى الجسة بلغة الحجاز وجعل عمده من حجارة منقوشة وسقفه بالساج ، فكان هنا التعمير للمسجد النبوى بهذه الصفة هو أساس فن العمارة الاسلامية ، ولم يكن للمسلمين ان يقفوا بمساجدهم عند حدود البساطة التى كانت عليها فى الايام الاولى ، بل تذكروا قول الله تبارك و عـالى : فى بيوت اذن الله ان ترفع ويذكر فيها اسمه · الآية ··· فاقبلوا على تشييدها وزخرفتها اجلالا لها وتعظيما لشأنها ، وأقبل عمر بن عبد العزيز على تزيين المسجد النبوى وتجميله الفسيفساء المذهبة وغيرها من أنواع الزينة، وكذلك فعل الامراء بعده بمساجدهم وقلدهم فى ذلك ذوو الثراء والمال فى كافة أنحاء العالم الاسلامى فرصعوا جوانب المسجد بآيات من آيات الفن والجمال كمثل ما فعله الخليفة الاموى عبد الملك بن مروان بمسجد الصخرة بالقدس الشريفة سنة 72 هـ · 691 م · فجاء عمله هذا آية من آيات فن العمارة الاسلامية وغرة لامعة فى جبين الدهر على مدى العصور ·

ولقد بلغ من اهتمام المسلمين بالمسجد وتعظيمهم له حتى ان بعضهم أقامه من لجين ، من خالص الفضة ، فقد روى لنا التاريخ أن أبا يوسف يعقوب الصفار أحد مشاهـير الامراء وكبار دهاة العرب فىالقرن الثالث الهجرى (9م) أهدى للخليفة العباسى المعتمد على الله تحفا نفيسة ، وكان من بينها مسجد من فضة يسع من المصلين خمسة عشر شخصا ، وهو عدد يكمل به نصاب العدد المطلوب لا [illegible] صلاة الجمعة ·

وكان أول ما ظهر استعمال المحراب فى المسجد ان ظهر على يد عمر بن عبد العزيز فهو أول من أحدثه فى الاسلام وقد كان ذلك منه حين أعاد بناء المسجد النبوى بالمدينة

المنورة سنة 88هـ/706م • وكان فى وضعه موفقا غاية التوفيق فانه فضلا عن كونه المصلى البصير يهتدى الى ناحية القبلة ، فالكفيف أيضا يجد فيه مساعدا له على توجيهه للقبلة من غير كبير جهد ولا عناء ، وهذا علاوة على تلك المنفعة العامة التى ترتبت على هذا الابتكار العجيب وهى اتساع المسجد بزيادة بلاط كامل أو قل صف بطوله حينما يخلى الامام بين المصلين وجدار القبلة ويتقدم داخل محرابه ، فهذه خصلة جميلة ابتكرها عمر ابن عبد العزيز زادت فى اتساع المسجد وأفادت فوائد أخرى •

وجاء دور المآذن ، فظهرت أول مئذنة بجامع عمر بن العاص بمصر ، أقامها مسلمة ابن مخلد بأمر الخليفة معاوية بن أبى سفيان سنة 47هـ/667م ، ولم يكن لجوامع أو مساجد المغرب العربى فى القرون الثلاثة الاولى مآذن عدا جامع عقبة بالقيروان ، بنيت على عهد خلافة هشام بن عبد الملك أنشأها بشر بن صفوان سنة 106 ـ 110 هـ • 724 ـ 728 م • أول القرن 2 هـ (8م) وهى مربعة الشكل كما نشاهدها اليوم ، ثم وقع فى انشاء المآذن تغيير فى الشكل ، الى ملتوية وحلزونية وأسطوانية ومربعة ومثمنة، وتفننوا فى زخرفتها وارتفاعها كما هو مشاهد اليوم فى مآذن العالم الاسلامى عامة ، وتمتاز مآذن المغرب العربى بشكلها المربع منذ وضعت مئذنة جامع عقبة بالقيروان الى الآن وليس ببعيد أن يكون هذا الشكل المربع فى اقامة المئذنة مستوحى من شكل الكعبة المشرفة التى كان أن أمر النبى صلى الله عليه وسلم بلالا باعلان صيغة الآذان من أعلاها• وهى تسمى أيضا بالصومعة كما هو المصطلح عليه فى بلادنا المغربية ، وذلك لمشابهتها بعض طراز أبراج الزهاد والرهبان المتخذة للعبادة ، ومنها مئذنة (العروس) بالجامع الاموى فى دمشق •

ثم يلى المآذن من حيث الاهمية فى بناء المسجد ولا سيما مساجد الامصار ، ذلك العنصر المعمارى الجميل الذى يعتبر من الميزات البارزة فى العمارة الاسلامية ، الا وهو عنصر القباب ، والقبة كما هو معلوم : هى بناء مستدير مقعر ذو شكل نصف كروى تقريبا ، يقام على مبنى مربع أو مثمن أو دائرى ، وهى ذات أشكال مختلفة ففيها نصف الكروية والبيضوية والاسطوانية وفيها ما اتخذ شكلا بصليا ، وفيها المضلعة ، وهى فى

بلاد المغرب بصفة عامة منخفضة على شكل الكروية خالية غالبا من الزخارف الخارجية الا ما شد منها فى أقل القليل ، ومن الشاذ قبة جامع سيدى بو مروان ·

وفيما يرجع الى هذا النوع ـ نوع القبة ـ فى العمارة الاسلامية يقول (ويل ديورانت) فى قصة الحضارة : ان العمارة البابلية ـ أى حضارة ما بين النهرين دجلة والفرات ـ هي التى أوحت بقباب المساجد والمنارات والابراج فى **العهد الوسيط** ؟ ويقول مؤرخو الحضارة بان المسلمين ورثوا القبة عن الامم السابقة عليهم مثل المصريين والعراقيين والرومان والبيزنطيين ، ولكنهم ورثوها عن هؤلاء صغيرة ساذجة بسيطة محدودة الاستعمال وردوها الى العالم كبيرة معقدة جميلة ، وأكثروا من استعمالها حتى لقد أصبحت من السمات البارزة للعمارة الاسلامية ولا ننسى كذلك ان العرب وان استوحوا هندسة القبة واستعملوها فى مبانيهم تقليدا للرومان والبيزنطيين كما قالوا ، فان الرومان والبيزنطيون لم يكونوا وحدهم بناة القباب ، فالباحثون فى تاريخ الحضارة الشرقية قالوا بأن القبة فى العمارة الشرقية نشأت فى آسيا الصغرى ، أو فى الاقاليم الواقعة شرقيها ، ثم انتقلت عن طريق أرمينية الى بزنطة، ومن ثم انتقلت برعاية الكنيسة المسيحية الى البلقان وروسيا ·

ويرجع تاريخ تشييد القبة فى الاسلام الى سنة 72هـ/691م · على عهد عبد الملك ابن مروان فى تشييده لقبة الصخرة بالقدس الشريف ·

قلنا ومن الشاذ فى انشاء القبب المزخرفة من الخارج فى بلاد المغرب قبة جامع سيدى بو مروان فى بونة التى هى عنابة ، نعم وذلك لان شكل هذه القبة ـ وهى مفقودة اليوم ويا للاسف ـ كان غريبا بالنسبة الى غيرها من قبب الجزائر وتونس والمغرب كما نراها مرسومة ومصورة ولم يكن يشبهها فى تخطيطها الخارجى وزخرفتها الظاهرة على سطحها اليوم ، سوى قبتين بجامع القرويين قبة البهو والقبة المقابلة لها جنوب الصحن ، أعنى القبة التى تقع على أول البلاط المتصل بالعنزة ، والقبة الموازية لها التى تقع على مدخل باب الصفر المعروف أيضا بباب الورد وهو الموالى لباب الحفاة ، وثم ثالثة بمدينة سوسة بتونس تعرف تلك القبة (بقبة بين القهاوى) ، فكل من هذه القباب مكسو ظهرها أو قل سطحها بتضبيعات معوجة أو منكسرة تشبه حرف الزاد اللاتينية خطوط

متكسرة وهو شكل غريب بين القباب المعروفة لدينا ، وقد زالت قبة جامع سيدى بو مروان واختفت عن الانظار منذ أن أدخل عليه الاستعمار الفرنسى من التحوير والتغيير والتبديل بسبب تحويل المسجد الى مستشفى عسكرى ، وقد كان ذلك فى أيام الاحتلال الاولى ، وما عاد للمسلمين الا شهر ماى من سنة 1945 م ، ونحن ما عرفنا شكل هذه القبة الا بفضل الرسم والتصوير الذى وصل الينا ، ولا يخفى ما وقع ثانيا لهذا المسجد من التهديم والتحطيم بسبب حادث انفجار سفينة فرنسية كانت راسية هناك بالساحل أو بمرفأ المدينة ـ عنابة ـ شتاء سنة 1965 م . فانعطب المسجد وما اتصل به من الرباط ثم وقع ترميمه بعد ذلك ، فالى هذه الاسباب يرجع اختفاء القبة المومى اليها، ولوجود هذا الشبه القوى بين هذه القبة وقبتى القرويين وقبة (بين القهاوى) بسوسة قلنا أنها من فصيلة واحدة ، ورجعنا بتاريخها كلها الى عصر واحد ، ولكن أى عصر هو من بين العصور ؟ ... هذا ما سنحاول التوصل اليه من بحثنا هذا .

فاذا قارننا قبة جامع سيدى بو مروان هذه بقبتى القرويين بفاس وجئنا نبحث عن تاريخ انشاء هذه المؤسسة الفاسية الجليلة لكى نتوصل الى معرفة تاريخ وضع هذه القبة بجامع سيدى بو مروان ، وجدنا تاريخ تعمير القرويين متشعبا بين العصور .

اذ كلنا يعلم وان مؤسسة القرويين هى المحسنة المرحومة أم البنين بنت محمد الفهرى القيروانى،سنة 245هـ/859م،أى كان ذلك على عهد الدولة الادريسية،والخليفة الادريسى يومئذ هو يحيى الاول حفيد ادريس الثانى ، ولكن الجامع بعد ذلك اعتراه تغيير وتبديل من بعض جهاته بسبب ما أدخل عليه من الزيادات والاصلاحات والترميمات المختلفة والمتعددة ، وفى أوقات متباينة ، فقد زاد فيه الامير أحمد بن أبى بكر الزناتى وبنى الصومعة الحالية سنة 344هـ/955م ، وشملت هذه الزيادة نواحيه الثلاثة : شرقا وغربا وجنوبا ، كما أن الحاجب عبد الملك المظفر بن المنصور بن أبى عامر لما احتل فاسا باسم الخلافة الاموية المروانية سنة 387هـ/997م ، أحدث فى جامع القرويين تغييرا كبيرا بقصد محو آثار الفاطميين فيه ، وكان فيما تناوله هذا التغيير هاتين القبتين : قبة العنزة، والقبة الموازية لها جوفى الصحن وهما اللتان جاء شكلهما أو زخرفتهما الخارجية تشبه زخرفة قبة جامع سيدى بو مروان وقبة سوسة ، وفى القرن السادس الهجرى ـ 12م ـ

وقع بهذا المسجد تغيير آخر بقصد توسعته ، بما يقرب من نصف مساحته ، وفي عهد المرابطين كذلك وقعت به زيادة أخرى ، باذن على بن يوسف بن تاشفين ، كما وقع بـه حريق سنة 571هـ/1176م ، فجددت القبة والباب سنة 600هـ/1203م · ووقـــع به ترميم من ناحية الجدار الشرقى سنة 682هـ/1283م ، ثم بالجدار الشمالى سنة 696 هـ · 1300 م · الخ · · ·

هذا بالنسبة الى مقارنة تاريخ انشاء قبة جامع سيدى بو مروان بقبتى القرويين ، وانتم ترون ماذا أدخل على هذا الجامع من اصلاح وتغيير ، واذا التفتنا الى القبة المعروفـة بقبة (بين القهاوى) بمدينة سوسة بتونس ، وجدنا الامر أشد غموضا وأعقد من ذنب الضب ذلك اننا لم نجد نصا يضىء لنا الطريق نحو معرفة تاريخها ، أو يشرح لنا وجـه قيامها بهذا المكان ، أو يبين لنا على الاقل وجه تخطيطها على هذا الطراز الغريب ؟ ! · اذا فلم يبق لدينا سوى قبة جامع سيدى بو مروان المفقودة اليوم · · · وعليه فاذا أردنا متابعة البحث عن تاريخ المسجد فما علينا الا أن نلتفت الى الجذر ، أى الى تاريخ المدينـة نفسها التى انشىء بها هذا الجامع ، وهى طبعا بونة ، أو عنابة ·

من المعلوم ضرورة أن مدينة بونة هى قائمة على الشاطىء الشرقى الشمالى الجزائـرى عند مصب نهر سيبوس وعلى الشاطىء الغربى للخليج المسمى بالاسم نفسه والـــذى ينحصر بين رأس قارد رأس العسة و (رأس روزا) شرقا ، أى موقع بونة يشتمل على مدينتى بونة القديمة ، وبونة الحديثة ، أما بونة القديمة فهى التى أسسها الفينيقيون بين النهرين : (سيبوس وبو جمعة) منذ ما يزيد على ثلاثة آلاف سنة ، وكان اسم المكان هذا حسب نطق الفينيقيين « هبو » · ولفظة هبو هذه هى كلمة سامية فينيقية معناها : « الاب » بتشديد الباء وهى قريبة منها فى النطق ، ولا يخفى أن مخرج النطق بالهمزة وبحرف الهاء هو واحد ، أى من أقصى الحلق من جهة الجوف ، والاب عربية معناه المرعى وما يأكله الناس والانعام ، وقد نطق به القرآن الكريم حيث قال تعالى : « انا صببنا الماء صبا ثم شققنا الارض شقا فانبتنا فيها حبا وعنبا **وقضبا** (كل ثمر يقطع ويؤكل طريا) وزيتونا ونخلا وحدائق **غلبـا** (ملتفة الاغصان لكثافتها) ، وفاكهة وأبا » وسمى هكذا لانه يؤب وينتج ، ومنه جاء الابان بمعنى ابان الفاكهة وهو أوانها ووقتها ، وقالوا بـأن

النون فيه زائدة كما زيدت فى « ندمان » فلم يبق حينئذ الا « الاب » ومن المحتمل ان تكون تسمية المدينة هكذا (هيو أو أيو) وقعت بهذا القصد لما هى عليه تربتها من خصب وخفض فى العيش قال ابن حوقل وهو من أهل أواسط القرن الرابع الهجرى « وفيها ـ أى بونة ، خصب ورخص موصوف ، بمعنى مذكور ومشهور وفواكه كثيرة ، وبساتين قريبة ، وأكثر فاكهتها من باديتها ، والقمح والشعير فى أكثر أوقاتها كما لا قدر له الخ ... ونجد كذلك الرحالة البكرى ـ فى أواسط القرن الخامس الهجرى يقول فى مسالكه واصفا لبونة : وهى ذات ثمر وزرع ، ... الى أن يقول : « ويغربى هذه المدينة ماء سائح يسقى بساتين ، وهو مستنزه حسن ... » الخ ... كما نجد مثل ذلك عند الادريسى حيث نراه يقول : « وبها من أنواع الفواكه ما يعم أهلها ، وأكثر فواكهها من باديتها ، والقمح والشعير فى أوقات الاصابات كما وصفنا كثير جدا ... » وهكذا نجد هذه الاوصاف عند كل من تعرض لبونة من الجغرافيين أو غيرهم ، فكلهم يصفها بالخصب وخفض العيش ، ويسميها اليون الافريقى : « عنابة لكثرة وجود شجر العناب فيها » وهذا ما يشرح لنا وجه تسميتها عند الفينيقيين باسم (هبو أو ابو) وهو الاب فى العربية والاب من الابان ، والنون زائدة كما ذكرنا فلم يبق الا الاب ، ويستأنس لهذا ورود كلمة (الاب) فى اللغة السومرية على انه اسم للاله (دلبات)اله الزراعة والحرب.

والفينيقيون هم أمة متشعبة عن الفرع الكنعانى السامى ، ولغتهم هى لغة سامية أخت اللغة العربية ، بل قال علماء اللغات هى لهجة من اللهجات العربية القديمة ، واشبه اللغات بها اليوم هى لغة أهل جزيرة مالطة ، وقد خضعت مالطة كغيرها من جزر هذا البحر الابيض المتوسط للعرب ردحا من الزمن .

ولما حل الفينيقيون بهذا الشمال الافريقى أقبل عليهم السكان لما وجدوا فيهم من الارتباط بهم لغة وجنسا ، فكنعان هو الجذع الذى يجتمع فيه نسب البربر والفينيقيون . ومن هذا الاتصال الحاصل بين الفينيقيين والبربر تأكدت الصلة السامية وتمهدت الطريق للعروبة والعربية بهذا الوطن منذ ما يزيد عن ثلاثة آلاف سنة .

وأصبح اسم المدينة ينطق به الرومان هكذا : (هيبونا) ومنه جاءت التسمية ببونة ، وجاء بعدهم الوندال فاحتلوها سنة 430 م ، ثم بعد قرن احتلها البيزنطيون ، ثم جاء دور

الفتح العربى الاسلامى ، فنزل العرب بهذا الشمال فى أوائل القرن الاول للهجـــرة ، واحتل جيش الفتح العربى مدينة بونة القديمة على يد القائد الامير حسان بن النعمان سنة 78هـ/697م ، ولم نجد لها فيما اطلعنا عليه من تاريخها الاسلامى ذكرا حتى القرن الرابع الهجرى ، حيث نجد نصوصا تاريخية تنص على تاريخ تأسيس بونة الحديثـــة وانها بنيت فى أواسط القرن الرابع أى نحو سنة 350هـ/961م ، أى فى آخـــر عصر الفاطميين ، وما سورت الا بعد الخمسين وأربعمائة ، أى في عهـــد ملـــوك بنى زيرى الصنهاجيين ، وذكرها ابن حوقل فى المسالك ... الذى وضعه سنة 360هـ/971م . فقال : « كان لها عامل مستقل » .

ويذكر البكرى مدينة بونة القديمة ـ هبونة ـ فيقول : « تسمى اليوم مدينة زاوى ، ولها مساجد وأسواق وحمام ، وبينها وبين المدينة الحديثة نحو ثلاثة أميال » . وفى سنة 548هـ/1353م احتلها روجى الثانى الصقلى النورماندى ، ولم نجد فى هذه المصـــادر التى بين أيدينا ذكرا لمسجد خاص أو جامع معين بهذه المدينة يرجع تاريخه الى هـــذه العصور الاسلامية الاولى ، سوى ما ذكره البكرى ومثله صاحب الاستبصار من قولهما : ولها مساجد ، أو ما ذكره كلاهما على سبيل التعجب والاستغراب من حال مسجد كان هناك بأعلى جبل « زغوغ » أو « ايدوغ » وهو الجبل المطل على المدينة ، فكلاهما وصف هذا المسجد ـ الذى هو بأعلى الجبل كما ذكرنا ـ وصفاه بأنه مسجد قديم قالوا ورغم كون مدينة بونة هى كثيرة الثلج والبرد ، فمن العجائب انه لا ينزل عليه شيء مـــن ذلك الثلج ، فاذا عم الجبل كله رأيت المسجد فى وسطه كأنه شامة . ! ... ؟

وهو كما يفهم من النص ان موقع المسجد كان خارج المدينة ، وهو قطعا ليس مـــن مساجد داخل المدينة وليس هو بمسجد سيدى أبى مروان ، وعليه فالى أى عصر يرجع تاريخ جامع سيدى بومروان ؟ ... وكيف حتى نسبها البكرى الى زاوى ، حيث قال : « تسمى اليوم مدينة زاوى » ؟ ... ومن هـــذا زاوى ؟ ... وما معنى قولهم بنيت أواسط القرن الرابع ؟ ... وقولهم : انها ما سورت الا بعد الخمسين وأربعمائة ؟ ...

أما عن نسبة المدينة الى زاوى ، فأرى انه لا يعلم فى تاريخ ولاة الجزائر من اسمـــه زاوى غير زاوى ولد زيرى بن مناد الصنهاجى مؤسس الدولة الزيريـــة التى خلفت

الفاطميين حينما غادروا الشمال الافريقى متوجهين نحو المشرق ، فى أواسط القرن الرابع الهجرى ، ونحن نعلم ان زاوى هذا قد فارق المغرب وانتقل الى الاندلس منذ سنة 391هـ/1001م ، وحكم هنالك مملكة غرناطة من سنة 403هـ الى سنة 410هـ (1012 ـ 1019م) حيث تغلب على قرطبة فكيف حتى نسبت اليه مدينة بونه هذه ؟ ...

والجواب عن ذلك هو انه قد ثبت تاريخيا حصول زاوى هذا على عودة الى الوطن أيام نشوب فتنة البربر بالاندلس سنة 410هـ/1019م وأنه نزل يومئذ على المعز ابن باديس حفيد أخيه بلكين بالقيروان ، فاكرمه المعز ـ كما يقول ابن خلدون ـ ولقيه بأحسن البر والتجلة وأنزله أرفع المنازل من الدولة ، وقدمه على الاعمام والقرابة ، وأسكنه بقصره ، وكانت مدينة بونة اذ ذاك تعتبر من المدن التى هى تقوم على خط الحدود والتخوم بين المملكتين الصنهاجيتين الشرقية والغربية ـ أى مملكة القيروان شرقا والقلعة أو بجاية غربا ـ وقد ذكر لنا هذا أبو الفداء فى تقويمه عند ذكره لوضعية مدينة بونة فى جغرافيته نقلا عن أبى سعيد ، قال : « ان بونة على آخر سلطنة بجاية وأول سلطنة افريقية » فأفادنا بذلك وان مدينتنا هذه كانت تعتبر جغرافيا من التخوم الشمالية المشتركة بين حكومتى أبناء العم الزيريين الصنهاجيين ، والنزاع يومئذ قائم بين الحكومتين المتزاحمتين حول الاستيلاء على هذا الموقع من الحدود ، فليس ببعيد أن يتفق الطرفان على اقطاع المدينة لهذه الشخصية الصنهاجية الملكية شخصية زاوى ، وقد رجع الى وطنه بعد ما ملك الاندلس ، والزمن زمن اقطاع ، وكل ذلك تفاديا من النزاع القائم بين أفراد الاسرة الواحدة الملكة حول هذه البقعة ، فهذا هو الاحتمال الذى نستطيع أن نفسر به قول البكرى : « وتسمى اليوم مدينة زاوى » وفى قوله (اليوم) اشعار منه الى انه يريد بذلك عصرا متأخرا ، ولا يغرب عنكم ان عودة زاوى من الاندلس الى المغرب كانت سنة 410هـ/1019م ، وتبييض البكرى لكتابه « المسالك » كان سنة 460هـ/1068م فلا جرم ان هذه النسبة الى زاوى وقعت أثناء هذه الفترة من الزمن ، ولذلك عبر عنها البكرى بقوله : (وتسمى اليوم) .

وأما عن معنى قولهم عن المدينة بنيت فى أواسط القرن الرابع ، وانها سورت بعد الخمسين وأربعمائة ، فان ذلك يرجع الى الظروف التى وقع فيها تغيير فى المدينة بسبب

الغزو الاجنبى ، فلقد غزاها كل من حكومتى « بيزا » وجنوه الاطاليتين ، فى أواسط القرن الخامس الهجرى كما غزاها روجى أو روجار ملك النورمانديين واحتلها سنة 548هـ/1103م ، فكان ذلك لزاما لتجديد المدينة وانشاء أسوارها لرد هجمات العدو فى هذا التاريخ • ثم تناولتها الايدى بعد ذلك فاحتلها الموحدون وامتلكها ابن غانية ، وسقطت بيد الحفصيين كما تنازعتها كل من حكومات تونس وبجاية وقسنطينة من الحفصيين ، وكل ذلك جناه عليها موقعها الجغرافى حيث كانت رابضة على التخوم ، وهكذا الى أن وقعت بيد الاتراك حكومة بربروس فى اواسط القرن العاشر الهجرى ـ 16م ـ •

ومع هذا كله فما زلنا لا نعلم عن تاريخ هذه المؤسسة الدينية الكبرى : جامع سيدى بومروان شيئا ؟ !

فقد تواترت الاخبار على أن هذا المسجد أسس على عهد الدولة الزيرية الصنهاجية المتمثلة فى حكومتى القيروان والقلعة الحمادية أو بجاية ، والذى أشرف على بنائه وتأسيسه هو رجل علم وصلاح وكفاح ، وذلك هو أبو الليث البونى من عائلة محترمة هناك تعرف فى الوسط البونى بدار النيار ، ولا تزال بقية من أحفاد أحفادها الى عصرنا هذا وتمثل هذه المؤسسة فى تصميمها مسجدا ورباطا ، والرباط هذا هو ملاصق للمسجد من جهته البحرية ، واستمر هذا الرباط قائما الى حادثة انفجار السفينة فى فصل الشتاء من سنة 1965م • وانتشرت سمعة أبى الليث هذا بكونه هو القائم ببناء المسجد حتى صار اسمه مثلا يضرب ، وكلمة سائرة فى الاوساط البونية ـ العنابية ـ فانهم يقولون : (البنية لابى الليث ، والشنعة لابى مروان) وهم يقصدون بالشنعة الشهرة والسمعة ، حيث لا يعرف هذا المسجد الجامع فى الوسط العنابى الا بجامع أبى مروان •

وليس لدينا من المصادر التاريخية التى تعرضت لتاريخ بنائه سوى ما حققه علماء الآثار بالنظر الى مقارنته بغيره من المؤسسات الاسلامية وما دل عليه طرازه وشكله وهندسته المعمارية ووضعية ما احتوى عليه من السوارى الرومانية المجلوبة اليه والمستعملة فى تشييده وكيفية تجمعها حول محرابه وتحديد أقواسه وعقوده وحناياه وهيكل أبوابه وزخرفة قبته المفقودة اليوم ونقش بعض سواريه ، وتصميم الدهاليز

الموجودة تحت المسجد الى غير ذلك ، فنظروا الى هذا كله واستنتجوا نتيجتهم العلمية التى تقضى بعودة المسجد فى تاريخه الى أوائل القرن الحادى عشر الميلادى ، أى الى تقاليد فن الهندسة المعمارية أيام دولة بنى الاغلب وبنى عبيد وبنى زيرى الصنهاجيين أو آخر ألقرن الرابع وأوائل الخامس الهجريين .

ومما يؤكد لنا هذا ما جاء فى تقييد كتبه أحد علماء بونة وهو الشيخ أحمد بن قاسم البونى المتوفى سنة 1139هـ/1726م ، فانه ذكر فى تقييده تاريخ انشاء المسجد فقال : انه بنى على يد أبى الليث سنة 425هـ/1033م ، وكانت وفاة أبى الليث سنة 450هـ/1058م ، أى بعد ربع قرن من بناء المسجد ، وهذا التاريخ قريب جدا من تاريخ فتح عبد الملك المظفر بن المنصور بن أبى عامر لمدينة فاس باسم الدولة الاموية بالاندلس وما أحدثه هذا من تغيير فى قبة العنزة بالقرويين كما تقدمت الاشارة اليه ، فمن المحتمل ان يكون انشاء قبة جامع سيدى بومروان وقبة العنزة من فصيلة واحدة ، وفى عصر واحد ، وكذلك مثلهما قبة بين القهاوى ــ الباقية الى اليوم بسوسة ، ولكن لم يبلغها عن المروانيين انهم تقدموا الى الجانب الشرقى من هذا الشمال الافريقى حتى نستطيع أن نجزم بأن قبة بونة وقبة سوسة هما أثر من آثار دولة الامويين أو المروانيين بالمغرب ، ثم لا ندرى ما كانت صلاحية قبة (بين القهاوى) بسوسة ، بسبب ما طرأ على ما حولها من الانشاء والتعمير فتغير الوضع وحال ذلك بيننا وبين معرفة الحقيقة من انشاء هذه القبة ؟ .

بقيت لنا ملاحظة واحدة حول تاريخ المسجد الذى نقل على الشيخ أحمد بن قاسم البونى حيث جعله سنة 425هـ/1033م ، والحالة ان التاريخ يحدثنا عن هذه السنة نفسها بأنه وقع فيها اعتداء عظيم على مدينة بونة من طرف الجنويز وأحلافهم أهل بيزا الايطاليين فوقع فى المدينة تحطيم وتخريب كبير ، فكيف يمكن الجمع بين البناء والتشييد مع التحطيم والتخريب ؟ .

أقول لا مانع ــ ان صح هذا التاريخ ــ من أن يكون هذا التخريب حدث فى أول السنة أو فى وسطها ثم أعقبه تشييد الجامع المذكور ؟ ... ولا سيما انه لم يرد ضبط ذلك بالاشهر ، لا فى التخريب ولا فى التحطيم ولا فى التشييد ، وكذلك نستطيع

أن نفهم هذا من قول المؤرخين ما سورت المدينة الا بعد الخمسين وأربعمائة للهجرة . فهل هذا يكفى للتحقيق من هذا التاريخ فى بناء المسجد ؟ .

ثم من هو هذا بو مروان أو سيدى بو مروان الذى ينسب اليه هذا المسجد ؟ واشتهر به ؟ لقد عرفنا فيما مر بنا من الحديث وان بناء هذا المسجد وتشييده كان على يد ذلك الرجل العظيم أبو الليث البونى سنة 425هـ/1033م ، ولكن اسمه كما رأينا انغمر واختفى أمام شهرة أبى مروان ، حتى أصبح ذلك مثلا يضرب بين الناس ، فانهم يقولون : « البنية لابى الليث ، والشنعة لابى مروان » فمن هو بو مروان ؟

بو مروان هذا ذكرته كتب التراجم بوصفه رجل علم وصلاح وعقل ولسان وحفظ وبيان ، فهو بو مروان عبد الملك البونى ، ومنهم من سماه أبا عبد الملك مروان بن محمد نشأ بالاندلس فسكن قرطبة واشتغل بعلوم الشريعة وتخرج على يده جمع من العلماء ، وانتقل الى بونة وعمر هذا المسجد بعلمه ودروسه ، ولما توفى دفن برباط المسجد المتصل به ، وكانت وفاته رحمه الله سنة 439هـ/1047م ، وكان من بين مؤلفاته التى كان معول الناس عليها شرحه على موطأ الامام مالك بن أنس ، وقد ترجمنا له فى كتابنا : تاريخ الجزائر العام بما فيه الكفاية . وشكـرا .

عنابة
في نظر الرحالين الألمان

د . ابو العيد دودو
معهد اللغة والأدب العربي
جامعة الجزائر

زار بعض الرحالين الالمان مدينة عنابة كما زاروا غيرها من المدن الجزائرية ، وتحدثوا عنهـا في فترات تاريخية متقاربة . ولكن نظرتهم اليها كانت متفاوتة الى حد ما . فقد اكتفى بعضهم بتقديم صورة وصفية لها ، مثل بوكلر موسكار ، بينما حاول غيره تقديم وصف شامل لها جغرافيا وتاريخيا . وهنا فريق ثالث اهتم بماضيها التاريخي أكثر من اهتمامه بحاضرها ، لانه لم يجد فيها ما يثير انتباهه .

ويبدو لي ـ حتى هذه اللحظـة على الاقل ـ أن الرحالة الالمـاني موريتس فاغنر (1813 ـ 1887) أول من تحدث عنها باسهاب في كتابه « رحالات في ولاية الجزائر في سنوات 1836 ، 1837 و 1838 » الذي أصدره سنة 1841 ، وتحدث فيه عن مناطـق مختلفة من الجزائر . وكان فاغنر قد زار عنابة عام 1837 ، وأقام بها حوالي سبعة أشهر ، أي من 25 ماي الى نهاية شهر ديسمبر من السنة نفسها ، ووصلها على متن باخرة ، ومن

ثم بدأ وصفه لها فيها ، فقد جليت انتباهه القصبة ، التي عرفت ـ على حد تعبيره ـ محنا كثيرة منذ سنة 1832 ، حين ارسلت منها طلقة مدفع تحية للسفينة التي كانت في تلك اللحظة تقترب من الميناء ، أو بعبارة أخرى تقترب من خليج المدينة ، لان عنابة لم يكن لها ميناء ، يحمي السفن القادمة اليها من سطوة الرياح والعواصف العاتية .

وهذا الوضع يحمل الرحالة على المقارنة بين ميناء عنابة وبقية الموانىء الاخرى في الشواطىء الجزائرية ، فيذكر انه يعتبر ـ بعد ميناء مستغانم ـ أردأ الموانىء الجزائرية ، فكثيرا ما تتعرض السفن فيه للغرق ، وهو ما يمنع المدينة من أن تصبح مركزا تجاريا هاما (1/233) .

ويتحدث فاغنر (1/234) عن الاثر الذي يتركه منظر عنابة في النفس ، فالمناظـــر المتنوعة من جبال عالية ، وصخور جرداء ، وتلال مخضرة ، وسهول شاسعة ، ووديان واسعة ، كل ذلك يترك في النفس أثرا لذيذا مبهما . أما المدينة نفسها ، مدينة العناب ، فذات طابع ريفي هادىء .

وينتقل بعد ذلك الى الحديث عن سكانها في تلك الفترة ، فيشير الى ان عدد الاوروبيين قد بلغ في النصف الاولى من سنة 1839 (وهذا يدل على أن فاغنر كان يتتبع اخبـــار عنابة حتى بعد مغادرته لها بمدة طويلة) 3111 ، من بينهم 1120 من الفرنسيين ، و1209 من المالطاليين ، و 524 من الايطاليين ، و 121 من الاسبانيين ، و 122 من الالمانيين ، و5 من اليونانيين ، هذا بينما لا يزيد عدد السكان من المواطنين عن 1500 ، ثلثهم من العرب ، والقسم الباقي من الاتراك والكراغلة والزنوج وغيرهم .

ويحمل فاغنر ابن عيسى ، قائد قوات أحمد باي ، مسؤولية قلة السكان هذه ، ويتهمه بانه قد هدم القسم الاكبر من مدينة عنابة سنة 1832 ، وأرغم سكانها ، الـــذين كان عددهم يبلغ حوالي 6000 نسمة ، على مغادرتها والهجرة الى مدن أخرى . والمدينة مقسمة الى حيين ، حي أسفل كبير ، يقع في السهل ، وشوارعه واسعة ومضاءة نسبيا ، ولكنها ليست نظيفة ولا هي متناسقة . وتوجد بالميدان الكبير دور بنيت على الطريقة الفرنسية، وحولها أشجار باسقة ، ومنظرها جميل ، الا أن عيبها الوحيد يتمثل في أن جدرانهـــا

تنهار فى مواسم الامطار · ونظرا الى أن من ينزل بها لا ينوى الاستقرار فيها لمدة طويلة ـ فالمناخ غير صحى من جهة،وهى لا تقدم شيئا لمن لا يحب الصيد والمناظر الجميلة من جهة أخرى ـ فقد أقيمت تلك الدور بسرعة وروعى فيها قلة التكاليف والجمال الظاهرى ، دون أى اعتبار لما قد ينجم عن ذلك من اخطار · واذا استثنى المرء المالطيين ، فان الجميع ينوون الخروج منها بعد جمع تصيب من المال ، وبيعها لمن يرغب فى الاقامة بعنابة باثمان مرتفعة ·

اما الحى الاعلى فهو يشبه ما هو موجود فى مدينة الجزائر، الا انه دونه علوا وانحدارا، ويحتل أحد التلال ، ولا يزال يحتفظ بمظهره العربى ، ودوره أوطأ من دور مدينة الجزائر ، وتكاد تكون كلها أرضية ، ولا تحتوى على ما تحتوى عليه دور مدينة الجزائر من اعمدة ونقوش وزخارف بديعة · ويصف فاغنر (235/1) منزل القائد العسكرى فى عنابة ، بأنه دون فنادق الجزائر ومطاعمها حجما وراحة ، فليس به سوى بهو واحد فى الجانب البحرى · اما مسكن المقدم يوسف الشهير ، الذى كان قد انتقل فى تلك الفترة الى وهران ليقود فرقة الصبائحية ، فلم يكن يخلو من فخامة شرقية ، فهو واسع الى حد ما ، وليس عاليا ، ولا له مظهر خارجى جميل ·

ولا ينسى فاغنر أن يتحدث عن الجانب الدينى لمدينة عنابة ، فيعترف بأنها لم يعد بها من المساجد ما يجلب الانتباه ، فقد حول أكبر مسجد بها الى كنيسة · وبالمقابل ليس فيها من البنايات الفرنسية الجديدة غير المستشفى الذى تتسع بنايته لاكثر من ألف مريض ·

وعنابة ليس لها غير بابين ، باب قسنطينة ، الذى يؤدى الى معسكر الدريعان ، وباب دامريمون الذى يفضى الى القصبة · وهى قلعة شامخة تقع فوق تل منعزل ، وتسيطر على المنطقة كلها ، ومصير المدينة بيد من يتمكن من احتلالها ·

وفى جزء آخر يتحدث فاغنر عن تاريخ عنابة الحديث ، فيذكر (165/3) أن الجنرال بورمون استولى عليها فى بداية الاحتلال ، ودافع عنها ضد هجمات العرب ، ثم أمر باخلائها · وبعد خروج قواته منها احتلتها القبائل العربية ، وعاقبت السكان الذين

سمحوا للكفار بالاقامة فيها · وكان حاكمها فى ذلك الحين تركى يدعى سيدى أحمد ، يقيم فى القصبة ويدافع عن المدينة مع بضع مئات من مواطنيه · وكان هذا الشيخ التركى قد بعث برسالة الى الجنرال بيرتزين ، طلب منه فيها أن يساعده ويرسل له الجنود والذخيرة ، ولكنه اشترط عليه أن تكون القوات المساعدة من الاهالى فقط · فأرسل اليه الجنرال فرقة تتكون من 125 زواويا مسلما ، ولكنه أسند قيادتها الى ضابطين فرنسيين ، هما هودير وبيغو · فاستاء سيدى أحمد لوجود ضابطين فرنسيين لم يطلب حضورهما ، ولذلك سرعان ما وقع خلاف بينه وبين هودير ، تطور الى عداء صريح ، كانت نتيجته ان استولى هودير على القصبة ، وبذلك أصبحت المدينة تحت سيطرته (178/3) ·

وبما أن طبيعة التركى تميل الى التمرد والعصيان ، فقد ثار الاتراك على الضابط الفرنسى ، وفى مقدمتهم ابراهيم ، باى قسنطينة السابق ، وكان هذا المكار الغادر قد كسب ثقة هودير ، فطلب منه مبلغا من المال ، رشا به من بقى من الاتراك ، فاستولى بمساعدتهم على القصبة أثناء وجود هودير بالمدينة · وحين ظهر الضابطان الفرنسيان أمام القصبة ، بصحبة من بقى على ولائه لهما من الزواوة ، أطلقوا عليهم نيران بنادقهم ، فرجعوا من حيث أتوا ، ودخلوا المدينة · فأخبر سكانها الضابط هودير بأنه لا يستطيع أن يطمئن على حياته بينهم لمدة طويلة ، فالعرب ينوون القيام بمهاجمة المدينة طامعين فى وقوف بعض سكانها الى جانبهم · وعندئذ أسرع الضباط الفرنسيون الى الميناء ليصعدوا الى احدى سفنهم ، الا أن العرب كانوا قد حطموا الابواب فى تلك اللحظة نفسها ، ودخلوا المدينة ، فانضم اليهم عدد من سكانها ، فنشبت بينهم معركة فى الشارع ، قتل خلالها النقيب بيغو · واتجه من بقى من الفرنسيين والزواوة الى القوارب ، فقتل بعضهم أثناء الصعود اليها ومن بينهم القائد هودير ، الذى تلقى رصاصة فى صدره ، وأسر عدد من جنود البحرية الفرنسية (179/3) ·

وحين سمع الجنرال بيرتزين لهذه الحوادث الدامية ، أرسل الى عنابة القائد دو فيغى وتحت امرته 250 زواويا ، موزعين على سفينتين ، فاستطاع أن يسترد الاسرى ، ولكنه عجز عن القيام بأى عمل حربى ضد القصبة الحصينة فعاد الى الجزائر خائبا ·

ورغم حصانة القصبة استطاع الفرنسيون احتلالها سنة 1832 ، وقد تم لهم ذلك بطريقة سهلة ، الا أنها تنم عن شجاعة نادرة ، اذ توجه اليها رجلان جريئان ، لم يصحبا معهما أكثر من 30 ملاحا ، واستطاعا أخذها رغم وجود الحامية التركية بها ، ورغم وجود خليفة باي قسنطينة بجيشه فى سفح الجبل • وكانت القصبة فى ذلك الحين بيد ابراهيم، وهو تركى طموح مغرور ، كان يود أن يحتفظ بالقصبة لنفسه . ويقاوم ابن عيسى من جهة ، ومطامح الضابطين الفرنسيين ، يوسف ودار مندى ، اللذين كانا قد وصلا الى مدينة عنابة بسفينة حربية صغيرة من غير قوات برية (236/3) •

وعندما هم ابن عيسى بمهاجمة القصبة ، قرر الضابطان الفرنسيان أن يـــدخلا القصبة ، مع البحارة الثلاثين المسلحين ، طوعا أو كرها ، ويشاركا فى الدفاع عنها • ولكن ابراهيم التركى ، الذى تصور ان قيادته العامة سوف يعرضها للخطر وجـــود فرقة فرنسية ، منعهما من الدخول • وحينئذ نشبت معركة بين رجال الحامية نفسها ، فاغتنم يوسف تلك الفرصة ، واستمال عددا منهم ، فأيدوه ، واذ ذاك وجـد ابراهيم التركى نفسه مرغما على مغادرة المدينة مع عدد من أتباعه ، الامر الذى سهل على يوسف ودار مندى والملاحين الثلاثين احتلال القصبة والسيطرة عليها • ولكن الاتراك دبروا مؤامرة ضدهم ، ولولا يقظة يوسف وشجاعته التى مكنته من القضاء على رؤوس المؤامرة لقتلوا جميعا ولفقدوا قلعة القصبة •

وبعد حين استطاعت هذه الفرقة نفسها أن تحتل المدينة أيضا ، ذلك أن ابن عيسى تخلى عن عنابة حين تبين له استحالة الاستيلاء على القصبة التى تدافع عنها حاميـــة فرنسية بمجرد أن وقعت قربه قذائف فرنسية أطلقتها حامية القلعة • وقامت بعض القبائل العربية ، بتحريض من ابراهيم التركى ، بمهاجمة مدينة عنابة مرات عديدة ، ولكنها كانت ترد دائما على أعقابها • ولما استتب الامر ليوسف نظم فرقته التـركية ، وقام بعدة غزوات فى نواحى المدينة ، فهاجم بعض القرى المجاورة ، ويخضع سكانها • وبعد ذلك حلت بالمدينة حامية فرنسية كبيرة ، وضعت تحت قيادة الجنرال مونـك دوزير ، الذى استطاع أن يستميل بحلمه وحكمته عددا من القبائل القريبة من عنابة (198/1،237/3) •

ويصف فاغنر الحياة فى عنابة بعد الاحتلال وأثناء الاستعداد للقيام بحملة قسنطينة الثانية ، بأنها هادئة ورتيبة الى حد ما ، لا يمكن مقارنتها بالحياة فى الجزائر بوجه من الوجوه ، فقد كانت مليئة بالجنود والسواح والاجانب والمغاربين ، مما جعل الحياة فيها أغلى من الحياة فى العاصمة البريطانية ·

* * *

واذا كان فاغنر قد اهتم بتاريخ عنابة ، وروى ما وصل الى سمعه من أحداثها فى ذلك الحين ، فان مواطنه هاينريش فون مالتسان (1826 ـ 1874) ، الذى زار عنابة فى خمسينيات القرن الماضى ، لم يهتم فى كتابه « ثلاث سنوات فى شمال غربى افريقيا » الذى نشره عام 1863 ، بهذا الجانب اطلاقا · فبعد حديث قصير عن موانئها الثلاثة ، التى اعتبرها غير صالحة للسفن ، قال عن المدينة (2/259) انها لا تحتوى على شىء جدير بأن يثير اهتمامه ، فهى تكاد تكون مدينة أوروبية محضة ، ولذلك تركها وخرج يبحث عن عنابة القديمة ·

وبعد أن يناقش من كتب عنها من المؤلفين فى موقعها ، يذكر ان اسم هيبو أو هيبونا مشتق من الكلمة الفينيقية ايبو ، التى تعنى « الجمال » أو « الفخامة » ، وهناك فى نظره (2/261) مدن كثيرة فى افريقيا واسبانيا وفلسطين ، كان لها نفس الاسم ، منها مدينة يوبو ، أو يافا ، تعود الى الاصل نفسه ، وتوجد بافريقيا نفسها ثلاث مدن ، اثنتان بالجزائر وواحدة بتونس حسب ما ذكره مؤرخو الرومان · وبناء على مدلول الكلمة الفينيقية فان هيبو تعنى المدينة الجميلة أو الفاخرة ·

وكانت عنابة احدى عواصم المملكة النوميدية منذ الحرب الفينيقية الاولى الى أن احتلها الرومان وضموا المملكة كلها اليهم ، وقد وصفها الشاعر الرومانى سيليوس ايتالكوس بأنها كانت محبوبة لدى الملوك القدامى · ومع ذلك فان مدينة عنابة لم تزدهر الا فيما بين القرنين الثانى والرابع ، حيث نشطت فيها الحركة التجارية ، وهذا ما يفسر كثرة عدد اليهود الذين كانوا يقيمون بها فى العصور المسيحية الاولى · فكانت عنابة تمد روما بأشياء كثيرة ، من عاج ، وذهب ، وخشب ومختلف أنواع البهارات ، وكانت تمتاز أيضا بصناعاتها الخشبية (2/226) التى كانت تباع بأثمان مرتفعة جدا · وقد

لعبت عنابة دورا كبيرا فى تاريخ المسيحية ، خاصة وان القديس أغوستينوس كـــان يعيش بها ، وتوفى اثناء حصار الفندال للمدينة • واعترف مالتسان بأنه لم يعثر على آثار ذات أهمية بعنابة القديمة ، فقد دمرها الفندال تدميرا كاملا ، ولم يتركوا منهـا غير الاسقفية ومنزل قديسهـا •

هذه خلاصة ما كتبه هذان الرحالان الالمانيان عن عنابة ، وقد اقتصرت عليهما لعدم وجود مصادر أخرى تحت يدى فى هذه الآونة ، وانى لارجو أن تتـــاح لى الفرصة فى المستقبل لتقديم معلومات أخرى عن الحياة الاجتماعية والسياسية بمدينة عنابة خلال النصف الاول من القرن الماضى •

جوانب من
تاريخ بونة الثقافي والسياسي
عبر العصور

المهدى البوعبدلى

عضو المجلس الاسلامى الاعلى

ــ الجزائر ــ

اشتهرت هذه المدينة ابتداء من القرن الرابع قبل الميلاد ، فى عهد المملكتين البربريتين اللتين تقاسمتا بلاد الجزائر الحالية ، وقد عرفتا فى التاريخ باسم ماسيسيل (Massessyles) وماسيل (Massyles)

فالاولى كانت تطلق على المنطقة الغربية وكانت عاصمتها مدينة سيفًا التى تبعد عن مرسى أرشقون، حيث مصب نهر تافنا فى البحر الابيض المتوسط (تلمسان) والثانية كانت عاصمتها سيرتا مدينة قسنطينة الحالية ، وكثيرا ما كانت تتخذ بونة مقرا لملوك هذا القطاع ، ولهذا احتفظت بونة من ذلك العهد بمركزها الدينى حيث اتخذتها الكنيسة المسيحية مركزا ثانيا بعد مركز قرطاجنة • (1)

(1) L'Algérie dans l'antiquité, par Mahfoud Kaddache.

طبع الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ــ الجزائر •

كانت بونة اذ ذاك تدعى بهيبو ريجيوس (Hippo Régius) وكان الملك البربرى الذى تولى عليها قاية والد ماسنيسا المشهور بحروبه مع القرطاجنيين ·

ان موضوع دراستنا الذى ركزته عليه هو العهد الاسلامى ، وانما تعرضت لفترة ما قبل الاسلام كتمهيد ، حيث ان تاريخها الاسلامى مرتبط به ، اذ اشتهرت من أواخر القرن الرابع الميلادى باسقفيتها التى لعبت دورا ملموسا فى تطور الديانة المسيحية العالمية ، فقد اضفى عليها احد اساقفتها شهرة عالمية ، ويعد هذا الاسقف أعظم شخصية علمية ، تاثرت الحياة الفكرية المسيحية بشخصيته الى زماننا هذا ، اذ لا زالت تآليفه من أهم المراجع فى القضايا الدقيقة ؛ كان هذا الاسقف من مواليد سوق أهراس وبالضبط مداوروش ، وتثقف ثقافة عميقة بمسقط رأسه ، ثم بقرطاج وروما ، فاتقن عدة لغات ، منها الفنيقية واليونانية والبربرية واللاتينية وانتشرت تآليفه العقائدية فى الاوساط المسيحية بروما وقرطاج ، ومعظم تآليفه ، كتبها بكنيسة بونة ، التى كان يشغل فيها اذ ذاك رتبة مساعد لاسقفها الهرم ، ثم خاض غمار حروب الخلافات المذهبية التى كانت تتقاسم مسيحى ذلك العهد ، فاظهر عبقريته وقوة حججه ، حتى عد شخصية فذة ، لم تنجب الكنيسة المسيحية شخصية تضاهيه ، ولهذا كله ، اشتهرت بونة (هيبون) باسم اسقفها حتى بعد مضى قرون من الفتوحات الاسلامية ، ومن ذلك ان الجغرافى الاندلسى الشهير ، أبو عبيد البكرى عندما عرفها فى منتصف القرن الخامس الهجرى قال : « مدينة بونة أولية ، وهى مدينة أوغستين العالم بدين النصرانية ··· الخ » ·

فأوغستين هو اسم سانت أوغستين (Saint Augustin)

افتتح المسلمون بونة (2) على اصح الاقوال سنة 78 هـ · فى أيام حسان بن النعمان وكان سكانها الاصليون اذ ذاك ينتمون الى قبائل أوربة ومصمودة ، ونفزاوة وولهاصة ، وقد ملكها بنو الاغلب ثم الفاطميون ، الا انها كانت مدينة بسيطة كما عرفها ابن حوقل فى منتصف القرن الرابع فى كتابه « المسالك والممالك » فقال : « مدينة بونة مدينة مقتدرة ليست بالكبيرة ولا بالصغيرة ، وهى على نحر البحر ، ولها اسواق حسنة ، وتجارة

(2) دراسة محمد بن شنب نشرها فى التقويم الجزائرى لسنة 1331هـ/1913م·

مقصودة ، وأرباح متوسطة ، وفيها خصب ورخص موصوف . وفواكه كثيرة وبساتين قريبة وأكثر فاكهتها من باديتها ··· وبها معادن حديد كثيرة ويزرع بها الكتان ··· »

ثم يتعرض ابن حوقل الى مركزها السياسى فيقول : « ··· ولها عامل قائم بنفسه ومعه من البربر عسكر لا يزول كالرابطة ، وبها وجوه من التجارة ، كالصوف ، والاغنام، وبها من العسل والخيرات ما يزيد على من داناهم من البلاد المجاورة لهم وأكثر سوائمهم البقر ، ولهم اقليم واسع ··· الخ » .

فتعريف ابن حوقل صريح بان بونة التى تداول على حكمها اذ ذاك بنو الاغلب ، ثم الفاطميون ، كانت الى أواخر القرن الرابع بلدة متوسطة .

وقد عرفها بعد ابن حوقل ، أبو عبد الله محمد بن أحمد المقدسى (375 هـ/985م) فى كتابه « احسن التقاسيم فى معرفة الاقاليم » فقال : « ··· وبونة بحرية مسورة ، بها معدن حديد ، شربهم من آبار » .

وقد عرفها ، بعد تعريفه بمرسى الخزر مباشرة فقال : « ··· ومرسى الخزر مدينة فى جزيرة على البحر يدخل اليها من موضع واحد ومنها يرتفع المرجان لا معدن له غيرها ، ولا يخرج الا من بحرها » .

تمصرت بونة وازدهرت فى عهد الملك المعز بن باديس ، فى أوائل القرن الخامس لما أقطعها الى عم أبيه ، زاوى بن زيرى بن مناد، بعد وروده عليه من الاندلس حوالى 410 هـ .

هاجر زاوى كما هو مشهور من الجزائر الى الاندلس بعدما شارك فى تمرد أخيه ماكسن بن زيرى على قريبهم المنصور بن بلقين ، الذى خلف والده بلقين ، وقد تصدى لقمع الثوار حماد بن بلقين ، فقتل ماكسن ، ونجا زاوى من القتل ، الا انه أبعد الى الاندلس صحبة ابنى أخيه ماكسن ، وقد قام بدور خلد ذكره فى الاندلس وفى العالم الاسلامى ، حيث تزعم حركة الجيش البربرى عند سقوط الدولة الاموية بالاندلس ، وتولى حكم ما عرف بمملكة غرناطة التى كان أول مؤسسيها وبعد ما بلغه موت ابن أخيه المنصور بن بلقين ، اختار الرجوع الى البلاد بعد ان عين ابنى أخيه ماكسن وهما حبوس وحباسة على حكم غرناطة ، وبعد وصوله الى افريقية ، تلقاه المعز بن باديس بحفاوة

بالغة ، تعرض لها كل مؤرخي تلك الفترة ، ولا زال المؤرخون المعاصرون ، يستدلون بها على ما وصلت اليه الحضارة الزيرية اذ ذاك ، قيل ان المعز بن باديس اقطع لزاوى مدينة بونة التى اختارها للراحة والاستجمام ، ومن ذلك العهد صارت تعرف ببونة زاوى كما عرفها البكرى ، ذلك التعريف الذى لا زال مرجع الباحثين فى تاريخ بونة من مسلمين وأجانب ، وهذا تعريف البكرى لبونة بتمامه قال : « مدينة بونة أولية ، وهى مدينة أوغستين العالم بدين النصرانية ، وهى على ساحل البحر فى نشز من الارض ، منبع مطل على مدينة سبوس ، وتسمى اليوم مدينة زاوى ، وبينها وبين المدينة الحديثة ، نحو ثلاثة أميال ، ولها مساجد واسواق ، وحمام وهى ذات ثمر وزرع ، وقد سورت بونـــة الحديثة بعد الخمسين وأربعمائة ، وفى بونة الحديثة بئر على ضفة البحر ، منقورة فى حجر صلد ، يسمى بئر النثرة ، منها يشرب أكثر أهلها ، وبغربى هذه المدينة ماء سائـــح يسقى بساتين ، وهو مستنزه حسن ، ويطل على بونة جبل ادوغ ، وهو كثير الثلـــج والبرد ، ومن العجائب ان فيه مسجدا ، لا يزال عليه شىء من ذلك الثلج ، وان عم الجبل كله ومدينة بونة برية ، بحرية كثيرة اللحم واللبن ، والحوت ، والعسل ، وأكثر لحمانهم البقر ، الا انها يصح بها السودان ، ويسقم البيضان ، وحول بونة قبائل كثيرة مـــن البربر ، مصمودة ، وأوربة ، وغيرهما ، وأكثر تجارها اندلسيون ، ومستخلص بونـــة غير جباية بيت المال عشرون ألف دينار » • اهـ

فمن هذا التعريف المسهب ، يتبين ان بونة زاوى ، التى وصفها البكرى بانها فى سفح هيبون ، وعرفت بسيبوس ، هى التى قال عنها ، بانها تحتوى على المساجد والمحلات التجارية والحمامات ، ثم هناك المدينة الحديثة ، التى قال البكرى ان بينها وبين مدينـــة زاوى ثلاثة أميال ، وهى المدينة الحالية ، التى لا زالت باقية ، اذ الاولى هيبون احتفظت بآثارها المسيحية ، والثانية مدينة زاوى أو سيبوس اندثرت ، وانما اكتشفت بعض آثارها فى عهد الاحتلال ، والثالثة التى اطلق عليها البكرى فى تعريفه بونة الحديثـــة ، هى التى كتب لها الخلود •

لعبت بونة ادوارا فى التاريخ ، اذ كانت مرفأ للاساطيل التجارية والحربية بفضـــل موقعها الجغرافى ، اذ هى اقرب شواطىء افريقيـــا لكاقليارى (Cagliari) بساردينيا

التى كانت مركزا لاساطيل جنوب ايطاليا وغيرها من اساطيل المسيحيين ، وهذه الاساطيل كانت متصلة بها فى أزمنة السلم والحرب ·

كان المعز بن باديس الذى دامت دولته حوالى نصف قرن أى من 406 الى 453 هـ · على اصح الروايات ، بلغت مملكته أوج الرقى ، والعظمة ، والازدهار حتى ان ابن خلدون المشهور بتحفظه ، وصف هذه المملكة فى عهد المعز بن باديس بقوله : « كان اضخم ملك عرف للبربر بافريقيا ، واترفه وابذخه ··· الخ » وبطبيعة الحال كانت بونة اذ ذاك ، من المدن الرئيسية لمملكة المعز ، التى لا شك انه اعتنى بها عناية خاصة ، ترضية لعم والديه زاوى ، الذى زيادة على أواصر القربى نال شهرة البطولة والمجد فى الاندلس ، بقيت بونة تابعة لبنى زيرى عندما تقاسموا مملكتهم مع ابناء عمهم بنى حماد · حوالى سنة 408 هـ/1017 م ·

كان المعز بن باديس كما وصفه الكاتب الشهير أمية بن أبى الصلت الدانى الاندلسى الذى قال فيه : « ولم يكن احد فى زمانه أشد بأسا فى الملاحم ، ولا اطول يد بالمكارم ، ولا اغنى بلسان العرب ، ولا احنى على الادب ··· وكان متوقد الذهن ، حاضر الخاطر ، حاذقا بطرايق الالحان عالما بالمنثور والمنظور من الكلام ··· » (3) ·

وقال فيه ابن خلدون : « كان رقيقا رفيقا ، سمحا جوادا ، محبا للعلم وحامليه ، متجنبا لسفك الدماء ، حليما حسن الصحبة والعشرة، لين الجانب للاوداء ، خشنه للاعداء، ملك من برقة الى فاس ، وسكن الثوار بايناس منه وايساس . وكان يخضع لاحكام الشرع ··· الخ » · (4)

ولهذا نجد بونة ازدهرت فى عهده وتدفق عليها سيل من علماء البلاد والاندلس ، اذ صادف عمرانها خراب عاصمة القيروان ، التى خلفت مكانتها ، قلعة بنى حماد ، ثم بجاية ، والمهدية ، كان من جملة اللاجئين الاندلسيين الذين استوطنوا بونة أبو عبد الملك مروان بن على الاسدى القطان

(3) « الورقات » ج 2 . لحسن حسنى عبد الوهاب التونسى ·

(4) من دراسة لعبد العزيز الراجكوتى السلفى الاستاذ بالكلية الشرقية فى لاهور (باكستان) نشر مطبعة الاستقامة بمصر ·

القرطبي المعروف بالبوني ، ذلك العالم الذى اشتهرت به بونة الحديثة ، كما اشتهـرت بونـــة العتيقـة (هيبون) بسانت أوغستين (Saint Augustin)اشتهر أبو عبـــد الملـك مروان بعلمه وتآليفه ومساهمته فى ثورة الفقهاء التى كان جل افرادها بافريقية ، زملاء، خريجى مدرسة أبى الحسن القابسى ، تلك الثورة التى خصصت بعدة تآليف ولا زال معينها لم ينضب بعد ·

اشتهرت بونة أيضا فى تاريخها المبكر ، بانها من الثغور التى انشئت فيها الربطة اذ كان ساحلها معرضا للغارات البحرية ، التى كان يشنها عليها المسيحيون من جنوبى ايطاليا ، وسردانية ، ثم صقلية ولهذا لا نستغرب وجود المسجد الذى تحدث عنه البكرى، وقال انه يوجد فى قمة جبل ايدوغ ·

ورباطات الثغور كانت ملازمة للمساجد ، ونفس مسجد أبى مروان ، كان له رباط من أروع الرباطات فى الفن المعمارى والحربى ، وقد اهتم بدراسته كثير من علماء الآثار، وصلنا منها دراسة علمية قيمة لجروج مارسى (Georges Marçais) صاحب التآليف المشهورة فى الفن المعمارى الاسلامى بافريقية عامة ، وعهد بنى زيـــرى ، وآثار المعـز ابن باديس بالخصوص ، خصص مارسى دراسة عنونها بقوله : « جامع سيدى بومروان ببونة » · (5)

فبعد ان اعطى لمحة عن المسجد الذى هدم منه الكثير ، استعرض نقل وصف كثير من الباحثين ، الذين امكنتهم مشاهدته قبل تخريبه ، فكان من بين من ذكرهم ، الرحالة الحسن الوزان المعروف بليون الافريقى (Léon l'Africain) الذى زار بونة فى أوائل القرن العاشر الهجرى ، ثم الكاتب بيصونال (Peyssonnel) الذى زارها سنة 1725 ، ثـم الكاتبان ويلد ، ولصور ، اللذان زاراها سنة 1835 ، وأخيرا الكاتب الاثرى بربروقجير (Berbrugger) ، الذى وصف المسجد والرباط سنة 1843 ، وكل هؤلاء الباحثين نشروا صورا تدل على عظمتهما ، حتى ان بيصونال (Peyssonnel) قال : « ان احسن مبنى ببونة هو مسجد ابى مروان » وختم مارسى مقاله بعد ان وصف بتدقيق وتفصيل ما تبقى

(5) « Mélanges William Marçais » Edit. Maisonneuve ; Paris 1950.

من آثاره ، وختم حديثه عنه بقوله : « ان هذا المسجد كان من افخر المبانى التى احتفظت بها الجزائر من ماضيها المجيد، اذ هو عبارة عن مسجد للعبادة، ورباط للدفاع الوطنى» ·

ثم واصل مارسى حديثه عن المسجد والرباط فقال :

« ان الوصف الفنى للمسجد يمكننا من تحديد تاريخ بنائه ، ولهذا فان ما ذكره أحمد (6) البونى المؤرخ المحلى يتفق مع الواقع ، ففى تاليفه « الدرة المكنونة » قال : « ان بناء المسجد وقع سنة 425هـ/1033 م · بناه رجل صالح يدعى أبو الليث (7) المتوفى سنة 450هـ/1058 م ·

ثم واصل مارسى حديثه فقال :

« اما سيدى أبو مروان ، الذى لا زال المسجد يحمل اسمه ، فقد ورد على بونة سنة 489 هـ/1087 م · وقد توفى أبو مروان (8) سنة 505 هـ/ 1111 م ·

ثم ذكر مارسى ان هذه الفترة من تاريخ البناء تتفق مع مدة حكم الملك المعز بن باديس (1016 ـ 1062م) ثم استرسل فى حديثه فقال : « ··· ذكر ابن خلدون ان البربر كونوا مملكة فى ذلك العهد ، لم ير لها مثيل فى السعة والغنى ، وقد توقفت عجلة تاريخ هذا الازدهار بعد عشرين سنة مع الحملة الهلالية » ثم قال : «ان الخلافات وحروب الزيريين ملوك القيروان مع بنى عمهم بنى حماد ملوك القلعة وبجاية ، انتهت بالاتفاق الذى وقع سنة 1017 م · (408هـ) ذلك الاتفاق الذى اعترف للحماديين بحكم الناحية الغربية للمملكة ، بقيت بونة اذ ذاك تابعة لبنى زيرى أى المعز وبنيه من بعده » · اهـ

والحقيقة ان حكم بنى زيرى لم يطل على بونة ، ففى عهد المنصور بن الناصر بن علناس الحمادى ، لما ثار عليه عمه بالبار ولى قسنطينة ثم عزله المنصور ، وعين مكانه قريبه ، أبا يكنى بن محمد بن القائد بن حماد ، واضاف اليه بونة (وهذا دليل على ان بونة كانت تحت حكم الحماديين اذ ذاك) ثم ثار الوالى الجديد ، أى أبو يكنى والى بونة على المنصور ،

(6) أحمد بن قاسم ساسى البونى (1063 ـ 1139 هـ) ·

(7) ذكره أحمد ساسى فى قائمة علماء بونة وهو دفينها «الدرة المصونة فى علماء وصلحاء بونة » ·

(8) وقد غلط مارسى حيث ان أبا مروان ولد سنة 405 هـ ، وتوفى ببونة سنة 440 أو قبلها بقليل (الصلة لابن بشكوال) ·

حوالى سنة 487 هـ/1094 م · باتفاق مع تميم بن المعز بن باديس الذى ارسل له لاعانته ولده أبا الفتوح وتبين بعد ذلك ، انهم كانوا على اتفاق مع دولة المرابطين ، ولولا يقظة المنصور بن الناصر لاودوا بالدولة الحمادية الناشئة ، الا ان المنصور كان مستعدا للطوارىء ، فهاجمهم ، وحاصرهم ببونة سبعة اشهر ، والقى القبض على أبى الفتوح ابن تميم بن المعز بن باديس ، وفر أبويكنى بن محمد بن القائد بن حماد ، ورجع لمقر ولايته بقسنطينة ، الى ان قبضه المنصور وقتله ، ثم ولى المنصور وجهته الى الملك يوسف ابن تاشفين وهزمه فى معركة تاسالة ودخل تلمسان ، وذلك فى سنة 498 هـ/1105م · فتبين مما ذكر ، ان بونة لم تطل تبعيتها لحكم بنى زيرى ، بل استرجعت فى عهد المنصور ابن الناصر ، وبقى الحماديون يتداولون حكمها الى ان احتلها عبد المومن بن على مؤسس دولة الموحدين ، وقضى على الدولتين أى الحمادية والزيرية فى آن واحد ، بدليل أيضا ان الموحدين لما ملكوا بجاية فر منها ملكها يحيى بن العزيز الحمادى الى بونة التى كان أخوه الحارث بن العزيز متوليا عليها ، فأنبه على عدم دفاعه على بجاية فارتحل يحيى من بونة الى قسنطينة ، وكانت تحت حكم اخيه الثانى الحسن ، وانتهى الامر بمبايعة يحيى ابن العزيز لعبد المومن سنة سبع وأربعين ، ونزل عن قسنطينة ، واشترط الامان لنفسه، فوفى له عبد المومن ، ونقله الى مراكش ، فسكنها ، ثم انتقل الى سلا سنة 558 هـ · فسكن قصر بنى عشرة الى ان هلك فى سنته أى 558 هـ ·

واما الحارث بن العزيز حاكم بونة ، فانه رفض الاستسلام الى عبد المومن ، وفر الى صقلية مستصرخا صاحبها ، فوعده بالعون وبعد رجوعه الى بونة ، غلبه الموحدون وقتلوه صبرا وانقرض ملك بنى حماد ببونة لا ببجاية » · اهـ

ولنرجع الى دراسة مارسى ، فبعد ان بينا ان بونة انتقلت من حكم بنى زيرى فى عهد تميم بن المعز ، وبقيت تحت حكم بنى حماد الى ان لفظت دولة بنى حماد انفاسها فيها لا فى بجاية عاصمة المملكة ثم ذكر مارسى موقع بونة معتمدا فى ذلك على تحليل تعريف البكرى فقال : « ان البكرى الذى تحدث عن بونة ذكر ثلاثة مواضع :

1 ـ المدينة التى اشتهرت بأغستين : العالم المسيحى الشهير ، فهذه المدينة جبلية طريقها وعر ·

2 ـ المدينة الثانية فى سفحها وهى مدينة سيبوس التى تحتوى على المساجد والمحلات التجارية والحمامات ·

وهى المعروفة بمدينة زاوى ، وقد علق دوصلان (9) فى ترجمته لكتاب البكرى على كلمة زاوى فقال : « ان المقصود منه هو زاوى بن زيرى احد اعمام المعز رجع من غرناطة ولقيه المعز بحفاوة واقطعه بونة » ·

3 ـ بونة الحديثة التى قال عنها البكرى انها تبعد عن مدينة زاوى بنحو ثلاثة اميال وهى المدينة الاسلامية الآن » ·

ثم استرسل مارسى فى دراسته وقال : « فمن هذا يتبين ان هذه المدينة أى الاسلامية الحالية ، هى التى بعد الاولى ، التى هى هيبون ، والثانية التى اكتشف آثارها الاثريون وهى سيبوس أو مدينة زاوى بن زيرى » ، ثم شاءت الاقدار ، ان بونة لم تنتفع بتحصينها بحرا وبرا ، فقد قال الادريسى : انها فقدت مكانتها ، وازدهارها حيث استولى العربان على سهولها ، وسقطت المدينة فى يد روجار الثانى ، ملك صقلية النصرانى وذلك سنة 1153 م ·

ثم ختم مارسى دراسته بهذه الجملة التى قال فيها : « وقد امكن لهذه المدينة جمع الآثار الوثنية ، والمسيحية ، ثم الآثار الاسلامية ، الدالة على اشعاع الفن الاسلامى الافريقى » · اهـ

اشتهرت بونة أيضا بمركزها الاقتصادى فهى علاوة على معدنها الحديدى كانت بقربها مرسى مدينة الخزر التى قال عنها الشريف الادريسى فى « نزهة المشتاق » : « وهى مدينة صغيرة ، عليها سور حصين ، ولها قصبة ، وحولها عرب كثير ، وعمارة أهلها لها على صيد المرجان ، والمرجان يوجد بها كثيرا ، وهو أجل جميع المرجان الموجود بسائر الاقطار ، مثل ما يوجد منه بمدينة سبتة ، وصقلية ، ويقصد التجار من سائر الاقطار هذه المدينة ، فيخرجون منه الكثير الى جميع الجهات ، ومعدن هذا الجوهر فى هذه المدينة

(9) دوصلان Deslane ترجمان عسكرى كان فى ديوان الوالى العام بعد الاحتلال وترجم عدة كتب منها تاريخ ابن خلدون ، والمسالك والممالك للبكرى ·

مخدوم فى كل سنة ، ويعمل به فى كل الاوقات الخمسون قاريا »٠ (ثم يتعرض الادريسى بمزيد من البيان والتفصيل لكيفية صنع هذا المرجان) ٠٠٠ الخ ٠ اهـ

هذه نبذ ذكرناها من التاريخ السياسى والاقتصادى لهذه المدينة فى العهد الاسلامى، وقد استرجعت مكانتها فى العهد الحفصى حيث كانت تتقاسم ولايتها نخبة الامراء الحفصيين مع قسنطينة وبجاية ، وكثيرا ما يتولى ولاتها على المملكة كلها ابتداء من مؤسس الدولة الحفصية أبو زكرياء الذى مات بها ، ودفن فى ضريح مسجدها الاعظم ، وببونة أيضا بويع ولده المستنصر بالله ، الذى هو امثل ملوك الدولة الحفصية وخصه ابن خلدون بدراسة لم يحظ بمثلها غيره ، ولا يمكننا تتبع تاريخ هذه الفترة ، ولا فترة العهد التركى ، وانما نذكر نبذة من تاريخها الثقافى ثم نختم هذه الدراسة بلقطات من عهدها بعد الاحتلال الفرنسى ٠

فتاريخها الثقافى يظهر انها لم تخل من استيطان نخبة فطاحل العلماء ، ابتداء من القرن الخامس ، أى من عهد أبى مروان حسبما نجده فى كتب التراجم ، وفى التاليفين القيمين اللذين خصصهما على فضلون لتراجم علمائها ـ كما ذكرنا ـ ابتداء من القرن الخامس الى القرن التاسع ، ثم واصل هذا التاريخ أحمد ساسى البونى من القرن التاسع الى منتصف القرن الثانى عشر ، وهذان التأليفان من التاريخ الجهوى ، فالاول نثر ، والثانى نظم ، وقد شرح احمد ساسى تاليفه ، الا انه لم يصلنا مع الاسف الا تاليف أحمد ساسى البونى (1063 ـ 1139هـ) « الدرة المصونة فى علماء وصلحاء بونة » وكانت تحتوى على 3000 بيتا ، ثم اختصرها فى ألف بيت ، وعرفت بالالفية ، وقد استوعب فيها تاليف مواطنه على فضلون الذى انهاه بتراجم علماء القرن التاسع ٠

وأحمد ساسى هذا من أكابر علماء عهده، فقد ترجمه العالم الذائع الصيت عبد الرحمن الجامعى الفاسى فى رحلته : « التاج المشرق الجامع ليواقيت المغرب والمشرق » اذ زاره بمحله سنة 1120 هـ ، واقام عنده مدة قال فيها : « لما دخلتها ـ يعنى بونة ـ اممت دار الشيخ الربانى ، العالم العرفانى الولى الصالح ، البر الناجح ، أبى عبد الله قاسم ابن الولى الصالح أبى عبد الله محمد المعروف ساسى ، فوجدته طلق المحيا ، وانزلنى بمنزل لاكرام اضيافه مهيا ، فاقمت عنده ينزهنى فى كل يوم فى رياض تآليفه الحديثة ،

وغيرها وينثر على كل ساعة من فوائد فوائده ما تبخل به على الغائصين قعور بحرها ، وكنت احضر تلك المدة مجلس رواية الصحيحين بين يديه ، مع مشائخ بلده وولديه ، ومما رويته عنه فسح الله فى اجله وأسهب ، (وان تآليفه بلغت ما ينيف على المائـــة ما بين مختصر ومسهب) ولما وقفت فى علم الحديث على البحر العباب ، والعجب العجاب، سألته الاجازة فيما وقفت عليه وغيره من تصانيفه ... الخ » . (10) اهـ

وقد افرد أحمد ساسى البونى تآليفه فى كتاب سماه « التعريف بما للقفير من التآليف » (11) ومنهاج المؤلف فى « الدرة المصونة » انه بعد ان ذكر العلماء الذين ذكرهم على فضلون فى تآليفه أى من القرن الخامس الى القرن التاسع ، ألحق بهم علماء القرون العاشر والحادى والثانى عشر وابتدأ بعلماء البلدة ثم ضواحيها القريبة ثم الواردين عليها شرقا وغربا ، استهل منظومته هذه بقوله :

يقول راجى عفو رب راحـــم	من كل ذنب أحمد بن قاســم
ابـن محمـــد ابـن المسيـــتى	ثـم التميـــمى بـــلا تنكيـت

ثـم يقول :

لذاك رام منى بعض الاذكيـــاء	توســلا بذكر بعض الازكيـــا
فجئتـه « بـــدرة مصونـــة »	ذكـرت فيهـــا أوليـاء بونـــة
لكن بـــلا طـول ولا تاريـــخ	لضيـق نظـــم بهـــم صريخى

الى ان يقول :

واستعينـــه عــــلى الفيـــة	بذكر بعض مجدهـــم وفيـــة
وربمـــا سمحـــت القريحـــة	فى بعضهـــم بنبـذة صريحـة
طالبهـــا مســـافر وذو عجـــل	زودتـه بها وانى فى خجـــل
ومن يـــرد زيـــادة كثـــيرة	فلينظـر المنظـــومة الكبـــيرة
عـــددها كبيعـــة الرضـــوان	تسـلى عـن الاخوان والغوانى

(10) « تعريف الخلف لرجال السلف » ج 2 . لابى القاسم الحفناوى .
(11) ذكره أيضا أبو القاسم الحفناوى فى « تعريف الخلف لرجال السلف » .

الى ان يقول :

وقـــد اردت ذكرهــم تفصيــلا / لكى أنــال بهــم تحصيــلا
حواهــم جمع (على فضلونى) / لآخـــر التاسـع مـن قـــرون
ثـم اتيـت بالذيـــن بعـــده / أرجـو بهـم تفريج كل شـــدة
من عاشر القرون والحـادى عشر / وفى البلاد ذكرهـم قد انتشر
قد عرفـوا بعلـم أو صـــلاح / وربنا المسؤول فى الفــلاح
وبعدهـم اذكـــر أهل الزمـن / من كان فى البلد أو فى الوطن
أو دخـــل البلد أو شيخا لنا / هـل يفـرج الكريـــم هولنـا
بشرط ان كانوا لعلـــم درسوا / أو لصلاح نسبـــوا ما اندرسوا

بين أحمد ساسى منهاجه فى المنظومة التى وان كانت من قسم التاريخ الجهوى الذى انتشر فى الجزائر ابتداء من القرن التاسع الهجرى ، فهى مزيج بين التاريخ والاستغاثة ، وهذه الاخيرة وان كان جل اصحابها يفرغونها فى قالب دعاء وابتهال الى الله ويدعون الله لينتقم من ظاليمهم ، وقد انتشرت فى الجزائر ، ابتداء من القرن التاسع الهجرى ، الا انها مفيدة جدا من حيث تاريخ البلاد الجهوى ، وبعض هذه المنظومات يذكر فيهــا اصحابها العلماء والصالحين لمجرد التبرك بهم ، وأحمد ساسى صريح بان منظومته قصد بها أيضا الاستغاثة حيث قال :

ثـم اتيـت بالذيـــن بعـــده / أرجـو بهـم تفريـج كل شدة

وقد قسم « المنظومة » الى أبواب وفصول : « الباب الاول فى ذكر علماء وصلحاء بونة حرسها الله تعالى آمين الذين ذكرهم العلامة المؤرخ سيدى على فضلون البونى ممن كان فى البلد أو قريبا منه » :

اسأل ربى الحفـظ والاتقـــان / بالعارف القطـب ابى مــــروان
نور القلـوب شارح «الموطئ» / وبـين أهـل العلـــم ما تغطى
وقال بعض شرح « البخـارى » / وليس ذا بعجـــب يا قـــارى
ذكـــره عيـــاض والحلـــوانى / وابن سليمـــان أبـا خـــلانى

واما اشارته الى مكانة مترجميه وانتاجهم فهذا نموذج منها ٠

فذكر أحد مترجميه ابن رحمون بانه رحل الى تلمسان واخذ عن الامام ابن مرزوق وفى ذلك قال :

وبابن رحمون أى الفضل محمد المعظم الجلى
وهو الذى رحل لابن مرزوق أخذ عنه العلم فهو مصدوق

والنموذج الثانى الذى ذكر فيه مؤلفات مترجميه يتمثل فى ابى زكرياء الكسيلى الذى قال فيه :

وبأبى زكرياء الكسيلى العالم العلامة الجليل
مؤلفاته غدت عديدة كثيرة نافعة سديدة
تزيد فى العدد فوق الاربعين نثرا ونظما رشقت قلب اللعين
منها حواشيه على المرادى تسعة اسفار لدى التعداد ..الخ

وقبل ان ينتهى صاحب المنظومة من مترجمى مواطنه على فضلون (الذين استوعبهم فى منظومته) يلخص أوصافهم ومكاناتهم فى قوله :

فبعضهم فى المصر شعره وشى وبعضهم فاق على المراكشى
وبعضهم فى لغة قد نبغ ولكرامة الرجال بلغ
وبعضهم قاض وبعض مفتى وبعضهم مدرس ذو وقت
وبعضهم ألف فى الفرائض ففاق فيها صنع كل رائض
ولابن فضلون بذا منامه علا بها فى مصرنا مقامه
حاصلها انهم من أهل علم ونبل وتقى لا جهل

ثم يعقب الناظم على هذه الابيات بمقارنة المترجمين مع معاصريه فيقول :

والآن يلحنون فوق المنبر لا يقبلون النصح حتى من برى
لم يبق فيهم ناثر أو شاعر يحيى به الله ذوى المشاعر
وفى مواطن العلوم افلسوا لأنهم من كسبها قد فلسوا

وكتب الجهل على جباههم اليوم يختم على افواههم
لو كنت ارسلت عنان القول آلت فريضتهم للعول
ليت الجدود نظروا اليهم ولو رأوهم لبكوا عليهم

وقبل ان ينتهي من مترجمي على فضلون ويعقب عليهم بمترجميه نبه على ذلك بقوله :

وبابن فضلون على زين الخلف وهو الذى ذكر كل من سلف
وقد تبرعت بشيء فلا زيادة عليه لما كملا
وزاد هو أيضا اشياء اخرى فى « نثره » يرجو لديك ذخرا ..الخ

وان علماء بونة ونواحيها المذكورين فى هذه الارجوزة سواء من ذكرهم على فضلون أو أحمد ساسى هم سكان النواحى القريبة من البلدة . اما النواحى البعيدة كتيفاش وقالمة ... الخ . فلم يتعرضا لذكرهم وقد اشتهر كثير من نبغائهم ولهم مكانة فى كتب التراجم .

ولنختم هذه الدراسة بالتعرض الى جانب من تاريخها بعد الاحتلال الفرنسى أثار الجدل ولا زال الباحثون مهتمين به حيث لا زال يكتنفه الغموض ، وذلك مثل اتصال الولاة الفرنسيين باحمد باى قسنطينة وتولية المملوك يوسف بايا عليها ، وظهور فضائح اختلاس قام بها الماريشال كلوزيل ونائبه ببونة الجنرال ديزار (D'uzer)

كانت السلطات الفرنسية اثر احتلال العاصمة ، تنوى الاحتفاظ بمدن الشمال الرئيسية كالجزائر ووهران ثم بونة ، ولهذا كلف الوالى الفرنسى الدوك دو روفيقو (Duc de Rovigo) فى شهر أوت 1832 ، بالاتصال باحمد باى (12) ليعرض عليه شروط فرنسا لابرام معاهدة تعترف فيها بمناطق نفوذه ، وتتعهد له بالحماية والتأييد وكانت بنودها (13) كما يلى :

(12) حمدان بن عثمان خوجة المشهور .
(13) « حوليات بيليسى دو رينو (Annales Pelissier do Raynaut) ج 2 ، ص 259 .

1 ـ تسليم مدينة بونة (التى كان احتلالها وقع فى أواخر يوليو 1830) ٠

2 ـ الاعتراف بالسيادة الفرنسية ٠

3 ـ دفع جزية سنوية يقع الاتفاق عليها ٠

4 ـ اتخاذ مرسى بونة مركزا للصادرات والواردات بدلا من مرسى تونس ٠

5 ـ اعتراف فرنسا بمناطق نفوذه التى تحدد ، واعانته فى الميادين الحربية والاقتصادية ٠٠٠ الخ ٠

الا ان الباى أحمد رفض تلك الشروط جملة وصرح بانه مستعد لابرام معاهدة صلح لا معاهدة استسلام ، وأكد على انه من رعايا الباب العالى لا من رعايا الفرنسيين وركز رفضه للشروط التى يوجد من بينها تسليم مدينة بونة ، ودفع الجزية للمسيحيين ٠

وهنا بدأت مناورات المملوك (14) يوسف الذى كان الدافع الحقيقى له ، خشية ابرام هذه المعاهدة التى تحرمه من التولية على بونة التى وعد بها ، وبالفعل عين بايا عليها سنة 1836 ، بعد ان كان رائدا عسكريا ولعب ادوارا مخزية ببونة مدة حكمه على منطقتها ، من جملتها انه أسس شركة تجارية يرأسها المرابى اليهودى العسرى (Lassery) رأس مالها ما كان ينهب جيشه للسكان العزل ٠٠٠ الخ ٠

اما الفضيحة المالية التى هالت حكومة باريس وعينت لها لجنة بحث مدنية ، فهى تتلخص فى استيلاء الماريشال كلوزيل على عدة املاك ببونة زورت عقودها بواسطة الجنرال ديزار والى بونة ، وكان الفضل فى اكتشافها لقاضى بونة الشرعى الذى وجد املاك الاحباس ضمن الاملاك المختلسة ، والذى لعب دورا فى القضية هو مصطفى بن كريم

(14) كان من مماليك بايات تونس والتحق بالجيش الفرنسى بعد احتلال الجزائر ولاطلاعه على « خبايا القصور » وتضلعه باللغة العربية لعب ادوارا كثيرة استفاد منها جيش الاحتلال خصوصا المكيدة التى دبرها عندما استولى على زمالة الامير عبد القادر وغيرها الا انه جوزى جزاء سنمار وابعد نهائيا من الجزائر ٠

الذى حملته لجنة البحث المسؤولية ، وأدانته ، الا ان السلطات ، مكنته من اللجوء الى تونس وأخيرا أى حوالى سنة 1295 هـ · زار المدينة محمد بيرم الخامس ودون انطباعاته عنها فى رحلته « صفوة (15) الاعتبار بمستودع الامصار والاقطار » وهى هامة فى موضوعها ·

هذه لقطات من تاريخ هذه المدينة لمختلف عصورها ذكرناها باجمال ، ونتمنى ان يكون هذا الملتقى سببا لجمع ما امكن من ماضيها المجيد ، وان لا يقتصر المسؤولون عن تقديم كتب أنيقة الطبع ، مزخرفة ، الا ان محتواها منقول كله عما كتبه المستعمرون فى عهد كانوا يرون فيه العهد الاسلامى لا يثير انتباههم اللهم الا اذا عدت نقائصه ·

---

(15) المطبعة الاعلامية بمصر سنة 1303 هـ ·

جولة فى متحف عنابة

د · سعيــد دحمـانى
محافظ متحف عنابة

تمتاز آثار « بونــة العتيقــة » ، مبانيها وتحفها ، بشخصية قوية وتشعب الاصول سواء أكان من الوجهة التاريخية أو من الوجهة الاثرية · فكانت من المواضع الاثرية الممتازة · وقد تكون « بونة العتيقة » من الوثائق الاساسية الدالة عل مدى غنى، وعبقرية، تاريخ، وحضارة بــلادنـا ·

تقع « بونة العتيقة » على مسافة ثلاثة كلم ، جنوبى مدينة عنابة ، فى طريق الحجار وسوق اهراس ·

ويشرف الموقع الحالى والعتيق شرقا على خليج عنابة ، ويحاذيه غربا السهل والربى المترامية عند سفح جبل الزغوغ (كما يسميه البكرى) · كما يحاصر موقع «بونة العتيقة» مجرى وادى بوجمعه الاسفل من الشمال الغربى ، ومجرى وادى سيبوس الاسفل من الجنوب الشرقى ·

لم تكشف الوثائق الى حد الآن عن المخططين الاوائل لمدينة بونة ، غير أن هناك أدلة كثيرة تبرهن على استمرار العمران الانسانى بالجهة منذ عصور ما قبل التاريخ ، مثل الصوان المنحوت والمبانى الميغاليتية والدلمن ·

أما بالنسبة للفترة التى تمتــد من بداية التاريخ الى حوالى القرن الثانى عشر قبل الميلاد ، فلا يزال الغموض سادلا أستاره فلا تبرز الوثائق التاريخية وجود شعوب المور والامازيغ السياسى والاقتصادى الا ابتداء من القرن الثالث قبل الميلاد حيث تبين ان قلب الدولة الامازيغية يمتد على طرفى المحور الرابط بونة بتفلستة (تبسة) ·

فان لم تؤكد الوثائق التاريخية أو الاثرية بعد،ازدهار حضارة أصيلة متقدمــة فى هذه الربوع ، فهى لا تنفيه ·

ولذلك يمكن الاعتقاد انه قد استعمل هذا الموقع كمدينة أو ميناء أمازيغى فى تلك العصور الصامتة ·

وقد عرف هذا الميناء اقبالا منذ القرن الثانى عشر قبل الميلاد ، اذ استعمل البونيقيون الميناء كمرحلة فى ملاحتهم طوال سواحل البحر الابيض المتوسط قبل انتصاب قرطاجة ونفوذها فى هذه الربوع ·

ولكن فى انتظار نتائج الدراسات الجارية ، فنحن نعتقد انه من الاسلم البحث عن أصل أمازيغى أول لموقع بونة ، لا سيما ان أكبر حصيلة عن النقوش اللوبية وجدت بهذه الربوع وخاصة بجبهة الشافية (أنظر صورة 1) ·

ويســود مفهــوم كلمــة هبــو : نفــس الغموض فــأدى ذلك الى تاويــلات كثيرة · ومـن أقــربها الى الــواقع ان هنـاك شبهــا بـين هبــو ، باللفظــة البــونيقية (أبــون) ومعنـاهـا خليــج أو مــاوى · وحيــث كـان مــوقع المـدينة سـاحليا يـلائم ضبـط اللفظـة البـونيقية ، فمـن المفتــرض ان اعطــاء البـونيقيين هـذه التسمية للمينــاء أو القلعــة التـى كــانوا يرســون فيهــا



1 ـ شواهد قبرية نقشت بالاحرف اللوبية

أو القلعة التى كانوا يرسون فيها ، أو التى شاركوا فى تحويرها أو الانتصاب فيها بين القرن الثانى عشر والثامن قبل الميلاد فكان « ابون كذا ··· » أى « خليج أو ميناء كذا ··· » وبطول المدة لم يبق الا « ابون » التى حرفت الى « هبو » ومنها الى بونة ·

اما دخول بونة فى بوتقة قرطاجة فيرجع الى القرنين السادس أو الخامس ق·م ، اثر تحالف أو خضوع تحت الهيمنة القرطاجية ونتيجة هذا الاتصال المستمر مع البونيقيين تاثرت **بونة** بالطابع والعادات والديانات واللغة القرطاجية وربما كان التأثر أيضا على مستوى المؤسسات السياسية والادارية · وتأثر الجهة باللغة البونيقية تواصل الى عهد اغشتين ومن بقايا الحضارة المادية للفترة البونيقية ما نشاهده فى تصميم الديار والتخطيط العام للمدينة الذى يعود الى العهود الامازيغية البونيقية وبالاخص وجود المواجل فى أكثر المساكن وهو طابع استقل به أهل هذه الحضارة أكثر من سواهم فى حوض البحر الابيض المتوسط · (صورة 2)

اما اللقى الاخرى التى عثرت عليها الحفريات ، والمعروضة فى الطابق الاول من متحف بونة الاثرى ، فتشمل اساسا فوانيس زيتية عرضت فى الخزانة رقم 1 ·

وكانت **بونة** ، اقتصاديا ، ذات مكانة هامة خاصة فى الميدان التجارى ·

وتخلصت بونة واقليمها من السيطرة القرطاجية السياسية والاقتصادية ، اذ بدأت الدولة الامازيغية تحت حكم **مسنسة** تستقل بين 218 و 200 ق م. ومن الممكن ان خضعت **بونة** لسلطة **مسنسة** فى تلك الفترة ؟ اذ أصبحت عاصمة ثانية للملوك الامازيغيين بعد 202 ق·م· بعد انهزام **قرطاجة** فى واقعة زامة لكن هذا لم يمنعها من التعرض الى ويلات الحروب التى تعاقبت من اجراء كفاح الامازيغ تحت قيادة **مسنسة** وخاصة **يوغرطة** جريا وراء توحيد الدولة الجديدة ·

وتميز تشييد الدولة الامازيغية بازدهار التجارة والصناعة فى بونة · وشمل نمو **بونة الامازيغية** مختلف الميادين ·

فمن الناحية المعمارية ، يبدو من الراجح ان جزءا من جدار « **الواجهة البحرية** » يعود الى أواخر العصر الامازيغى كما هو الامر بالنسبة للعناصر المعمارية التى وجدت تحت مبنى « **مجلس الشيوخ** » : التاج الايونى الضخم وجزء من عمود من نفس الصنع ·



2 ـ منظر من آثار مدينة « بونة العتيقة »

اما تخطيط المدينة فكان على ما نشاهده اليوم ، اذ لم يدخل الرومان عليه الا تعديلات جزئية • والملاحظ ان مواد البناء تعتمد اساسا على اللبن الاحمر •

وتركت بونة الامازيغية قطعا كثيرة من الفخار من دنون وغيرها عرضت على أرض آثار بونة ، وعملة تعود الى أيام مسنسة وخلفائه عرضت بالطابق الاول من المتحف وان دلت هذه اللقى على شيء فانما تدل عن وجود معامل منتوجات تقليدية وعن علاقات تجارية مع باقي افريقيا واسبانيا وايطاليا وبلدان الحوض الشرقى من البحر الابيض المتوسط •

ولا تزال **بونة** ثقافيا تتأثر بعلاقاتها مع الشرق اذ يبدو ان البلاطات الامازيغية كانت قالبا تتعايش فيه اللغات والحضارات البونيقية واليونانية مع الاصول الامازيغية •

ولكن جيوش التوسع الرومانى ، بعد صراع طويل ، هزمت **قرطاجة** نهائيا ، فتمكنت **روما** من التفرغ لمنع الدولة الامازيغية من النمو والاستقرار • واثر حرب ضروس ، اخضعت **روما** القطاع الامازيغى تحت نوع من الحماية حوالى 104 ق•م• فجر ذلك المملكة الامازيغية فى تيار معارك الاحزاب الرومانية عند انفجار الحرب الاهلية بين قيصر وبومبيوس • فاختار الملك **يوبة** الاول حزب **بومبيوس** الذى جرت هزيمته سنة 46 ق•م، هزيمة الامازيغ واتلاف استقلال دولتهم • وهكذا ستبقى **بونة** تحت الحكم الرومانى الى انهياره أمام حصار **الوندال** سنة 430 م• اذ اصبحت مملكة **يوبة** مقاطعة من الامبراطورية الرومانية واسمها « افريقيا الحديثة » وعاصمتها **بونة** •

وعادت المدينة الى الاستقرار ابتداء من القرن الاول بعد الميلاد وعرفت أياما جديدة من النمو وساعدها ماضيها الحضارى على استرجاع حيويتها ، ومكنها من فرض أصالتها بالرغم من ضمها الى العالم الرومانى •

وحسب تقويمات المؤرخين وعلماء الآثار ، فالمدينة كانت تمسح حوالى 60 هكتارا • وقد اشتمل حوزها البلدى المترامى الاطراف عديدا من الضيعات الفلاحية الكبرى تعود الى تنظيم **مسنسة** الريفى مما جعل الريف أكثف عمرانا ما هو عليه اليوم •

وبقايا هذه الضيعات (**ويسميها** العوام : **الهناشر**) موجودة فى كامل **الجهة الى اليوم**، غير ان بناء المعامل قد أتلف آثار الكثير منها ·

عرفت بونة وضعين قانونيين : كانت فى أولهما مدينة ذات كيان قانونى ، ثم رقاها القياصرة الانطونيون الى صف مستعمرة ·

ويرأس ادارة المدينة احد نواب بروقنصل افريقيا الثلاثة بمساعدة سلك من **الموظفين** الدينيين والمدنيين والاقتصاديين تنبئنا عن اختصاصاتهم واسماء البعض منهم ما كشف عنه التنقيب الاثرى من شواهد منقوشة منها ما عرض بفناء المتحف ، ومنها ما **بقى فى** مكانه الاصلى تركت هذه الفترة أكثر معلومات من سابقاتها **عــن الحضارة الماديـــة** والروحية، تتمثل فيما كشفت عنه التنقيبات من معالم عمرانية واقتصادية وفنية .. الخ

وقد تركت لنا الحياة الاقتصادية أكثر من دليل مادى **على حيويتها** ·

فسبق ان اشرنا الى كثافة القرى الفلاحية التى كانت تنتشر فى **السهول المحيطة** **ببونة** · ولا عجب اذ المناخ من أرض طيبة وطقس ممطر مكن هذه الجهة من انتاج **القموح** والخضر والزياتين والفواكه ما استمر انتاجه الى يومنا هذا ·

أما الصناعة فيشهد عليها آثار معمل الصباغة الضخم الموجود شمال « **البازليكـة الكبـيرة** » ، ويبدو ان الحى الذى توجد به هذه الوحدة كان باكمله حيا صناعيا **مختصا** فى النسيج وصباغته ·

كما تدل اللقى المختلفة من فخار من دنون ومصابيح معروضة فى **قاعات المتحـف** على وجود افران لصناعتها · كما ان صناعة الامتعة المدنية كالاقفال واوانى **الطعـــام** النحاسية والمسامير والقوارير الزوجاجية المعروضة بنفس المتحف من **براهين وجود** صناعات مختلفة بالمدينة (صورة 3) ·

كما ان المدينة كانت تظم معاصر الزيت والطاحونات ، ويرى الزائر **بقايا عديـــدة** من رحى الحب ورحى الزيت (صورة 4) ·

وجعل موضع **بونـة** الممتاز منها مدينة تجارية : فهى مستودع **الانتاج الفـــلاحى** الذى كان يصدر من مينائها قموح الجهة وزيوتها الى **رومـة** · وما كثرة الدنون التى عثر عليها الا شاهدا آخر على غزارة هذه التجارة ·



3 ـ مصباح من البرنـز



4 ـ رحى الحب من قمح وغيره

وكان ميناء بونة الثغر الذى يستورد على طريقة البضاعة من الخارج : فعارضات المتحف تزخر بالاوانى المستوردة مثل المصابيح والاطباق من السجيل وغيرها ٠

وكانت البضاعة المصدرة أو المستوردة تباع وتشترى فى رحاب السوق الواسعة التى كشفت عنها الحفريات ، والسوق يوجد بغربى المدينة ، مشتملا على ساحتين ، احدهما مربعة وربما كانت للبيع بالجملة والثانية تحتوى على رواق وحوانيت وساحة داخلية ٠ كل ذلك من الرخام ٠ وكان مواطنو المدينة ياتون هنا لابتياع ما يرغبونه من المتاع (صورة 5) ٠

فان كان السوق من مظاهر الحياة الاقتصادية فهو أيضا من مظاهر الحياة اليومية ، وقد كشفت الحفريات منها أوجها أخرى ٠

فمنها السكن ، والتخطيط العام للمساكن كالآتى صحن داخلى مكشوف ، نظمت حوله الغرف حسب اختصاص كل واحدة منها ٠ ومن الملاحظ ان أغلب البيوت تحتوى على ماجل لادخار الماء ، وفى الكثير منها فرشت أرضيتها بالفسيفساء الزاهية الالوان والمتصلة مواضع زينتها بمواضع مختلفة (صورة 6) ٠

ومنها الحمامات ، اذ كشفت التنقيبات على حمامين ضخمين احدهما بشمال المدينة ، يعود عهده الى القرن الثالث الميلادى وثانيهما جنوب المدينة ٠ والحمام فى تلك العصور مؤسسة مدنية عامة حيث كانت تحتوى على مختلف المرافق بالمستحم يؤم الحمام طالبا النظافة،والاتصال الاجتماعى والمطالعة؛اذ كان الحمام يحتوى على مكتبة،والرياضة اذ كان الحمام يحتوى على قاعة للرياضة البدنية، أما الحياة السياسية فكان مسرحها ساحة **الفروم** الذى كشفت عنه الحفريات وهو أوسع واقدم **فروم** كشف عنه فى المغرب ٠ ولا تزال آثار **الكورية** أى مقر الادارة ومجلس الشيوخ ، قائمة ٠ فيأتى المواطنون هنا للاطلاع على الانباء السياسية أو النقاش حولها ٠ وهنا يجتمعون فى المناسبات السياسية أو الدينية الكبرى فيستمعون الى الخطباء يلقون بخطبهم من فوق المنصة التى لا تزال قائمة أو يتعبدون امام معبد **الثالوث الكابتولى** ، الذى ما تزال أسسه قائمة (صورة 7) ٠



5 ـ سوق بونة العتيقة



6 ـ اثار منزل ببونة



7 ـ منظر من الفروم

وكان للثقافة والترفيه مكانهما فى بونة التى تعرض آثارها فى معمارها وتحفها فكانت التمثيليات تقدم فى مسرح بونة ، وبقايا المسرح من مدرجات وأركسترة ومرسح وحنيتيه تدل على ان المسرح كان فخما وجميلا (صورة 8) •

وترك الفنانون من نحاتين وصانعى الواح الفسيفساء روائع من عملهم منها شواهد القبور المنحوتة المقامة **لساتورن** وقد عرضت بساحة المتحف الداخلية ومنها التماثيل الرخامية التى عرضت داخل المتحف كتمثال **هرقليوس** وتمثال منرفة ، زوجة جوبتر وتمثال آلهة الحب افروديت (صورة 9) •

وغيرها من تماثيل رؤوس قياصرة ونحيتات •••

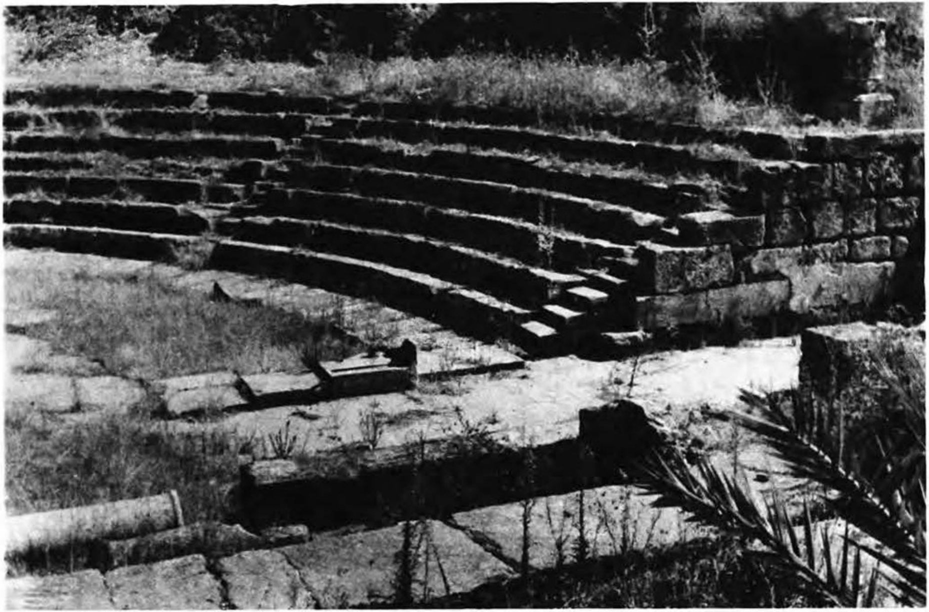
ومن روائع المتحف الفنية ما كشف عنه من الفسيفساء منها ما بقى على عين المكان مثل مختلف أرضيات البيوت الموجودة بحى الواجهة البحرية ، وأرضيات بيوت أخرى فى مختلف انحاء آثار **بونة** (صورة 10) •

ومنها ما عرض بقاعتى ب و ج من المتحف ، وأهمها **فسيفساء** الصيد ، « **ومنظر عام من بونة العتيقة** » •

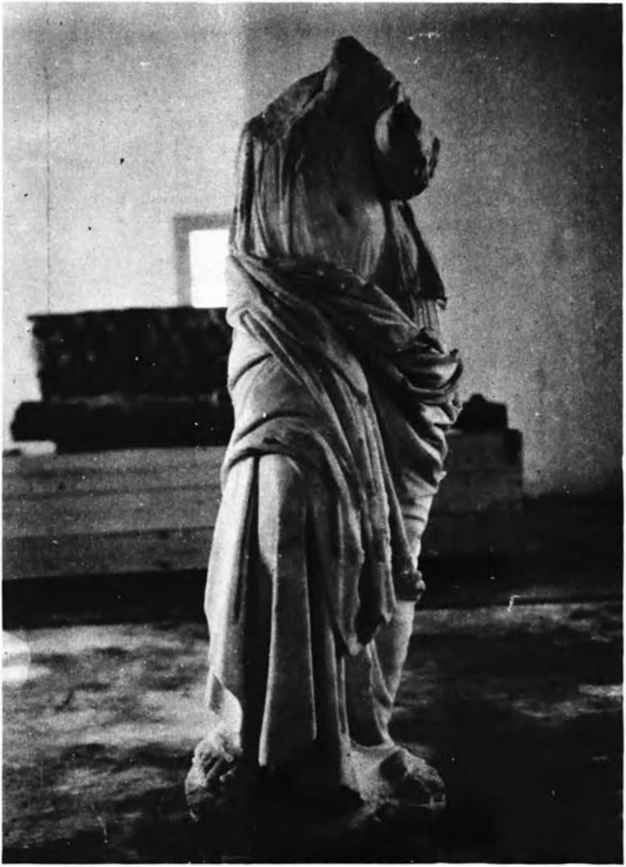
وتصور اللوحة الاولى مشهدا من عملية شاملة لصيد الوحوش الضارية حية لاستعمالها فى ألعاب السرك • اما اللوحة الثانية ، بالرغم من كونها مبتورة ، غير ان شطريها يعطياننا فكرة عن صورة الساحل من رأس الحمراء الى المدينة العتيقة فصور على الشطر الايمن (صورة 11 و 12) ساحل المدينة ابتداء من رأس الحمراء مارا بما يدعى بصخرة الاسد (التى وقع هدمها اثناء الحرب العالمية الاولى) الى الخليج الذى كان موجودا آنذاك وحيث صور مشهد صيد بحرى • ويصور الشطر الثانى منظرا من المدينة العتيقة ربما يعود الى أواخر القرن الثانى أو بادىء القرن الثالث •

وتعتمد مختلف أوجه الحياة المادية على أرضية عقائدية تتمثل فى مختلف المذاهب الدينية التى عرفتها **بونة** فى تاريخها القديم •

اما المعتقدات الوثنية فمختلفة ، منها ما نتج عن تمازج معتقدات الامازيغ والبونيقيين والرومان فتولدت عبادات الاله **بعل ـ حامون** وتدل عليها الشواهد القبرية العديدة



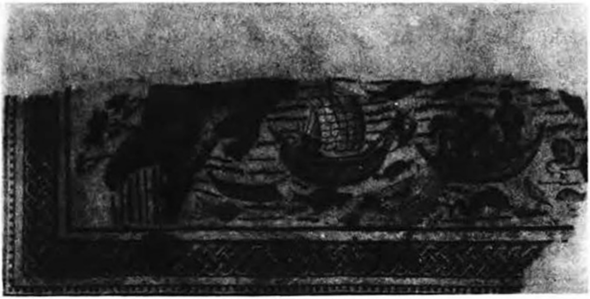
8 ـ صورة جزء من مسرح بونة



9 ـ آفروديـت



10 ـ جزء من فسيفساء الآلهة الملهمة



11 ـ الشطر الايمن من منظر عام لبونة



12 ـ الشطر الثانى من منظر عام لبونة

المقامة لهذا الاله ، ومنها عبادة **السيريس** وهى تشيد بآلهة تتصل بالفلاحة والانتاج الفلاحى وقد عثر على نحيتة مقامة لهذه الآلهة عرضت بالساحة الداخلية من المتحف . ومن الوثنية ما يتصل بالديانة الرومانية وقد بقى لنا منها آثار معبد الثالوث الكابتولى أى **جوبتير** وزوجته **منرفة** وابنتهما **جونو** ، الموجود **بالفروم** ؛ وآثار معبد آخر قرب الحمام الشمالى ، وربما كان معبد الاله نبتون ؟ اله المياه أو معبد م **كور،** وهو اله التجارة ؟ وعرف أهل بونة فى تاريخها العتيق الديانات الوحدانية اليهودية منها والمسيحية ، غير ان التاريخ والوثائق الاثرية تعطى اضواء أكثر على المسيحية ، اذ اقترن اسم **بونة** فى القديم باسم القديس أغشتين . ظهرت المسيحية حوالى القرن الثالث م . **ببونة** حيث انتشرت بسرعة . غير ان كنيسة **بونة** ، على غرار المسيحية بصفة عامة ، عرفت أزمة دينية خطيرة ضاعفتها أزمة اقتصادية حادة أدت الى نمو شيع عديدة بين الافارقة ، أهمها شيعة **الدوناتية** . ومن الممكن ان انتصار محبى مذهب **دوناتوس** كان تعبيرا عن عقيدة مسيحية كان الافارقة يريدونها تعبيرا خاصا بهم يمكنهم من فرض أنفسهم سياسيا واقتصاديا ؟ ولذلك ربما كان المذهب الدوناتي ثورة الاهالى الاصيلين على الرومان ومن اندمج فى تيارهم ، أصحاب الثراء والسلطة الذين أصبحت المسيحية الكاثوليكية تعبيرهم الدينى . وكاد المذهب الجديد أن ينتصر نهائيا ، غير أن الكاثوليكية وجدت فى أغشتين شخصية فذة قادتها الى التغلب وقد يكون ثمن انتصار أغشتين اعتماده على تحالف الرومان والافارقة المندمجين الاثرياء وهم أصحاب المصالح السياسية والاقتصادية التى هددها المذهب الدوناتي الذى كان يعتمد على العمال الفلاحين وصغار الصناع ؟

ولا يزال من آثار المسيحية **ببونة** « الحى المسيحى » تتوسطه بقايا « **بازليكة السلام** » أو « **البازليكة الكبرى** » ولواحقها من مساكن ومكان العماد ... الخ (صورة 13) .

غير أن انتصار أغشتين الدينى لم يكن له امتداده السياسى اذ مات القديس وسط تخبط الامبراطورية الرومانية ، أثناء حصار **بونة** من طرف جيوش الوندال الذين اقتحموا المدينة يوم 28 أغشت 430 م . وطرد الوندال ، فحل مكانهم البزنطيون سنة 533 .



13 ـ جزء من الحى المسيحى ببونة تتوسطه البازليكة الكبرى

فكان القرنان الخامس والسادس م· فترة ركود ، تقلصت **بـــونة** فيه ولم يكــن لتاريخها فيها حدث هام يذكر ·

فمن بقايا هذا العصر ، بيوت رممت بطريقة عفوية ، ومقابر نهبت حيث كان العمران : فى فناء **الفـــروم** ، وفى الكنيسة ··· الخ وربما كان بعض **الحلى** من **الحديد والنحاس** المعروض بالمتحف يرجع الى عهد الوندال ؟ ·

ويضل موضع **بونـة العتيقـة** عامرا الى القرن العاشر م ·

ان تدخل المدينة فى العهد الاسلامى ابتداء من القرن الاول هجرى/القرن السابع ميلادى · ولا يوجد فى خصوص الفتح الاسلامى فى الاصول الا بعض الجمل · وهـذا يرجع الى أن **بونــــة** واقليمها بقيت بعيدة عن معارك الفتح ، اذ كانت الجهة خارجة عن محاور الانتشار الاسلامى الذى سار فى العشريات الاولى من عهده فى اتجاه الطرق الداخلية · ومن الروايات القلائل عن **بونــــة** أيام الفتح ، تلك التى تروى كيف ضغطت جيوش حسان بن النعمان على الافارقة من الاقاليم القرطاجنية والبنزرتنية حتى أجبرتهم الى الالتجاء الى اقليم **بونــــة** حوالى 73/75هـ (692/695م) ·

فالاصول التى بين أيدينا لا تخبر عن فتح **بونة** عنوة · والبكرى الذى يروى عادة أهم الاحداث المتصلة بتاريخ كل مدينة يصفها لا يروى فى « المسالك والمسالك » شيئا عن بونة مـــن هذا ·

بيد ان أهم ما يرويه هو أن **بونــــة** مدينة العالم النصرانى الكبير أغشتين ·

ويقــــول البكـرى :

« ··· ومدينة بونة اولية وهى مدينة أغشتين العالم بدين النصرانية · وهى على ساحل البحر على نشز من الارض منيع مطل على مدينة سيبوس وتسمى اليوم مدينـــة زاوى · وبينها وبين المدينة الحديثة نحو ثلاثة أميال ولها مساجد وأسواق وحمام وهى ذات ثمر وزرع وقد سورت **بـــونة الحـديثة** بعد الخمسين وأربعمائة (···) وبغـربى هذه المدينة ماء سائح يسقى بساتين وهو متنزه حسن (···) ومدينة **بونة** برية بحرية كثيرة اللحم واللبن والحوت والعسل · وأكثر لحمانهم البقر · الا أنها يصح بها السودان

ويسقم البيضان.وحول **بونـــة** قبائل كثيرة من البربر مصمودة وأوروبة وغيرهما وأكثر تجارها أندلسيون · (البكرى ، المسالك والممالك · ص 55/54) ·

فمن المعتقد ان بقى موقع بونة العتيقة معمورا حتى القرن الرابع أو أوائل القرن الخامس هـ · ويناسب ذلك نهاية العهد الفاطمى وبداية العهد الصنهاجى · ثم بعـــد انقسام الدولة الصنهاجية ، انتقل معظم سكان **بونـــة العتيقـة** الى الموضع الجديـد ، شمال المدينة ، على ربوة سيدى أبى مروان ، لسببين : سبب صحى وسبب استراتيجى ·

ولا نعلم بالتدقيق أى جهات **بونـــة العتيقـــة** التى عمرت أثناء عهدها الاخـــير وهو العهد الاسلامى وذلك يعود الى أن الحفريات التى أقيمت هنا لم تهتم بالطابـــق الاسلامى من الحفرية ، كما وقع اهمال تسجيل مكان اللقى من الخزف (مصابيح وكسور من الدنون وغيرها) المعروضة بالمتحف · وتعود هذه القطع وخاصة سطل نحاسى الى حوالى القرنين الخامس أو أوائل السادس هجرى (صورة 14) ·

هكذا ولدت ونمت وتطورت بونة العتيقة · وبعد ما لا يقل عن ألفى سنة واثـــر نوبات تمثلت فى طوفان الوديان واستفحال المستنقعات وبروز أهداف دفاعية ساحلية جديدة غابت المدينة ومعالمها تحت التراب ولم تبرز آثارها الى الوجود الا بعد انتهـاء الحرب العالمية الاولى ، وهى لم تبح بعد بجميع أسرارها ·



14 ـ سطـل نحاسى اسلامى

من أعلام عنابة

د • محمـد بلغـراد
معهد اللغة والادب العربى
جامعــة الجزائــر

أحمد بن على بن يوسف تقى الــدين أبو العباس البونى نسبة الى مدينة بونة وهو الاسم القديم لعنابة الواقعة على شاطىء البحر المتوسط شرقى مدينة الجزائر، يلقبه بعض الباحثين بـ محيى الدين (1)، ولا نجد له لقبا فى كتابه شمس المعارف ، هو الامام المتصوف الفلكى الرياضى صاحب التصانيف العديدة المفيدة فى علــم أسرار الحروف والاسماء وغيره •

رحل الى الشرق واستقر بالقاهرة (2) الى أن توفى • ولم يذكر أحد تاريخ ومكان ميلاده وكم عاش من السنين ولا كيف قضى حياته ولا كيف تلقى العلم • أجمعت المصادر

(1) ابن سبعين وفلسفته الصوفية ، ص 38 •
(1) Huart (Cl.) : « Littérature arabe », Paris 1902, p. 314.
(2) معجم أعلام الجزائر ، ص 28 •

على أنه توفي بالقاهرة سنة 1225/622 • ويبدو أنه عمر طويلا كما سنرى ذلـــك فيما بعـــد •

ذكر البوني في آخـر كتابه شمس المعــارف سنـد أشياخه وسنـد الرجــال الذيـن وصـــل العلم اليه بواسطتهم • ذكــر سنـــده بعلـم الحروف وسنـده بعلـم الاوفاق وغـيره • وفي الاخـير نــوه بأحدهم فقــال : « أما شيخنا الامــام العارف بالله العلامة أبو الحسن الحرانى قدس الله سره فقد ظهرت منه أحوال غريبـــة واشتهرت عنه حكايات عجيبة • وكان فائق اللسان فى علم الحروف والاسماء وعارفا بمراتب الخواص •

وله فى علم الحروف مصنفات عظيمة الشأن • منها كتــاب اللمعة وكتاب شمس مطالع القلوب وغير ذلك من الفوائد النورانية والزوائد العرفانية •

وهو أبو الحسن بن على بن محمد بن ابراهيم بن محمد الحرانى • سكن حماة ومات بها سنة 538 • (3)

اذن أقل ما تكون سن البونى قد بلغت عند وفاة شيخه الحرانى خمسة عشر أو ستة عشر سنة ليتمكن من الافادة من تلقى دروسه فى علم الحروف أو الفلك أو الرياضيات بالنسبة الى طالب يافع موهوب فى مستوى البونى • لذلك نرجح أن يكون هذا الاخير قد ولد حوالى سنة 522 ويكون قد عمر قرابة مائة سنة • والله أعلم •

وقد كان البونى جادا فى حياته الفكرية دؤوبا على العمل والتاليف • وتصانيفه تدل على خصوبة فى الانتاج وقوة على التفكير • ويبدو أنه كان ذا مزاج متفائل وكان مقبلا عــلى الحياة محبا لها • وكان سلوكه متحليا بالاستقامة والورع والصلاح وخشية الله تعالى • وقد انتشر صيته فى مشارق الارض ومغاربها • ولعله كان مدينا بشهرته لفضله وسعــة علمه واعتداله فى شؤون حياته •

وكان البونى يلح على تاليف الكتب الكثيرة فى الموضوع الواحد • يدل ذلك على أنه كان معنيا بالاحاطة والشمول فى عرض المسائل وتفسيرها والاستقصاء فى توضيحهــا وذكر الدقائق والتفاصيل • وعلاوة على عنايته بالمضمون كان معنيا أيضا بتجويد الصياغة

(3) شمس المعارف ، ص 532 •

والتأنق فى العبارة • وكثيرا ما يستخدم السجع بحظ وافـر من البراعة والتوفيق • ولم يأل جهدا فى اسداء النصائح لقارىء كتابه شمس المعارف حتى لا تكون قراءته مدعاة لمعصية الله •

قال فى المقدمة : فحرام على من وقع كتابى هذا فى يده أن يبديه لغير أهله أو يبوح به فى غير محله فانه ان فعل ذلك حرمه الله تعالى منافعه ومنعت عنه فوائده وبركته • ولا تمسه الا وأنت طاهر • ولا تقربه الا اذا كنت ذاكرا لتفوز منه بما تريد • ولا تصرفه الا فيما يرضى الله تعالى • فانه كتاب الاولياء والصالحين والطائعين والمريدين والعاملين والراغبين • فكن به ضنينا ولا تدع منه قليلا ولا كثيرا • وليكن يقينك صادقا وايمانك بحقائقه واثقا •

ومن الصعب ذكر كل ما ألف البونى من التصانيف (4) • ولذلك نجتزىء بـذكر بعضها ـ له فى أسرار الحروف ـ اسرار الحروف والكلمات ـ رسائـل الشهـود فى الحقائق على طريقة علم الحروف ـ شرف الشكليات وأسرار الحروف الورديات ـ كتـاب الحروف والعدد وخواصهما ـ لطائف الاشارات فى أسرار الحروف العلويات ـ وله فى شرح البسملة خصائص السر الكريم فى فضائل بسم الله الرحمن الرحيم •

وله فى شرح أسماء الله الحسنى •

موضح الطـريق وقسطاس التحقيـق من مشكاة اسمـاء اللـه الحسنى والتقرب بها الى المقام الاسنى ـ المشهـد الاسنى فى شرح أسمـاء اللـه الحسنى • وله كتب فى الاذكـار والادعيـة والتصـوف • منهـا : التوسـلات الكتابيـة والتوجهات العطائية ـ قبس الاقتداء الى وفق السعادة ونجم الاهتداء الى شرف السيادة ـ قوت الارواح ومفتاح الافراح ـ كنز اللطائف النورانية فى أسرار اللمعة النورانية ـ مواقف الغايات فى أسرار الرياضات ـ له فى التصوف : جواهر الاسرار فى بواهـر الانوار ـ وله فى النجوم رسالة فى أحكام النجوم •

وله فى شرح « ن والقلم » الرسالة النونية فى الحقيقة الانسانية •

---

(4) انظر فى تصانيف البونى : معجم أعلام الجزائر ، ص 28 وما بعدها •

وله رسالة فى شرح اسم الله الاعظم • وله : منبع أصول الحكمة يشتمل على أربع رسائل : 1 ـ الاصول والضوابط • 2 ـ بغية المشتاق فى علم الاوفاق • 3 ـ شرح البرهتية المعروف بشرح العهد القديم • 4 ـ شرح الجلجلوتية الكبرى • (5)

ويبدو أن أكبر كتبه هو كتاب شمس المعارف ولطائف العوارف • منه مطول عنوانه شمس المعارف الكبرى ومختصر عنوانه شمس المعارف الصغرى • وهو تاليف ضخم يشتمل على أربعة أجزاء • وهو شبه موسوعة فى علم السيمياء جمع فيه صاحبه ما تفرق فى سائر كتبه • وقد انعكست ثقافة المؤلف بما فيها من جوانب وألوان على صفحات هذا الكتاب ، يتحدث فيه المؤلف عن أشياء شتى عن الحروف وأسرارها وعن أشياء فلكية هى ألصق بعلم التنجيم كالبروج الاثنى عشر ومنازل القمر الثمانية والعشرين وعن خواص أوائل سور القرآن وعن فضل سور وآيات شتى كالفاتحة ويس وآية الكرسى والبسملة • ويتحدث البونى فيه عن الخلوة والاعتكاف وعن الاسم الاعظم وسائر أسماء الله الحسنى وعن الرياضات والاذكار والادعية وعن بعض الاوفاق

(5) مطبعة البانى الحلبى ـ القاهرة 1355هـ/1936 •

والجدير بالذكر أن أحد الدارسين الجزائريين ألف أخيرا كتابا يذكر فيه طائفة من المخطوطات الجزائرية الموجودة حاليا فى مكتبات اسطنبول • وعددها مائتا مخطوط لمؤلفين جزائريين موزعة على مكتبات كثيرة وفى موضوعات شتى فى تفسير القرآن والحديث الشريف والعقائد والتصوف وأسرار الحروف والاسماء والادب والتاريخ وفنون شتى وقد ذكر من بينها طائفة من كتب البونى • منها 18 مخطوطا لكتاب شمس المعارف وحده ومخطوطات اخرى لكتاب التوبة وكتاب الدعوات وكتاب منافع القرآن وكتاب علم الهدى وأسرار الاهتداء وكتاب خواص أوفاق ورسالة فى أحكام النجوم ورسائل مجموعة وشرح اسماء الله الحسنى وكتاب غاية المغنم ، وكتاب اللمعة النورانية كلها من تاليف البونى • ويذكر المؤلف كل مرة عنوان المخطوط ونوع خطه وشكله واسم مؤلفه وموضوعه وعدد صفحاته وكم سطرا فى الصفحة ويذكر اسم المكتبة التى يوجد فيها المخطوط ورقمه واسم الناسخ ان كان ويشفع ذلك أحيانا بمعلومات أخرى عن المخطوط كتاريخ النسخ وكون المخطوط نقل عن النسخة الاصلية ، وهكذا •

وفى أول الكتاب مقدمة مفيدة فيها تعريف بمكتبات اسطنبول وعددها وأسمائها ونظامها الداخلى والادارات المشرفة عليها ومشكلة ازدواج الكتابة بالحروف العربية والحروف اللاتينية فى فهارس الكتب وبطاقاتها كل هذا فى كتاب : مخطوطات جزائرية فى مكتبات اسطنبول - تاليف الدكتور محمد بن عبد الكريم عدد صفحات الكتاب 168 • بيروت 1972 •

والطلسمات وعن أنماط الاسماء الحسنى وعن الفيض الربانى وعن أعمال السيمياء وعن أشياء كثيرة من العسير جدا حصرها وضبطها لتشعبها وكثرة أنواعها ٠

والبونى لا يكتفى فى كتابه شمس المعارف بالحديث عن الحروف وأسرارها من الوجهة النظرية بل يشفع ذلك بالخروج الى المجال العملى التطبيقى ولا يقتصر على دراسة حروف القرآن والبسملة وما يتصل بهما بل يضيف الى ذلك الاستفادة من هذه الاسرار فيما يختص بالحياة المعاشية ٠ فاسم الله الاعظم يلجأ اليه عند الضرورة لتحقيق بعض الرغائب أو للخلاص من بعض المصاعب كما كان الاقدمون الغلاة يهزمون به الجيوش ٠ وعندما يتحدث المؤلف عن بسم الله الرحمن الرحيم يذكر ان فيها تسعة عشر حرفا على عدد الملائكة الموكلين بالنار ويروى البونى عن ابن مسعود أن من أراد أن ينجيه الله من الزبانية التسعة عشر فليكثر منها ٠ كل حرف نجاة من كل واحد منهم ٠ وفيها الاسم الاعظم الذى كان المسيح عليه السلام يرقى بالباء منها من الاوجاع والآلام (6) ٠ فصار هكذا علم الحروف حرفة ووسيلة لتسخير الطبيعة ٠ ومما يسترعى الانتباه أن البونى ذكر شيئا لعله لم يسبق له ذكر قبله وهو أن الحروف هى 32 حرفا ٠ منها 28 حرفا عربيا مبينا وأربعة أحرف مدغمة واهية اللفظ وهى گ-چ-ث-پ (7) ٠

ومما يدل على المكانة السامية التى احتلها البونى بعصاميته بين العلماء والمفكرين فى القديم اقتران اسمه فى بحوث اشهر الدارسين باسماء لامعة فى سماء العلم والفكر والتصوف ٠ ذكر ابن خلدون البونى فى مقدمته فى فصل واحد ثلاث مرات بصدد حديثه عن علم أسرار الحروف ٠ قال : « وتعددت فيه (علم أسرار الحروف) تآليف البونى وابن عربى وغيرهما ممن اتبع آثارهما » ، وقال متحدثا عن أصحاب السيمياء : « ان مستندهم فيه الذوق والكشف ٠ قال البونى : ولا تظن أن سر الحروف مما يتوصل اليه بالقياس العقلى وانما هو بطريق المشاهدة والتوفيق الالهى » ٠

(6) شمس المعارف الكبرى ، ص 33 وما بعدها ٠
(7) المصدر نفسه ، ص 363 ٠

وقال : « ويبنون على ذلك مباني غريبة منكرة من تقسيم سور القرآن وآية على هذا النحو كما فعله مسلمة المجريطي (8) في كتاب الغاية . والظاهر من حال البوني في أنماطه انه اعتبر طريقتهم » . (9)

أما ما يخص علم أسرار الحروف فقد قال عبد الرحمن بن خلدون : وحدث هذا العلم في الملة بعد صدر منها (10) ويبدو أن أبا محمد سهل بن هارون بن راهبون الكاتب صاحب بيت الحكمة أيام المأمون العباسي (215/830) كان أول من عرض لهذا الميدان ببحثه في الحروف العربية عموما وملاحظته أن عددها يعادل عدد منازل القمر الثمانية والعشرين وأن أطول كلمة عربية لا تتجاوز حروفها السبعة عدد السيارات السبع وأن الحروف المزيدة على الاصول العربية تعادل عدد البروج الاثنى عشر وأن نصف الحروف يدغم مع لام التعريف وهي الشمسية ونصفها لا يدغم . فتنبه الى أن ذلك يشبه منازل القمر من حيث ظهور نصفها للعيان واختفاء النصف الآخر على الوجه الآخر للقمر والتفت سهل بن هارون كذلك الى أن حركات الاعراب الثلاث تشبه الحركات الطبيعية الثلاث : الاولى من الوسط كحركة النار والثانية الى الوسط كحركة الاجرام الساقطة من الجو على الارض والثالثة حول الوسط كحركة الفلك . (11)

---

(8) مسلمة المجريطي (338 – 398/950 – 1007) أبو القاسم . فيلسوف رياضي فلكي كان امام الرياضيين بالاندلس وأوسعهم احاطة بعلم الافلاك وحركات النجوم. مولده ووفاته بمجريط (مدريد) . الاعلام ط . 3 . 8/121

وكان موسيقارا معروفا وله في الموسيقى والرياضيات رسائل . ولم يصلنا من كتبه الا كتابان : 1 – رتبة الحكيم في الكيمياء والسيمياء . 2 – وغاية الحكيم وأحق النتيجتين بالتقديم في الطب . تراث الاسلام ، ص 537 ، وقال عبد الرحمن بن خلدون : ثم جاء مسلمة بن أحمد المجريطي امام أهل الاندلس في التعاليم والسحريات فلخص جميع تلك الكتب وهذبها وجمع طرقها في كتابه الذي سماه غاية الحكيم . ولم يكتب أحد في هذا العلم بعده .

المقدمة تحقيق نصر الهوريني ، ص 242 .

(9) مقدمة ابن خلدون تحقيق نصر الهوريني ، ص 245 .

(10) مقدمة ابن خلدون بتحقيق نصر الهوريني ، ص 245 .

(11) الفهرست لابن النديم ، ص 10 .

وذكر ابن النديم أن الكندى (260/873) كان أول من حاول استخراج الدلالات العددية من الحروف لينتقل الى الاسرار الكامنة فيها · من ذلك انه ذكر أن لفظ « القلم » يساوى لفظ « نفاع » على اعتبار أن كلا اللفظين اذا جمعت جملة حروفه العددية يساوى 201 · (11)

من هنا برزت الحروف بوصفها مصدر للمعرفة وجاء بعد الكندى أبو زيد أحمد ابن سهل البلخى (235ــ 322/849 ــ 934) أحد الكبار الافذاذ من علماء الاسلام جمع بين الشريعة والفلسفة والادب والفنون وكان من براعته فى الحساب أنه وقت وفاة نفسه فى دقة غريبة وقد كتب أبو زيد هذا رسالة فى أن سورة الحمد تنوب عن جميع القرآن · (12)

وقد احتفظ التاريخ باسم كتاب ضاع ألفه محمد بن عبد الله بن مسرة القرطبى (269 ــ 318هـ/883 ــ 931م) وهو كتاب الحروف · (13)

ولم يدخل القرن الرابع حتى كانت فكرة معالجة الحروف داخلة فى كل أشكال المعرفة الانسانية · فعالجها الشيعة والصوفية والفلاسفة · وقد زعم الحلاج مقتفيا اثر ابى زيد البلخى فى القول بأن فى القرآن علم كل شيء وعلم القرآن فى الاحرف التى فى أوائل السور وعلم الاحرف فى لام الف وعلم لام الف فى الالف وعلم الالف فى النقطة ··· (14)

وعنيت الفلسفة بمعالجة الحروف فكتب فيها ابن سينا (370 ــ 428هـ) رسالة فى معانى الحروف الهجائية التى فى فواتح السور القرآنية (15) وألف أبو حامد الغزالى (450 ــ 505هـ) رسائل ضاعت · منها : أسرار حروف الكلمات ــ رسالة فى الاحرف ــ فواتح السور ــ المبادى والغايات فى أسرار الحروف · (16)

(12) الاعلام 131/1 ــ الفهرست 138 ــ معجم الادباء 62/3 وما بعدها ·

(13) تاريخ الفكر الاندلسى ، ص 329 ·

(14) اخبار الحلاج (تحقيق ماسينيون وبول كراوس) باريس ، 1936 ، ص 95 ــ 96 · نقلا عن كتاب الفكر الشيعى والنزعات الصوفية ·

(15) تسع رسائل لابن سينا ، ص 92 ــ 96 ·

(16) مقدمة المنقذ من الضلال لجميل صليبا وكامل عياد ــ دمشق 1934 ، نقلا عن كتاب الفكر الشيعى والنزعات الصوفية ·

أما محيى الدين بن عربى (560 ـ 638هـ/1165 ـ 1240م) فقد تحدث باسهاب عن علم أسرار الحروف فى الفتوحات المكية • قال :

اعلم وفقنا الله واياكم أن الحروف أمة من الامم مخاطبون مكلفون • وفيهم رسل من جنسهم • ولهم أسماء من حيث هم • ولا يعرف هذا الا أهل الكشف من طريقنا • وعالم الحروف أفصح العالم لسانا وأوضحه بيانا • وهم أقسام كأقسام العالم المعروف فى العرف • (17)

وقال : ولو فتحنا الكلام عن سرائر هذه الحروف وما تقتضيه حقائقها لكلت اليمين وحفى القلم وجف المداد وضاقت القراطيس والالواح • فانها من الكلمات التى قال الله ـ تعالى ـ فيها : لو كان البحر مدادا لكلمات ربى لنفذ البحر قبل أن تنفذ كلمات ربى ولو جئنا بمثله مددا • وقال : ولو أن ما فى الارض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفذت كلمات الله وقـــال : وهنـا سر واشارة عجيبة لمن تفطن لها وعثر على هذه « الكلمات » فلو كانت هذه العلوم الالهية نتيجة عن فكر ونظر لانحصر الانسان فى أقرب مدة • ولكنها موارد الحق ـ تعالى ـ تتوالى على قلب العبد وأرواحه البررة تنزل عليه من عالم غيبه • اهـ (18)

وننقل هنا ما يدل على موقف محيى الدين بن عربى من علم الحروف ورأيه فيها • قـــال :

وهو (علم الحروف) علم شريف فى نفسه الا أن السلامة منه عزيزة • فالاولى ترك طلبه • فانه من العلم الذى اختص الله به وأولياؤه على الجملة وان كان عند بعض الناس منه قليل ولكن من غير الطريق الذى يناله الصالحون • ولهذا يشقى به من هو عنـــده ولا يسعـــد • (19)

---

(17) الفتوحات المكية 1/255 ـ 260 ـ كلام محيى الدين بن عربى عن الحروف كثير موزع على الاجزاء الثلاثة الاولى من الفتوحات • انظر الطبعة الجديدة بتحقيق د • عثمان يحيى وتصدير د • ابراهيم مدكور • القاهرة 1972 ـ 1974 •

(18) المصدر السابق ، 3/208 •

(19) ابن سبعين وفلسفته الصوفية ، ص 90 •

وأسلوب المتصوفة فى علم أسرار الحروف والاسماء بوجه عام فى غاية الغموض والابهام لاستخدامهم الرموز والالفاظ الاصطلاحية لاخفاء أذواقهم • فلعبارتهم فى الغالب معنيان أحدهما يستفاد من ظاهر الالفاظ والآخر يستفاد بالتعليل والتعمق • وهذا المعنى الاخير مستغلق تماما على من ليس بصوفى • ويعنى الرمز عند الصوفية أيضا دمج معان كثيرة فى ألفاظ قليلة غيرة عليه واتقاء لحاسد أو جاحد لمعانيه ومبانيه •

وربما يكون من المفيد أن نختم هذا المقال بالقاء شىء من الضوء على ظاهرة علم أسرار ا لحروف والاسماء بتلخيص ما ذكره ابن خلدون فى المقدمة بهذا الصدد : كان علم أسرار الحروف يسمى بالسيمياء • وهى نوع من السحر • واشتق علم أسرار الحروف من علم الطلمسات فى اصطلاح أهل التصرف من المتصوفة • وحدث هذا العلم فى الملة عند ظهور الغلاة من المتصوفة وميلهم الى كشف حجاب الحس وظهور الخوارق على أيديهم والتصرفات فى الكون وتدوين الكتب والاصطلاحات • وزعموا أن الكمال الاسمائى مظاهره أرواح الافلاك والكواكب وأن طبائع ا لحروف وأسماءها سارية فى الاسماء فحدث لذلك علم أسرار الحروف • وهو فرع من علم السيمياء وحاصله وثمرته عند أهله كالبونى وابن عربى والمجريطى وابن سبعين وغيرهم تصرف النفوس الربانية فى عالم الطبيعة بالاسماء الحسنى والكلمات الالهية الناشئة عن الحروف المتضمنة للاسرار السارية فى الكون • ثم اختلفوا فى سر التصرف الذى فى الحروف بماذا يكون • منهم من جعله كامنا فى طبيعته المستكنة فيه • وقسم الحروف بقسمة الطبائع الى أربعة أصناف كما للعناصر واختصت كل طبيعة بصنف من الحروف يقع التصرف فى طبيعتها فعلا وانفعالا بذلك الصنف • فتنوعت الحروف بصفة صناعية الى نارية وهوائية ومائية وترابية على حسب تنوع العناصر • فالالف للنار والباء للهواء والجيم للماء والدال للتراب • فاختص كل من العناصر وهى النار والهواء والماء والتراب بحروف سبعة •

ومنهم من جعل سر التصرف الذى فى الحروف للنسبة العددية • فان حروف أبجد دالة على أعدادها • فعلاوة على التناسب الذى بين الحروف والاعداد يوجد تناسب بين الحروف نفسها أيضا كما بين الباء والكاف والراء لدلالتها كلها على الاثنين كل فى رتبته • فالباء تساوى اثنين فى رتبة الآحاد والكاف تساوى اثنين فى رتبة العشرات

والراء تساوى اثنين فى رتبة المئتين (ب = 2 · ك = 20 · ر = 200) وكالذى بينها وبين الدال والميم والتاء لدلالتها على الاربعة (د = 4 · م = 40 ت = 400) وبين الاربعة والاثنين نسبة الضعف ·

وخرج للاسماء أوفاق كما للاعداد · يختص كل صنف من الحروف بصنف من الاوفاق الذى يناسبه من حيث عدد الشكل أو عدد الحروف ·

وامتزج التصرف فى السر الحرفى والسر العددى لاجل التناسب الذى بينهما · ويعترف ابن خلدون بأن سر هذا التناسب الذى بين هذه الحروف وأمزجة الطبائع أو بين الحروف والاعداد أمر عسير على الفهم · اذ ليس هو من قبيل العلوم والقياسات ويعتمد أهل هذا العلم فى ذلك على الذوق والكشف · قال البونى : ولا تظن أن سر الحروف مما يتوصل اليه بالقياس العقلى · وانما هو بطريق المشاهدة والتوفيق الالهى · وتاثره بها أمر لا ينكر لثبوته عن كثير من أصحاب هذا العلم بالتواتر · وينكر أن تصرف هؤلاء وتصرف أصحاب الطلسمات واحد ·

فان تأثير الطلسم ـ كما يقر أهله بذلك ـ ناشىء عن قوى روحانية تؤثر وتفعل بطريق القهر والغلبة بواسطة أسرار فلكية ونسب عددية وبخورات جالبات لروحانية ذلك الطلسم مشدودة فيه بالهمة · فائدتها ربط الطبائع العلوية بالطبائع السفلية فيحصل بذلك الربط التحول المنشود فى الطبيعة · فهيمنة الطلسم على الطبيعة يقع بملكة مكتسبة نابعة من نفس وهمه مستخدمة · يقولون : موضع الكيمياء تاثير جسد فى جسد · وموضع الطلسم تاثير روح فى جسد لانه ربط الطبائع العلوية وهى روحانية بالطبائع السفلية وهى جسد ·

ولابد من التاكد من شىء وهو أن التصرف فى الطبيعة من قبل أهل الطلسمات وأهل الاسماء يعتمد على النفس الانسانية والهمة البشرية ·

وتاكيد الفرق بين أهل الطلسمات وأهل الاسماء نابع من أن النفس البشرية تتصرف فى الطبيعة بذاتها · أما تصرف أهل الطلسمات فانما يعتمد على استنزال روحانية

الافلاك وربطها بالصور أو بنسب عددية حتى يتحقق التحول المرجو فى الطبيعة · وتصرف أصحاب الاسماء يحصل لهم بالمجاهدة والكشف والاستمداد من النور الالهى والعون الربانى · فيقع بذلك امتثال الطبيعة وخضوعها ·

وصاحب الاسماء لا يحتاج الى مدد من القوى الفلكية ولا غيرها لان مدده أعلى منها أما أهل الطلسمات فيحتاجون الى قليل من الرياضة تقيد النفس قوة على استنزال روحانية الافلاك · بخلاف أهل الاسماء فان رياضتهم هى الرياضة الكبرى المنزهة عن قصد التصرف فى الكون · وانما التصرف حاصل لهم بفضل وضعهم الممتاز وهو كرامة من كرامات الله لهم ·

فاذا خلا صاحب الاسماء من الصلة بينه وبين الله حرم معرفة أسرار الله وحقائق الملكوت النابعة من المشاهدة والكشف واستعاض عن ذلك باستخدام مناسبات الاسماء وطبائع الحروف والكلمات وهبط الى دركة أهل السيمياء وصار اذن لا فرق بينه وبين صاحب الطلسمات · بل صاحب الطلسمات أوثق منه لانه يرجع الى أصول طبيعية علمية وقوانين مضبوطة (20) ·

(20) مقدمة عبد الرحمن بن خلدون بتحقيق نصر الهورينى ، ص 245·

اهم المصادر والمراجع

1 ـ الاعلام ـ الزركلي ـ ط 2 ، القاهرة 1957 ·

2 ـ تراث الاسلام ـ تأليف جمهرة من المستشرقين باشراف سير توماس أرنولد ، تعريب وتعليق جرجيس فتح الله ، ط 2 بيروت 1972 ·

3 ـ ابن سبعين وفلسفته الصوفية ـ د · أبو الوفا التفتازانى ، بيروت 1973 ·

4 ـ شمس المعارف الكبرى ـ البونى ـ بيروت 1970 ·

5 ـ الفتوحات المكية ـ محيى الدين بن عربى ـ طبعة جديدة ـ تحقيق د · عثمان يحيى وتصدير د · ابراهيم مدكور الاجزاء 1 ـ 2 ـ 3 ـ القاهرة 1972 ـ 1974 ·

6 ـ الفهرست ـ ابن النديم تحقيق غوستاف فلوغل ـ ليبتزيق 1871 ·

7 ـ مخطوطات جزائرية فى مكتبة اسطنبول جمع وترتيب د · عمر بن عبد الكريم بيروت ، 1972 ·

8 ـ معجم الادباء ـ ياقوت ـ دار المأمون ـ الجزء 3 ـ القاهرة 1936 ·

9 ـ معجم أعلام الجزائر ـ عادل نويهض ـ بيروت 1971 ·

10 ـ مقدمة عبد الرحمن بن خلدون تحقيق نصر الهورينى القاهرة 1274 هـ ·

11 ـ الفكر الشيعى والنزعات الصوفية ـ د · كامل الشيبى بغداد 1966 ·

حَول
اقتصاد مَدينة عنابَة
في عَهد الإستقلال

جلول مكي
معهد العلوم الاجتماعية
جامعة الجزائر

مدينة عنابة : هي الوارثة لهبون العتيقة التي أسسها القرطاجيون في القرن التاسع قبل الميلاد • ثم المدينة الاسلامية القديمة التي أسسها العرب في القرن الحادي عشر الميلادي ، والتي تعلقت بالصخر في مواجهة السهل وعلى آخر المنحدرات الشرقية لكتلة ايدوغ ، ويحميها رأس العسة من العواصف البحرية • والمدينة أيضا في مأمن من فيضانات وادي سيبوس •

ولقد انتقلت المدينة اثناء القرون : هبون التي صارت أسقفية القديس أو قستان ، كانت بين السهل ومصرف ماء بحيرة فزارة ؛ والمدينة الاسلامية بنيت على بعد كيلومترين بالشمال من هبون ، حيث هي اليوم على مسطح منحنى ربوة حيث توجد القصبة ، وكذلك المصالح البحرية التي تحولت الى ميناء عصري له حوضان محميان بكاسر للامواج•

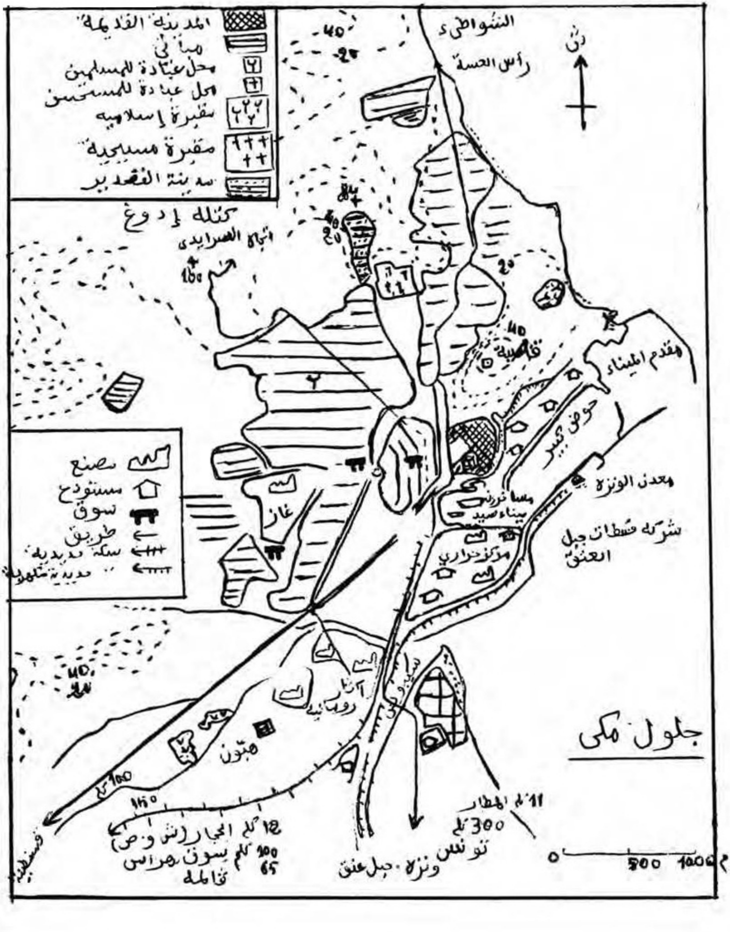
ووضع عنابة البحرى والقارى يذكر بموضع وهـران والجزائر وبجـاية • وميناؤها خاصة محمى جيدا ، ووادى سيبوس وروافده يصلها بظهيرها الخلفى من الجبال والسهول المرتفعة وما تحتويه من ثروات منجمية •

نمو المدينة : كان نموها بطيئا ، ففى سنة 1954 م كان عدد سكانها (90.000 نسمة) وفى سنة 1966 م بلغ هذا العدد (150.000 نسمة) • وهذه الزيادة كانت بسبب العمل فى الميناء ، فعنابة قبل كل شيء هى ميناء ، وهو أول ميناء بالجزائر لتصدير المعادن الى الخارج (حديد ، فسفات الخ •••) ، وكذلك لتصدير فلين التل وحمضيات سهـــل عنابة ، وحلفاء السهول المرتفعة • ويستورد الميناء أشياء الاستهلاك والتجهيزات لناحية عنابة • وهذا النشاط يعطى تجارة عادية بين 3،4 ميلون طن ، يدخل ضمن الصادرات ما يقدر بـ $\frac{4}{5}$ أربعة أخماس المجموع •

ولهذا كله فمدينة عنابة معتزة برخائها وشاعرة بعملها باعتمادها على ظهيرها الخلفى ، فهى تعمل جاهدة منذ زمن طويل لتصدير مركزا جهويا هاما ، ولتستقل عن قسنطينة ، ولم تحقق هذا الا سنة 1955 م بعام واحد فقط قبل تقسيم الجزائر الى ثلاثة عشر ولاية (13) سنة 1956 م •

ميناء عنابة : مدينة عنابة هى قبل كل شيء تعكس نشـاط مينائها المختص بتصدير الثروات المعدنية من حديد جبل الونزة وفسفات جبل الكويف ، واليوم فسفات جبـــل العنق أيضا ؛ واثمد وزنك حميمات جنوب صدراة ، ومنجم رصاص مسلولة غرب منجم الونزة ، ومنجم زنك الناظور جنوب شرق قالمة • والميناء يصدر أيضا منتوجات الارض للسهول المرتفعة (حبوب ، منتوجات حيوانية) ، وحبوب وفلين ظهيرها الخلفى الجبلى •

وعنابة كذلك تسوق وتحول (صناعة) بواسطة تعاضديات ثروات المنتوجات للسهول المجاورة : الخمور ـ القطن ـ الحمضيات ـ الخضر ـ وخاصة الطماطم • لكن هذه النشاطات الفلاحية هى احدى النشاطات الموسمية • وبالمقابل الاستيراد بقى ضعيفا نتيجة لمزاحمه سكيكدة ، وقللت عنابة أيضا من استيراد المنتوجات البترولية ، ومواد البناء ، والآلات والمعدات الـــلازمة للمراكز المنجمية ؛ فالاحصائيات تدل على عدم التوازن التجـارى • فالتصدير سنة 1965 (2.832.000 طن) • والاستيراد (264.000 طن) •



المدينة القديمة
مباني
محل عبادة للمسلمين
محل عبادة للمسيحيين
مقبرة إسلامية
مقبرة مسيحية
مدينة القصدير
مصنع
مستودع
سوق
طريق
سكة حديدية
ش
الشواطئ
كتلة إدوغ
اتجاه الصرايدي
مقدم الميناء
حوض كبير
معدن الونزة
ميناء صيد
شركة فسفاط جبل العنق
غاز
آثار رومانية
هبّون
المطار
تونس
ونزة . جبل عنق
جلول مكي
0
500
1000

وميناء عنابة هو أيضا ميناء ثانوى للمسافرين نظير ميناء سكيكدة ، وبه ميناء ثانوى للصيد ، رغم التطويرات التى ادخلت عليه ، ورغم قاعدة الرصيف القارى الواسعة • اما مطارها فليس له نشاط كبير •

الفــــلاحـة بعنـــابـة :

سهل عنابة : يحده من الشمال كتلة ادوغ (1008 مترات) التى تمتد حتى رأس روزه بأقصى شرق السهل بواسطة الربى الرملية المشجرة ؛ ويحده من الغرب جبال القبائل الصغرى «القبائل الشرقية» ؛ ويحده من الجنوب سلسلة جبال قسنطينة «جبال نوميديا».

مساحة السهل وتكوينه : يمتد السهل على طول مائة كيلومتر (100 كلم) ، وعرض عشرين كيلومتر (20 كلم) ، ومساحته مائة وعشرون ألف هكتار (120.000 هـ) • أما تكوينه فهو سهل لحقى من نوع السهول الساحلية الرسوبية كثيرا مـا توجد بالمغـرب العربى «سهل الغرب بالمغرب الاقصى وسهل متيجة ، وسهل بنزرت بتونس» • هــذا السهل كونته وديان أربعة هى : وادى سيبوس ووادى بونموسة ووادى الكبير الغربى ووادى الكبير الشرقى ، فترسبات طمى هذه الوديان ساعدت على تكوين تربة ثقيلة لكنها خصبة للفلاحة ، وخاصة الزراعة الحديثة ، ويتوسط هذا السهل مستنقعات كثيرة كونتها الوديان الاربعة التى تجمع كل شتاء ماءها وتلقى بها فى هذا السهل فتغذى المستنقعات والبحيرات مثل بحيرة فزارة •

واما مناخ السهل فالامطار كثيرة تتجاوز سبعمائة ملمتر (700 مم) ، وهكذا فمصادر المياه كثيرة ، من الامطار ومن طبقة الارض ومن الوديان ، لكن فى وسط السهل الامطار قليلة ، ولهذا يتطلب الـــرى فى الصيف ولهذا الغرض بنى سد الشافية عـــلى وادى بونموسة سنـــة 1965 ـ 1967 م • سعتــه مائـــة وسبعون مليـــون متر مكعـــب 170.000.000 متر3) • ويسمح برى (21.500 هكتار) • من السهل الاوسط ويـزود أيضا مدينة عنابة ومجمع الحجار الفولاذى بالماء •

متى بدىء فى استغلال السهل ؟ بدأ استغلاله سنة 1835 م باقامة عـــدد كثير من المستعمرات الصغيرة ، وتغلب على مياه السهل مترا مترا ، واستغل بالفـــلاحة الكثيفة (قطن ـ تبغ ـ قزازة ـ تربية الابقار) (1) .

وفى سنة 1880 ادخلت زراعـة الكـــرمة (فرنسيون ـ ايطاليون) ، 9000 هكتـــار كرمة (2) ، وبعد الازمة الاقتصادية التى وقعت بالمنطقة ابتداءا من سنة 1882 م حيث اصيبت الكرمة بمرض القمل ، جاءت موجة أخرى من المعمرين الكرامين من منطقة الجزائر العاصمة واشتروا أكثر الاراضي وجمعوها فى قطع بين (500 ـ 1000 هـ) ، وأسسوا اقتصادهم على الكرمة وتربية الماشية الكثيفة . وادخلت زراعة الحمضيات بين الحـــربين العالميتين (2.300 هـ) ؛ والخضر ، وخاصة الطماطم والتبغ والقطن وتربية المواشى .

وتم صرف مياه السهل الاوسط بين سنتى 1952 ـ 1956 م بوضع شبكة لتصريف الميـــــاه .

وبعد الاستقلال فى سنة 1963 التسيير الذاتى ورث هذا السهل ، وكانت الكـــرمة تحتل من 50 الى 60٪ من الارض ، ثـم الحمضيات والخضر (بلدية البسباس) ، والزراعة السنوية الغنية مثل : القطن والتبغ والخضر ؛ واليوم اقتلعت الكرمة وعوضت بالمزروعات لكن تحتاج الى سقاية فى الصيف وتتضرر بكثرة الامطار فى الفصل الممطـــر ، وهكذا انجزت شبكة لتصريف مياه الامطار ، بالاضافة الى شبكة لـــرى المزروعات الصيفية ، وانجز بنـــاء سد الشافية على وادى بونموسة سنة 1967 م لـــرى السهـــل ، ويسقى (21.500 هـ) ابتداءا من عام 1967 الى 1977 م وهذا الانجاز الهـــام يسمـــح بتكثيف الزراعة وتنويعها : قطن ـ بنجر سكرى ـ مروج . لكن السقاية هنا صعبة لان شبكـــة الرى تسد وتتطلب رقابة محكمة لشبكة التصريف . غير ان هذا الانجاز المهم لا يحـــل المشكل الباقى من السهل وهو : الثلث الغربى من السهل ، والثلث الشرقى من السهل

---

1) قزازة : تربية دودة القز لانتاج الحرير الطبيعى .

(2) Despois (J.) Raynal (R.) : Géographie de l'Afrique du Nord-Ouest. p. 166, année 1967 Paris.

الكثير المستنقعات وبه شريط واسع من الساحل ذى الكثبان الرملية . فيبقى الثلثان بـــورا .

والسهل الاوسط هو الذى جرت فيه اصلاحات هامة .

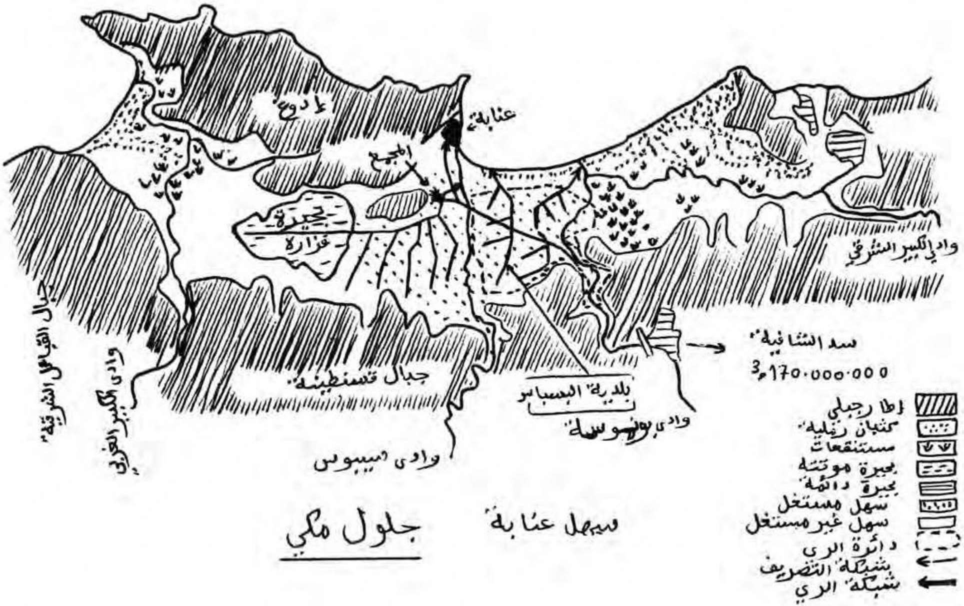
وسهل عنابة قريب من الميناء ، وقريب أيضا من أكبر مركز للاستهلاك الذى تمثـل مدينة عنابة فتجعل هذا للسهل ذا قيمة كبيرة .

وسهل عنابة اليوم يمكن أن يكون متيجة ثانية لها نفس المساحة تقريبا ، ولـــه نفس الوضعية والقابليات ، ولكن متيجة عنابة تختلف عن متيجة العاصمة فى الكثافة السكانية ، فكثافة سهل متيجة (289 نسمة) فى الكيلومتر المربع ، وكثافة سهل عنابة (65 ن فى كـ2) سنة 1966 م (3) .

المناطق الماهولة بالسكان : تمتد المساكن بين المستنقعات والربى المشجرة ، فالسكان يعيشون أقل تبعثرا فى اكفار بئيسة من أكواخ الطين والاعراف وتزايد عددهم على هذه الحاشية من السهل بسبب حرب التحرير ، وبسبب تحسين الشروط الصحية بصرف المياه والتلقيح ، وأيضا بسبب نزول قسم من سكان الجبال ، وقامت قرى تجميع سكان الجبال رغم عودة بعض هؤلاء السكان الى مقر سكناه القديم (4) . ويقوم هؤلاء السكـان بزراعة الحبوب فى الاراضى الرملية (شعير ـ سرغو) ، والحبوب الجافة ، وخاصة الحمص ، والتبغ ، وهذان الاخيران لهما مردود جيد ؛ بالاضافة الى تربية الابقار الكثيفة والغنـــم والماعز ، وشجارة الزيتون بشريط حاشية سهول سفوح الجبال ، تكون اقتصادا تقليديا كثيفا . ثم غرس أشجار الكافور لغرض الصناعة .

غير ان كثرة السكان ادت الى تجزأة الارض ، وهذه التجزأة عقبة كبيرة فى طـريق تحسين الاقتصاد . فالزراعة الصناعية والاعشاب تقهقرت أمام توسع القمـح الصلب ، والناس وجدوا بعض الاعمال فى الغابة ، وفى جنى خلايا النحل هناك .

(3) Géographie d'Algérie institut pédagogique national - Alger année 1967, p. 218.
(4) Despois (J.) Raynal (R.) p. 169.


عنابة
ادوغ
المجمع
بحيرة فزارة
جبال القبائل الشرقية
وادي الكبير الغربي
جبال قسنطينة
وادي سيبوس
بلدية البسباس
وادي بونموسة
وادي الكبير الشرقي
سد الشافية
$170.000.000 m^3$
اطار جبلي
كثبان رملية
مستنقعات
بحيرة موسمية
بحيرة دائمة
سهل مستغل
سهل غير مستغل
دائرة الري
شبكة التصريف
شبكة الري
سهل عنابة
جلول مكي

المجهود الوطنى لتحسين سكان الريف بالناحية :

قامت الدولة بوضع برنامج لبناء ثمانية قرى اشتراكية بولاية عنابة ، بها هياكل مرافق الحياة العصرية الضرورية ، وهذا ضمن مخطط بناء ألف قــــرية (1000 قرية) . عبر كامل الوطن ، وهذه القرى الثمانية تشتمل على (1550 مسكنا) ، وانجز منها قريتين هما : قرية أم الطبول ، وبها (200 مسكنا) ، وقرية الفرين بها (150 مسكنا) ، والقريتان بدائرة القالة ، والقرى الستة الباقية هى فى طريق الانجاز وكلها تقريبا تقع فى السهل .

الصناعة : تهدف الى تغيير طريقة ونظام الاقتصاد الوطنى والمحافظة على المبادلات التجارية ، وتوازن المدفوعات ، وترمى الصناعة أيضا الى تغيــير الانسان فى الميدانين : الاجتماعى والثقافى ؛ وبعبارة أخــرى تسعى الى تطـــوير الانسان وتجـديد المجتمع ، فالصناعات الحديدية التى كانت بالجزائر فى العهد الماضى بعنابة ووهران والعاصمة هى : مصانع أسلور (ACILOR) التى تنتج قضبان الخرسانة والاسلاك النحاسية (5) ولخلق صناعة حديدية ثقيلة بالجزائر والتى تهدف الى وضع أسس متينة لكل أنواع الصناعات الاخرى ، وذلك بتحويل مواد الخام تحـــويلا بسيطا وجعلها قابلة للاستغلال من لــدن مصانع أخرى ، كصناعة الفولاذ مثلا ؛ وامــا بصنع آلات لتجهيز هذه المصانع ، ولذلك تلقب أيضا بالصناعة الاساسية أو صناعة التجهيز ، وهى نوعان : (حديدية وكيمياوية) ولتحقيق هذا الغرض أنشأت الدولة بمساعدة الصندوق الجزائرى للتنمية (ص. ج. ت) الشركة الوطنية للحديد والصلب (ش. و. ح. ص) سنة 1964 وبمساعدتى الاتحـاد السوفياتى وفرنسا المالية والفنية لخلق الصناعة الثقيلة التى تعطى التجهيز الاساسى والضرورى للحياة الصناعية والفلاحية العصريتين . وهذا التجهيز حيوى لبلد فى طريق التجهيز ، وأيضا لتقوم الشركة بتطوير القطاع المعدنى بصفة عامة بالجزائر . وكلفـت الشركة بمهام : 1 ـ انتاج مواد الحديد والصلب 2 ـ انتاج وتحويل المعادن غير الحديدية (نحاس ـ رصاص ـ زنك الخ ...) 3 ـ احتكار توزيع منتجـات الحديد والصلب (6) .

---

(5) Géographie d'Algérie, p. 306.

(6) Imprimerie de l'union, Kouba - Alger ملف الشركة الوطنية للحديد والصلب ص I

ولتحقيق هذه الاغراض فقد اقامت الشركة بانشاء مجمع الحديد والصلب المتكامل بالحجار ، على بعد أحد عشر كيلومتر من ميناء عنابة ؛ ليكون القاعدة الاولى لتحضير منتجات الحديد والصلب لسد حاجات البلاد (7) .

ورسمت للمجمع الفولاذى المتكامل أهداف ثلاثة ومراحل ثلاثة هى : الهدف الاول من المرحلة الاولى لانجاز المجمع : 1969 ـ 1973 . هو انتاج أصناف مسطحة من الفولاذ (410.000 طن فى العام) . بانشاء فرن عال ارتفاعه 30 مترا ، وقطره 6 أمتار ، وحجمه 653 متر 3 (8) • وقد بدأ تشغيل قسم الحديد الزهر فى جوان 1969 م ، ويستطيع هذا الفرن انتاج (1200 طن) فى اليوم فى المتوسط ، من حديد الزهر ، (هيماتيت) (9) ؛ ليغذى معمل الفولاذ ، ويعتبر هذا الفرن من أحدث الافران العالية فى العالم ويعالج الفولاذ بالاوكسيجين ، والدرفلة على الساخن والدرفلة على البارد وقد تطلب ذلك برنامج استثمار مبلغ مليارين من الدنانير ، وفعلا انجز قسم صناعة الفولاذ ، وسيوسع هذا القسم حتى يحقق انتاج (500.000 طن) فى العام • من الفولاذ المدرفل بتحويل خامات منجم الونزة وبوخضرة الى منتجات مدرفلة لتسد متطلبات الصناعة المتعددة ، ولتحقيق هذا العرض خصص معمل للمنتجات المسطحة من الفولاذ المصنع على البارد ، ويعتبر المعمل الاداة الضرورية لانتاج الفولاذ للاستهلاك العام فى قطاع الصناعات الميكانيكية والمعدنية .

ففى عام 1969 م بدأت الجزائر تشغل أكبر معمل فى العالم ينتج أنابيب حلزونية ملحومة كهربائيا ، لانتاج (100.000 ط/ع) ، من الانابيب كبيرة القطر (لغاية 1،20 مترا) لنقل المحروقات والمياه • وأنشأت الشركة أيضا معملا آخر للانابيب بدون لحام ينتج (86.000 ط/ع) .

والشركة تتهيأ لانشاء معمل (محبلة) لتصفيح الاسلاك والحلقات (الحبال للتنقيب

(7) Géographie d'Algérie, p. 224 بمساعدات : فرنسا المالية والفنية لبناء ثلاثة افران عالية 1968 • والاتحاد السوفياتى المالية والفنية لانجاز مصنع الفولاذ 1969 م • وايطاليا المالية والفنية لانجاز مصنع للتصفيح 1970 م •

8) كتاب الثورة الصناعية ـ وزارة الصناعة والطاقة ـ الجزائر 1974 • ص 74 ـ 75 ـ 76 ـ 77 ـ 78 •

9) الحديد الزهر هو : فلذات تحول الى حديد ممزوج بالكوك وغيره •••)

على المعادن ، والحلقات للبناء والهندسة المدنية) · وللوصول الى غاية الهدف الثانى وهو زيادة نوعيات المنتجات المقدمة للاستهلاك ·

ويرسل خط السكة الحديدية المكهرب فى الحالة العادية خمسة قطارات فى اليوم ، كل قطار به 22 عربة محملة بمعدن الحديد من منجم الونزة وبوخضرة (10) · وقسم آخر من فلذات الونزة يصدر الى البلدان الاوروبية ، والانتاج السنوى حاليا 1974 م · بين 3،5،3 مليون طن ·

وبالمجمع فرن للحجر الجيرى ارتفاعه 75 مترا ينتج (120 طنا) يوميا من الحجر الجيرى . اما الهدف الثانى من المرحلة الثانية للمجمع الفولاذى التى تمتد من سنة 1973 ـ 1976

فقد تحقق فيها توسيع زمرة المنتجات المسطحة بانشاء قسم الدرفلة على البارد ، واقامة خط للخلفنة بواسطة الحل الكهربائى (11) · وانجاز خط آخر للقصدرة بواسطة الحل الكهربائى أيضا . بالاضافة الى اقامة قسم للانابيب دون لحام ، وقسم آخر لصناعة الفولاذ الكهربائى الذى ينتج (100.000 ط/ع) . وقسم لدرفلة الاسلاك والقضبان . والهدف الثانى لمجمع الحجار هو زيادة نوعيات المنتجات من الاسلاك والحلقات للاستهلاك . وبدأ المجمع يشغل هذه المنشآت منذ أواخر عام 1972 ، وينتهى من اتمام التشغيل الامل فى عام 1976 م . وهكذا يصل المجمع الى الهدف الثالث من المرحلة الثالثة والتى تمتد من سنة 1977 الى 1978 م . بغية زيادة الانتاج من (1.800.000ط/ع) الى (2.000.000 ط/ع) . وصناعة (220.000 ط/ع) من الانابيب من مختلف الاحجام ، ولتحقيق هذا الهدف أنشىء قسم ثان للصلب مجهز بفون عال ثان حجمه (2000 م3) . وفرن على فحم الكوك طاقته (1.2) مليون طن سنويا (12) . وذلك بانشاء قسم جديد لانتاج الحديد الزهر ، ملحق به قسم لانتاج الكوك . وأيضا توسيع صناعة الفولاذ بالاوكسيجين ؛ وبانشاء قسم الصب المستمر الذى يشتمل على : 1 ـ ورشات لتحويل المخردة الى فولاذ . 2 ـ ورشة للصب المستمر للفولاذ السائل بها ثلاث آلات للصب المستمر . 3 ـ ورشتين ينتجان على الترتيب : 100 و 155 ط من الاوكسيجين يوميا من كاربون الكالسيوم ، وينتجان أيضا الآزوت والاراغون (13) .

(10) Géographie d'Algérie, p. 222.

(11) ملف الشركة الوطنية للحديد والصلب .Imprimerie de l'Union, Kouba, Alger, p. 4

12) كتاب الثورة الصناعية ص 78 ·

13) قسم صناعة الفولاذ بالاوكسيجين ص 8 ·

وبجانب المجمع مصنع حرارى قوى يشتغل بالغاز الطبيعى من حاسى مسعود (عبر سكيكدة)٠ لا لانتاج الطاقة الكهربائية للمجمع فقط ولكن أيضا لخط السكة الحديدية لنقل المعادن ، وللصناعات المختلفة : (نحاسة ـ بناءات كهربائية) . وبالاضافة الى الطاقة الكهربائية يستعمل المجمع الفولاذى كذلك الكوك مسورد . وبالاضافة الى هذا انشىء بجانب المجمع معهد للمناجم والمعادن والبناء الميكانيكى ، يسع (3.000 طالب) ، مركز لتكوين المهن المتعددة ومركز آخر للتكوين المهنى ، ويعتبر هذا المجمع هو أكبر مصنع بالجزائر ، يضم أضخم عدد من المستخدمين ، لهم اختصاصات متعددة فى الانتاج ، وفى صناعة المعدات ، وفى الفحوص الدقيقة المواد الاولية والمنتجات النهاية . وقد تلقوا تكوينا فى ألمراكز الوطنية للتكوين أو الجامعات الجزائرية أو الاجنبية ، وبالتدريبات الدورية فى المصانع الحديثة فى الاتحاد السوفياتى والمانيا الفدرالية وايطاليا وفرنسا . وهكذا هم مسلحون للمشاركة فى الجهود التى تبذلها البلاد والرامية الى تغيير المجتمع الجزائرى ، هذه الجهود التى تتمثل فى الثورة الصناعية (14) التى تخدم الزراعة بانتاج الآلات الفلاحية وآلات الرى ، وهكذا تكون الصناعة فى خدمة الفلاحة العصرية التى تؤدى الى تغيير جذرى فى طريقة التصرف الفردى والجماعى فى المعمل والورشة والمؤسسة والجماعة

الانتاج سنة 1974 (15) :

450.000 ط/ع من الحديد الصلب تحول الى

410.000 ط/ع من صفائح الفولاذ

120.000 ط/ع من الانابيب الحلزونية ملحومة كهربائيا

400.000 ط/ع من الصفائح المصنعة على الساخن

150.000 ط من اللوحات المصنعة على البارد

40.000 ط من اللوحات المغلفنة أو المزوجة بالالومنيوم منها

20.000 ط معـرقة

14) ملف الشركة الوطنية للحديد والصلب ص 11 ٠

15) كتاب الثورة الزراعية ص 77 ٠

الانتاج المرتقب سنة 1980 م :

1.550 ط من الحديد الزهر

1.700 ط من الحديد الصلب

1.000 ط من المنتجات المسطحة المدرفلة على الساخن

270 ط من المنتجات المسطحة المدرفلة على الساخن

840 ط من القطاعات والقضبان

180 ط من أنابيب كبيرة ملحومة

30 ط من الغلافات المعدنية

70 الزنك الصافى

730 ألف قارورة غاز

العمال بالمجمع : يبلغ عدد العمال حاليا (5.564 عاملا) ، 210 مهندسيون وكوادر ، و 280 مراقبون وفنيون ، و 1585 عمال مهرة ، و 2245 عمال عاديون ، و 935 مستخدمون واداريــــون .

هذه هى الصناعة الثقيلة الاولى بمدينة عنابة ، أما الصناعة الثقيلة الثانية بالمدينة فهى الصناعة الكيمياوية الثقيلة لانتاج الاسمدة الفسفاتية · لقد كان فى العهد الماضى مصنع لانتاج السماد الرفيع من فسفات الكويف . وفى سنة 1963 م انشئت الشركـة الجزائرية للمنتجات الكيمياوية والاسمدة لجبل العنق . وانتج هذا المصنع سنة 1966 م مائة ألف طن (100.000 ط) من الاسمدة الفسفاتية من فسفات جبل العنق وأمنيـاك ارزيو (16) . ونظرا لمتطلبات الفلاحة المتزايدة للمواد المخصبة بدأت الدولة سنة 1969 م فى انشاء مجمع للاسمدة الفسفاتية بعنابة وبدأ تشغيله سنة 1972 م · ليوافق المرحلة الاولى من الثورة الزراعية 1972 وتقدر كلفة المجمع بحوالى 400 مليون دينـــار جزائرى وينتج (500 طن يوميا) من العنـــاصر المحصبة (بـ 205) . وتبلـــغ طاقتـه السنوية

(16) Géographie d'Algérie, p. 307.

(550.000 ط/ع) من الاسمدة المركبة ، و (450.000 ط/ع) من حمص السولفيرى ، (175.000 ط/ع) من حمص الفوسفورى (17) .

ومع المجمع أحـــواض التخزين . وأممــت الشركة الجزائرية للمنتجات الكيمياوية والاسمدة لجبل العنق سنة 1972 م .

وأول قطار من فسفات منجم جبل العنق غادر المنجم به (22 عربة) كان فى خريف 1966 م . بخط حديدى مكهرب طوله (340 كلم) الى عنابة ، ويرسل الخط فى الحـــالة العادية قطارا كل يوم .

وانتـــاج الفسفات سنـــة 1974 م (400.000 ط/ع) تصـــدر بحالتهـا الطبيعية و (600.000 ط/ع) منتقاة يجـــرى تحويلها فى المجمع لانتاج (550.000 ط/ع) مـــن الاسمدة الفسفاتية والاسمدة المركبة .

وبالاضافة الى مجمعى الصلب والحديد ، والاسمدة الفسفاتية تـــوجد هناك بعض الصناعات المعدنية التابعة للشركة الوطنية للانشاءات المعدمية منها : وحدة شمال افريقيا للبناء الميكانيكى وآلات السكك الحديدية لانتاج عربات القطار من كل نوع (لنقل المعادن والركاب الخ ...) ومعدات السكك الحديدية ، بها مصهر للحديد ، ووحدة أخرى لانتاج معدات الطرق والهندسة المعمارية ، وهياكل البناءات المعدنية . ووحـــدة ثالثة للبناءات الجـــاهزة .

وهناك صناعات أخرى : مصنع للرخام وآخـــر للمواد الحمراء · وأخيرا الصناعات الغذائية : معصرة للزيت ـ أرحاء ـ تعاضديات توضيبية : (للتبغ ـ والقطن وتحـــويل الطماطم ، والحمضيات) . واليوم هذه التعاضديات اتحدت ونظمت كل انتاج السهـــل (مشاريع التبغ ـ معالجة القطن) .

وهكذا عنابة بفضل مينائها وشبكة مواصلاتها بالداخل وقربها من سهـــل خصب للفلاحة ، وبفضل ثروات معادن ظهيرها الخلفى ، وبالمجمعات الصناعية التى توجد هناك فعنابة تكون قاعدة اقتصادية متينة ، وهى بهذا صارت أحد أقطاب الصناعة الجـــزائرية والاقتصاد الجـــزائرى الحـــديث .

(17) كتاب الثورة الصناعية ، ص 51 ·

معركة عنّابة
التى تحدت الحلف الأطلسى

محمد الصالح الصديق
أستاذ فى التعليم الثانوى

من المعارك التاريخية الخالدة ، التى وقف فيها المجاهدون موقفا بطوليا رائعا ، لن ينساه التاريخ فى غمرات الاحداث ، معركة عنابة التى وقعت فى يوم 24 جوان سنة 1959 .

تلك المعركة التى هزت الاوساط الاستعمارية فى الجزائر وفى فرنسا ، وشغلت الصحافة العالمية الحرة منها والمجاورة ، والتى شاهدها ضابط بحرية بريطانى من ميناء عنابة ، وراعه عنفها وضراوتها ، وعجب من قلة المجاهدين وكثرة الجنود الفرنسيين والاستعدادات الهائلة الضخمة التى استقلمت للمعركة،فقال لشخص كان بجانبه :

كم عدد الثوار الذين تحاربونهم الآن ؟ .

فاجابه الآخر : بانه يقال ان عددهم حوالى السبعين .

فابتسم الضابط البريطاني ابتسامة سخرية وقال :

« في استطاعة الحلف الاطلسي ان يعتمد على الجيش الفرنسي ضد الاتحاد السوفياتي ... » (1)

فأين الشاعر المبدع ؟ أين الكاتب العبقري ؟ أين المؤرخ المعلل ؟ أين القصاص الماهر ؟

أين هؤلاء ليكتبوا عن هذه المعركة ، ويصوروا ضراوتها ، ويحللوا أبعادها ، ويصوروا بطولة احفاد عقبة بن نافع وطارق بن زياد في الجزائر ؟

أين هؤلاء ليصوروا الفدائية الخارقة ، والبطولة الرائعة ، التي تجلت في تلك الفئة القليلة المؤمنة ، وهي تقاتل قوة من اعظم القوى الحربية الفرنسية ؟

أليس هذا عجيبا يدعو الى الحيرة ، ويبعث على الدهشة ، ويثير في النفس تساؤلا ، وفي بعض النفوس تشككا وريبا ... ؟ تسعون مجاهدا ـ فقط ـ يقفون صامدين صابرين في بطولة واستبسال امام ثلاثة وعشرين ألف جندي فرنسي معززين بالطائرات والدبابات والمدفعية الثقيلة والأسلحة المختلفة الاخرى ، وتستمر المعركة في أشد ما يكون العنف ، واقسى ما تكون الضراوة والوحشية زهاء عشر ساعات متوالية ، ثم يسجلون أكبر نصر ، ويكتبون بدمائهم انصع صفحة في تاريخ الاسلام ؟ ؟

هذا شيء كان الناس يقرأون مثله في القصص الخيالية فتهتز قلوبهم اعجابا ، وكانوا يسمعونه من بعض الشيوخ الأسطوريين الذين يلذ لهم ان يسامروا في ليالي الشتاء الطويلة ، ولكننا رأيناه رأى العين في الجزائر ، وسمعناه سمع الأذن ممن تخلفوا عن ركب الشهداء ...

معركة عنابة

الى هذه المعركة ـ أيها القارىء الكريم ـ في شيء من الوصف والتفصيل ريثما تنال معارك التحرير الجزائرية حظها من الكتابة الجدية المستفيضة ، وتعطى من العناية ما يتفق واهميتها في انقاذ الاسلام والعروبة في هذا الوطن :

(1) المجاهد عدد 46 ت 13 جويلية 1959 .

كانت فرقة (كومندوس) من جيش التحرير الوطنى بقيادة الملازم البطل (حيدوش) قادمة من الحدود التونسية وكانت على بعد ثلاثين كيلومترا من مدينة عنابة عندما اكتشفها الفرنسيون والساعة اذ ذاك تشير بالضبط الى السابعة والربع من مساء يوم الثلاثاء 23 جوان سنة 1959 ·

وما ان اكتشف الفرنسيون هذه الفرقة حتى أخذوا يطوقونها بحصار محكم فاستقدموا لهذا الغرض فرق القوم والحركة ، وفرق اللفيف الاجنبى ، وفرق القلانس الحمراء والخضراء،والفرقة الرابعة عشرة للمصفحات،ووحدات أخرى مختلفة من البوليس (س·ر·س) واستقدمت هذه الفرق من قسنطينة ، سكيكدة ، قالمة ، سطيف ، سوق السبت ، وادى العنف ··· بل ان بعض الفرق استقدمت من جنوب وهران بواسطة الطائرات ···

واستمرت القيادة العسكرية الفرنسية كامل الليل تهيىء هذه العدة الضخمة لتنظيم الحصار ، وباتت مدينة عنابة تلك الليلة فى موجة صاخبة من الهرج والمرج ، والفزع والروع تنتظر فى قلق بالغ ، وحيرة ماحقة ، ما يسفر عنه الصباح ·

وبالرغم من هذه القوة الضخمة التى تتلاحق الى المكان بين الفينة والاخرى فان فرقة جيش التحرير الوطنى لم تقف مكتوفة الايدى بل واصلت سيرها فى حذر داخل دائرة الحصار ، نحو مدينة عنابة ·

وكان البطل (حيدوش) قائد الفرقة قد وقف بين جنوده اثر اكتشافهم وقال فى لهجة المؤمن الصادق الذى باع روحه لله فى سبيل عزة الوطن ، وتيقن انه واصحابه على موعد مع الموت :

(أيها المجاهدون الابطال ··· يا حماة الجزائر البواسل ··· اذا كان العدو يفوقنا عددا وعتادا فاننا نفوقه ايمانا بالله ، وايمانا بعدالة قضيتنا ، وثقة فى النصر ورغبة فى الشهادة ··· وهذ السلاح الذى نملكه ونعتز به لا يملكه عدونا ، وهو اقوى سلاح وامضاه ، من تسلح به صنع المعجزات ··· ولنقاتل فى سبيل الله وفى سبيل أرضنا العزيزة حتى نموت جميعا ، ولا تنسوا اننا مسلمون جزائريون فمن شأن المسلم ان

يموت مقبلا لا مدبرا فاقبلوا على الموت ولا تدبروا ٠٠٠ ومن طبيعة الجزائرى منذ القديم ان يولد مجاهدا ، ويعيش مجاهدا ، ويموت مجاهدا ، وها نحن نموت مجاهدين ولكن فى سبيل ان تعيش الجزائر حرة مستقلة) ٠

وبعد هذه الكلمة التى القاها بالعامية وصغناها فى قالب عربى ، اندفع حيدوش مع رفاقه الابطال ونار الحماسة تتقد فى صدورهم ودماء عقبة وطارق والامير تغلى فى اجسامهم ، وصورة المعركة تتراقص امام اعينهم ٠

وفى الساعة الرابعة من صباح الغد (الاربعاء 24 جوان) وصلت فرقة جيش التحرير الى ضاحية سيدى سالم احدى ضواحى عنابة وكانت الشمس قد بزغت على الافق وأخذت اضواء النهار تغزو المدينة ولما تدخل قلبها مما جعل الفرقة تتمركز فى مزرعة مشجرة محصنة بواد (سيبوس) ٠

وفى هذا المزرعة نظم المجاهدون مواقعهم الدفاعية ، ورسموا خطة للخروج ، من الميدان ، وحفروا الخنادق ، واعدوا الاسلحة اعدادا محكما ٠

وكان الجنود الفرنسيون يجدون فى البحث عن آثار المجاهدين ، وفى حدود الساعة السادسة اكتشفوا موقعهم ، ولكنهم لم يكادوا يقتربون من المزرعة حتى أصلاهم المجاهدون جحيما من نيران اسلحتهم ، فسقط الفوج الاول من الجنود الفرنسيين صرعى وتراجع الآخرون على اعقابهم ٠

ولما عرفت القيادة العسكرية الفرنسية موقع المجاهدين وتاكدت منه اخذت تقذفه بقنابل المدفعية الثقيلة على اختلاف أنواعها ، وتواصل القنف باستمرار من الثامنة صباحا حتى العاشرة ٠

ثم توقف القذف وشرعت القيادة الفرنسية فى توجيه الهجوم ضد مركز المجاهدين وكان الهجوم حسب النظام التالى :

الصف الاول يتركب من القومية ، والحركة ، والصف الثانى من جنود اللفيف الاجنبى ، والثالث من جنود المظلات ، ويأتى بعد ذلك بقية الجنود ٠

وكان المجاهدون يملكون من السلاح ما يمكنهم من مواجهة هذه القوة العاتية أو على الاقل ما يجعلهم يموتون واقفين بعد ان يقيموا من العدو مجزرة بشرية مهولة ، فقد كان لديهم أربعة وعشرون رشاشة ومدفع هاون وبازوكا وأربعة مدافع رشاشة وبنـــادق حربيـــة .

وبدأت المعركة تدور فى ضراوة وشدة بين هؤلاء الأسود البواسل الذين اقسمـوا ان يواجهوا القوة مهما كان نوعها وعظمتها ولا يخشون ، ويقتحموا المخاطر ولا يبالون ... وبين هؤلاء الشذاذ الذين قذفت بهم فرنسا أرض الجزائر ليموتوا دفاعا عن المحتل الغريب ، والمستغل المستعمر ، والغاصب المستبد ...

وكان المجاهدون ـ وهم امام هذه القوة الجهنمية ـ يطلقون الرصاص ، ودماؤهـم تغلى فى اجسامهم حمية وكراهية وغيظا وهم يتصايحون : (الجهاد : الجهاد) ويرددون فى حماس وقوة (الله أكبر) .

وكان القائد (حيدوش) يقول لاخوانه الابطال من حين لآخر :

(تذكروا انكم تدافعون عن الحق وتموتون فى سبيله فانتم الرابحون عشتم أو متم).

وكانوا ـ نظرا لمواقعهم الاستراتيجية ـ يصبون نـــيران اسلحتهم عـــلى الجنـود الفرنسيين بمهارة فائقة ، وتركيز هائل ، فيحصدونهم حصدا ، ومنهم من كانوا يفرون دون هدف أو اتجاه محدود ، وقد بلغ الرعب ببعض الجنود الفرنسيين من هول الموقف انهم يلقون باسلحتهم على الارض ويرفعون أيديهم أو يفـــرون ... وكـــان الضباط الفرنسيون قد رأوا جنودهم يتقهقرون الى الوراء أو يفرون ، فراحوا يضربون مؤخرتهم بقنابل المدفعية الثقيلة حتى يجبروهم على التقدم والهجوم وحتى لا يجدوا أى منفـــذ للفرار ، ولكن انى لهم ذلك وقلوب الجنود الفرنسيين قـــد غادرت المعركـــة ولم تبق الا اجسام تجبر على المواجهة .

وقد ذكر لى احد المجاهدين الذين خاضوا هذه المعركة وتخلفوا عـن ركب الشهداء بمعجزة ان من الصور التى ستظل عالقة بذهنه ما دام حيا صورتين مختلفتين :

صورة مجاهد رأى زميله يسقط شهيدا بجانبه فهزته الحمية والغيرة فصار يندفـع الى الامام فى شجاعة خارقة ويهاجم برشاشته فيحصد الجنود الفرنسيين حصدا وهـو يقول (هاكذا يكون الثار) . حتى سقط شهيدا بقنبلة يدوية صوبت نحوه .

وصورة جندى فرنسى رأى رفيقه يسقط امامه ففر من المعركة وهو يصيح ... حتى اذا ابتعد قليلا خر صريعا برصاصة طائشة أو مصوبة لا أدرى .

وشاهد هذا المجاهد جنودا فرنسيين كثيرين لم يقدروا على مواجهة نيران القــــوة الوطنية فتظاهروا بالموت حيث لم يستطيعوا الرجوع الى الوراء أو الفرار ... لان قنابل المدفعية الفرنسية تمنعهم من ذلك .

وهناك من الجنود الفرنسيين من عجزوا عن متابعة المعركة (ومقاومة الموت) ورأوا ان الطريق الوحيد للنجاة هو الاستسلام للمجاهدين ، وعند المحاولة صوب الضباط الفرنسيون اليهم نيران رشاشاتهم فقتلوا جميعا وقد تكررت العملية عدة مرات بالرغم من هذه العاقبة التى كانوا يشاهدونها .

وعلى كل فقد ضرب المجاهدون فى هذه المعركة أروع امثال البطولة والتضحيــــة ، ولقنوا الجيش الفرنسى درسا فى الشجاعة والفداء ، وعلموهم ان الايمان بالله وبالقضية العادلة الشرعية تصنع المعجزات ، لان الايمان اقوى الاسلحة واشدها صلابة وثباتا .

وبعد ذلك تدخل الطيران الفرنسى واصبحت سماء المعركة تدوى بازيز الطائـرات وراحت تصب قنابلها على الارض فتندك دكا وتهتز اهتزازا ... وكانت معركة المجاهدين مع الطيران الفرنسى صورة رائعة ايضا للبطولة والفداء فقد صوبوا نيران اسلحتهم ضد الطائرات التى يبلغ عددها عشرين طائرة تقريبا بين قاذفات قنابــــل ، ومطـاردات ، وطائرات كشافة ، وغيرها من الطائرات المختلفة بين أمريكية وانجليزية وفرنسية ... فتمكنوا من اسقاط ثلاث طائرات واحدة من نوع (ب26) والثانية من نوع (ت6) والثالثة طائرة كشافة . وقد شاهدها جميع المــــدنيين ـ جزائريين وفرنسيين ـ وهى تسقط طعمة للنيران ...

وبعد هذه الموجة الرهيبة من الهجوم الجوى الذى واجهه المجاهدون ب‍ تبسال خارق وصمود رائع عادت القيادة الفرنسية الى تنظيم هجوم برى آخر ... ولكن جنود اللفيف الاجنبى التابعين للفيلق الاجنبى المتمركز بمركز (شابو جاندارم) رفضوا القتـــال . وألقوا بأسلحتهم الى الارض فقتل منهم أربعة لارغامهم على القتال ...



احد أبطال معركة عنابة اغيل على بوجمعة (على اليسار)

وبالرغم من مشاهدة الجنود لزملائهم يقتلون أمام أعينهم لرفضهم المشاركة فى الهجوم فانهم أصروا على الرفض وأخذوا يولون الادبار غير مبالين بعاقبة أمرهم ٠

وما أروع منظر الجنود الفرنسيين ــ كما ذكر شاهد عيان ــ يفرون من المعركة وهم يعلمون انهم أضعاف عدوهم عشرات المرات ، وان لهم من العتاد الحربى ما يمكنهم من السيطرة الكاملة على الطبيعة برها وبحرها وجوها ، ولكنهم يرهبون من جيش التحرير وترتعد فرائصهم فزعا منهم وفرقا ، لان الوطنية الصادقة أورثت هذه الفئة القليلة صبرا ، والصبر أقوى الجيوش ، ولان الايمان بالله أكسبها الشجاعة ، والشجاعة أقوى من الاسلحة ، ولان الدفاع عن الحق ألبسها ثوب المهابة والجلال ، والمهابة قوة يصعب اقتحامها ٠٠٠

فشتان بين جندى يقاتل دفاعا عن عزة ، وعن كرامة ، وعن حرية ، وعن وطن ، وعن دين ، وعن عرض ٠٠٠ يدافع عن دمه ، ودم آبائه ، ويدافع عن أرضه التى احتضنت رفات أجداده ٠٠٠

وآخر لا يدرى لماذا يقاتل ، وغاية ما يدرى انه استقدم من وراء البحر ليقاتل ٠٠٠ ويدمر، ويخرب، ويعيث فى الارض فسادا٠ان المجاهد حينما يواجه العدو تدور فى رأسه صور تفجر فى أعماقه طاقات من القوة والعزم والاصرار ٠٠٠ صورة زوجته التى عبث بشرفها جرذان باريس ، وجراد الاستعمار الفرنسى ٠٠٠ وصورة ابنه الذى فتكوا به شر فتك ٠٠٠ وصورة بيته الذى دمروه وخربوه ٠٠٠ وصورة آبائه الذين سقطوا فوق هذه الارض برصاص المحتلين السفاكين ٠٠٠

أما الجندى الفرنسى فلا تسيره الا غرائز البهيم (هوى من غير عقل ، وشهوة من غير كابح ، وسطوة من غير ضمير) ولا يشغل رأسه الا التفكير فى الفرار ، وانتظار يوم العودة الى وطنه ٠٠٠

والفرق بين الجنديين هو الفرق بين الحربين ٠٠٠

ولما تأكدت القيادة الفرنسية ان الفشل قد دب فى صفوف جنودها ، وانها عجزت عن ارغامهم على خوض المعركة من جديد ، شنت هجوما جويا آخر ولكنها هذه المرة

استعملت أسلوبا مغايرا تعودت أن تستعمله كلما منيت قواتها بالفشل والخسائر النكراء أمام قواتنا الوطنية ـ استعملت الغازات الخانقة ·

فعندئذ سقط المجاهدون الابطال شهداء الوطن ولم ينج الا أفراد قليلون جدا تمكنوا من الانسحاب من بينهم (اغيل على بوجمعة) الذى اعتمدناه فى كثير من حقائق الموضوع وجزئياته ·

أما الخسائر فى صفوف الجيش الفرنسى فلم يمكن حصرها بالضبط ، ولكن المدنيين الجزائريين الذين أجبروا على نقل الجثث من المعركة أكدوا ان الخسائر البشرية تبلغ (840) بين قتيل وجريح بالاضافة الى الطائرات الثلاث التى أسقطتها مدفعيتنا ، ودبابة حطمت بالبازوكا فى بداية الهجوم ·

ومما يؤكد ضخامة الخسائر الفرنسية وفداحتها ان سيارات الاسعاف المخصصة لنقل الجرحى أربعة عشر ة ، عشرة منها عسكرية وأربع مدنية ··· كما خصصت ثلاث طائرات عمودية لنقل الجرحى من الضباط ، وست حافلات كبيرة من نوع (ج · م · س) لنقل القتلى ·

اهميـــة هـــذه المعركـــة · تكتسى معركة عنابة أهمية بالغة تحتل بها مكانة الصدارة فى معارك التحرير الوطنية بالجزائر ، لاسباب متعددة أهمها :

1) ان هذه المعركة وقعت فى وقت كانت فيه السلطات الاستعمارية الفرنسية تؤكد ان الثورة على وشك النهاية ، وان جيش التحرير الوطنى يلفظ أنفاسه الاخيرة ولم تعد له أية قوة يدافع بها أو يهاجم ·

وكانت هذه الدعاية تتطور من (أرباع الساعة الاخيرة) فى عهد لاكوست الى (آخر الكتائب المتبقية) فى سنة 1959 وهذه المعركة فى الشرق الجزائرى جاءت جوابا عمليا صارخا القم المتخرصين الفرنسيين حجرا ، وأثبت للرأى العام العالمى ان كل تلك التصريحات زائفة باطلة ، وان القتال ما يزال على أشد ما يكون ضراوة وأقوى ما يكون صلابة وثباتا ، وان التهدئة التى ما انفك القادة الفرنسيون يزعمونها ليست الا أسطورة وهمية يحاول بها تضليل الشعب الفرنسى الذى مل هذه الحرب وتذمر منها ، وان جيش التحرير الوطنى هو سيد الموقف والمالك لزام الامر ·

2) ان برنامج شال الشهير الذى علقت عيله القيادة الفرنسية آمالها الفساح وجندت كل امكانياتها لانجاحه والدعاية له حتى ان معظم الصحف الفرنسية لا حديث لها الا عنه ، والذى كان من المقدر أن ينتهى فى أكتوبر سنة 1959 بالقضاء النهائى على جيش التحرير الوطنى ـ هذا البرنامج لم يكد يطبق فى مختلف أنحاء الجزائر حتى أخذ الفشل يسرى فى صفوف الجيش الفرنسى ، وأصبحت معنوياته تتدهور بصفة مريعة ٠ ذلك لان الانتصار المزعوم الذى كان يحلم به الجنرال (شال) من وراء هذا البرنامج اتضح بعد التطبيق انه سراب لا يعدو أن يكون فى واقعه محاولة وهمية لتموين أجهزة الاعلام الفرنسية ، وتضليل الرأى العام ، ومخادعة الشعب الفرنسى أيضا ٠

فبعد تطبيق البرنامج القاضى بخنق الثورة فى كامل أنحاء القطر الجزائرى ـ اشتدت المعارك وتوالت الهجومات بعنف على المراكز العسكرية الفرنسية وخاصة القريبة من خط شال ، وازداد الشعب تماسكا وتلاحما وراء جبهته وجيشه وصار يبرهن يوما بعد يوم على انه شعب لا يقهر ، وان روحه النضالية الخلاقة لا تعرف الضعف والفتور مهما تكالب العدو وتعددت مشاريعه الجهنمية ٠

3) من صيف 1956 الى صيف 1957 اتجهت القيادة الفرنسية الى وضع الاسلاك الشائكة على طول الحدود الجزائرية التونسية والجزائرية المغربية أملا منها أن تكون هذه الخطوط المكهربة مانعا يحول دون تسرب السلاح حتى يسهل (القضاء على الثورة) ولكن المجاهدين كانوا يقطعون هذه الاسلاك باستمرار ويهاجمون بانتظام مركز الونزة الاقتصادى والمراكز الواقعة على طول الحدود فيجمدون بذلك فرقا ضخمة من الجيش الفرنسى ويجبرونها على ملازمة الخط المكهرب ، وابطال معركة عنابة قاتلوا باسلحة دخلوا بها من تونس فى وقت تؤكد فيه القيادة الفرنسية بأنه لا أحد يقدر على الدخول من الشرق الى الجزائر بقطعة من سلاح ٠

4) كانت معركة عنابة دليلا حيا قاطعا على أن مشروع قسنطينة ، ومعامل عنابة وكل البرامج التى خططها الاستعمار فى نطاق مشروع قسنطينة . هباء فى الهواء ، وخيال . فى أذهان أصحابها ما بقيت الحرب تدور رحاها فى الجزائر ، وان جيش التحرير الوطنى الذى يبرهن على قوته فى كل وقت وخاصة فى تلك الظروف هو القوة الوحيدة

التى يجب أن يقرأ لها الحساب فى الجزائر ، وان سياسة فرنسية تقوم على تجاهل هذه القوة لن يكون مآلها الا الفشل الذريع ·

وهذه الحقيقة هى التى خرج بها الرأى العام العالمى من معركة عنابة ولاحظتهــا الصحافة فى مختلف العواصم وخاصة الاوروبية منها فى الوقت الذى كان فيه الجنرال ديقول يطلب من (رؤوس الاموال الايطالية أن تساهم فى معامل عنابة) ·

العبرة مــن هــذه المعركــة · قد يقف البعض على أخبار معركة عنابة ووصف أحداثها ثم لا يعير لها أية لفتة جدية بل يمر عليها كما يمر على الاحداث اليومية التى تطالعه بها نشرة الاخبار من يوم لآخر فيرهف أذنه لاهمها لحظة سماعها ثم ينساهــا وتختفى الى الابد ولا يعود يذكرها ·

ان معركة عنابة ـ وما أكثر مثيلاتها فى الجزائر ـ أعظم من حدث عابر ، وأكثر من قصة تروى ثم تنسى ···

ليس سهلا ، ولا مسلما علميا ، ولا مقبولا منطقيا ، أن يقف تسعون مجاهــدا أمام ثلاثة وعشرين ألف جندى بطائراتهم المختلفة ، ودباباتهم ومصفحاتهم وأسلحتهم المختلفة ثم يلحقوا بهم هزيمة نكراء ، وينشروا فى صفوفهم فشلا ذريعا ، وتصدعا ماحقا حتى يلجأوا الى الغازات الخانقة · وهل من المقبول علميا أن تتغلب فئة قليلة من البسطاء الذين لم يتلقوا درسا فى النظم الحربية بل هم فلاحون ورعاة غنم وبقر ـ على جيش منظم تخرج من مدارس وكليات حربية فى العواصم الاوروبية الشهيرة ؟

هل يتحول العلم أحيانا الى جهل ، والقوة الى ضعف ، والايجاب الى سلب ·· ، ويتحول الجهل الى علم ، والضعف الى قوة ، والسلب الى ايجاب ؟

من ذا الذى يسمع هذا ولا تملكه الدهشة ، ولا يستبد به العجب ؟

فئة قليلة من المجاهدين يقدمون من تونس مشيا على الاقدام ، يحملون أسلحة على أكتافهم وبعضها ثقيل مرهق ، ويتجشمون فى الطريق مشــاق ومخاطــر ومهالك ، ويعانون من الجــوع والعطش والتعب المنهك ما يعانون ثم يجدون فى مدينة عنــابة حيث كانوا ينتظرون أن ينالوا قسطا من الراحة بالقرب منها ـ يجدون معركة رهيبة تنتظرهم وتلاقيهم بالحمم والقذائف والدمار ··· ثم يقفون بالرغم من المفاجاة ، وبالرغم

من الجوع والعطش والتعب ، وبالرغم من السهر المضنى ، ـ يقفون سدا من البسالة النادرة والصبر الخارق ، ويثبتون ثبات الاسود الذائدة عن عرائنها ؟

ان المجاهدين يملكون العناصر الاساسية للنصر ـ وان فقدوا الطعام والشراب والنوم والراحة ـ وهى الايمان بالله والاعتماد عليه ، وشدة الكراهية للعدو ، وشدة الحب للوطن الذى يحاربون عنه • ويملكون عنصرا آخر ما تزال هناك افهام تعجز عن ادراكه واستساغته وهو الرغبة فى الشهادة التى هى جواز السفر الى جنة الخلد رأسا •

وهم لم يدرسوا المذاهب المتطرفة ، والفلسفات المجنحة ، ولم يجلسوا يوما الى (أستاذ) حتى يصابوا بتلوث العقل الذى يعتز به أنصاف العلماء بل هم على فطرتهم النقية التى لم تلوثها خيالات ، ولم تزعزعها شطحات ••• ولم تنل منها أصنام الكفر والباطل • ولم تنزلق فى مهاوى الاثام وبؤر الاوهام •

لقد رغب هؤلاء فى الشهادة فاستشهد معظمهم فى هذه المعركة ، واختلطت دماؤهم وارتوت بها ارض الجزائر المسلمة ••• وما مات رجال حرروا وطنا ولا أهدرت دماء احيت أمة •

ذهبوا عنا تاركين وراءهم أولادا وأزواجا وأصدقاء ••• فى سبيل ماذا كل هذا ؟ فى سبيل أن تستقل الجزائر وتنال حريتها وسيادتها ، وتبنى مستقبلها ، وفى سبيل أن أعيش أنا وأنت وهم وهن فى هذا العهد الباسم الزاهر ، مرفوعى الرؤوس ، موفورى الكرامة ، فى نفوسنا حمية الاسلام ، وفى قلوبنا نشوة الامل ، وفى أيدينا سيوف النصر ، وأسلحة التعمير •

أما الحقيقة التى يجب أن ينقشها على قلبه كل جزائرى وجزائرية حتى لا تعزب عنه لحظة قيمة الشهيد الذى حرره ومنحه العزة والكرامة فهى ان من الصعب العسير جدا أن يموت شخص ويفارق أولاده وأهله ووطنه من أجل أن يعيش شخص آخر ويحيا بين أولاده وذويه أيا كان هذا الشخص •

ولكن الشهداء ماتوا ••• بكل شجاعة ، وبكل رضى من اجل ان نحيا احرارا وأسيادا •••



قائد معركة عنابة الشهيد حيدوش (الوسط الواقف)

فليعيشوا فى كل خفقة من خفقات قلوبنا٠٠٠وفى كل بسمة من بسماتنا ، وليعيشوا ومضات هادية مع الشفق الباكى عند الغروب ومع الشفق الضاحك عند الطلوع ٠٠٠

ولتكن هذه الكلمة تحية من أعماق القلب أقدمها لذكراهم ، وباقة من الاعجـــاب ببطولتهم ، والتقدير الخالص لوفائهم ، أنثرها على قبورهم ٠

مراجـــع المقـــال ٠

المجاهد ـ العدد 46 ت 13 جويلية 1959 ٠

الجزائريين الماضى والحاضر محمد الصالح الصديق ٠

العقيد اعزورن خال قائد معركة عنابة ٠

اغيل على بوجمعة من أبطال المعركة ٠

الحياة العائليّـة فى الإسلام

فاطمـة هـيرين

كاتبـة بالمـركز الاسـلامى فى ميونيخ (المانيا الاتحادية)

ترجمة : د. سامى سلطان

فى وقت انقلبت فيه القيم رأسا على عقب ، هوجمت الحياة العائلية ، باعتبارها القلـب الحقيقى للمجتمع ، بنفس الكثرة التى هوجم بها العديد من التقاليد المتوارثة الاخرى . ومنذ حوالى عشر سنوات ، عندما أصبح مألوفا لدى الشباب من حملة مشاعل التجديد أن يعيشوا فى جماعات الجنس والاطفال والمكاسب فيها مشتركا بينهم ، خشى كثير من الناس أن يكون معنى ذلك نهاية الحيـاة العائلية . ولكن الامر من حسن الحظ ليس كذلك . فقد ظلت الاكثرية الساحقة من النساء الصغيرات ، فى النهاية ، تحلم كل منهن بخاتم الزواج يوضع فى اصبعها ، وبالشقة المريحة تعيش فيها ، وبالبيت الملائم تنجب فيـه اطفالها كزوجة تحمل اسم زوجها ، وبالشباب الذى يفضل أن يقدمها للآخرين بقوله « هذه هى



ترى السيدة فاطمة هيرن (الالمانية) فى الوسط جالسة ، وعلى يمينها السيدة عائشة لمـو ، (البريطانية) فى أقصى اليمين ـ التى سننشر نص محاضرتها فى نفس الموضوع فى عدد قادم ـ وعلى يسارها سماحة مفتى بلغراد (يوغوسلافيا) ٠

زوجتى » بدلا من عبارة « هذه رفيقتى أو زميلتى » • ان الاشتراكية أو غيرها من النزعات لم تستطع فى الواقع أن تجتث من الجذور ما قد غرس فى الجنس البشرى منذ زمن سحيق•

واذا كان من المستطاع التغلب بنجاح على الاخطار التى تهدد حياة الاسرة ، وبخاصة الحياة الزوجية ، فى الغرب ، فان هذه الاخطار لا يمكن أن تجد لها موطىء قدم فى العالم الاسلامى ، حيث اشترك العرف وقانون الدين معا فى بناء أساس راسخ لا يمكن التأثير فيه بصورة خطيرة ، للحياة العائلية بكل مظاهرها المتعلقة ليس بالزوج والزوجة والاطفال فحسب ، ولكن أيضا بجميع الاقارب الآخرين •

والآن يمكن للانسان القول بأن الحياة العائلية السعيدة والصحية لا يمكن ضمانها بقانون • حقيقة ان هذه الحياة تعتمد على الرغبة الصادقة لجميع الاطراف المعنية بحيث تظل أفضل القوانين حبرا على ورق فى حالة غياب هذه الرغبة • ولكن العامل المسيطر هنا ، وفى جميع المجالات الاسلامية الاخرى ، حقيقة أن الاسلام ليس عقيدة بالمفهوم الغربى لهذه الكلمة ، ولكنه فى الواقع أسلوب حياة لمعتنقيه • ان الاسلام يعنى ، فى ناحية ، الخضوع الكامل لارادة الله ، وهو ، فى الناحية الاخرى ، القبول الواعى لوكالة الانسان على الارض كما أمر بها الله •

ان الخضوع لارادة الله ، اذا طبق على الحياة العائلية ، يعنى قبول الرغبات المتأصلة فى طبيعة الرجل ، الرغبة فى رفيق يتبادل معه الحب والحنان والتضحية بالذات والثقة والعزاء ، والرغبة فى أطفال ووالدين واخوة وأخوات وأعمام وعمات وأخوال وخالات ، وغيرهم من الاقارب الذين يمكن له أن يثق فيهم ، ويمكن لهم أن يقدموا الحماية أو يتقبلوها ، وكذلك الرغبة فى بيت هادىء تتوفر فيه الرعاية ، والرغبة فى تعليم جيد ، والرغبة فى المساعدة وقت الحاجة لها ، والرغبة فى عمل الخير أو تلقى الخير حسبما تقتضى الظروف •

والقبول الواعى لوكالة الانسان على الارض يعنى البحث عن أفضل الوسائل الممكنة لتحقيق وكالة ناجحة • وهنا أيضا تقدم لنا الحياة العائلية انجع الاسس لنجاح نشاطاتنا • فالحياة العائلية السليمة والصحية تمنحنا الطريقة الصحيحة لفهم الحياة ،

وتساعدنا على آن نرى الامور فى أبعادها الصحيحة ، وتهىء لنا التعليم الاكثر فائدة ليس فقط لما يهم مهنتنا المستقبلة ولكن أيضا لمعالجة الحياة نفسها ، كما تهبنا ، عندما نكبر ، البيت الآمن ، مما يساعدنا على المشاركة فى حياة المجتمع بأكبر نفع ، وعندما نصبح كهولا ، أسباب الحياة التى اعتدنا أن نهبها لها عندما كان فى مقدورنا أن نفعل ذلك ٠

وربما يرى أولئك الذين اندمجوا تماما فى الحياة بأسلوبها السائد فى الغرب أن هذا أمر لا يمكن تقديمه ٠ انهم يتساءلون لماذا لا يترك الاطفال فى دور الحضانة ، ويعتمد فى تعليمهم على المدرسة بالرغم مما يدفع فى سبيل ذلك من نفقات باهظة ؟ ولماذا هذا الشعور بالمسؤولية عن الاقارب المحتاجين أو أفراد الاسرة الذين بلغوا سن الشيخوخة طالما انهم ولا ريب لابد وان يكونوا مؤمنين ضد مصادر القلق والازعاج بجميع أنواعها وطالما يمكن وضع الكهول فى بيوت خاصة حيث لا يضايقهم أحد ولا يضايقون أحدا ؟ ثم ينتهون الى القول بأن هناك ميادين كثيرة للعمل أعظم فائدة وأكثر ربحا من العناية بالاطفال ورعاية أفراد الاسرة المرضى أو العجزة ٠

ومع ذلك ، وبالرغم مما يبدو من الصعوبة فى التصديق ، فان هذه المسؤوليات والتبعات لا تزال تحمل على الاكتاف من جانب أغلبية العائلات فى العالم الاسلامى ٠ ويعود الفضل فى ذلك الى التعاليم الاسلامية التى لم يتخل عنها المسلمون قط خلال التطورات الصناعية والتقنية الحديثة ، وانما أخذوها بجدية تامة حتى يومنا هذا ، وذلك بحسب اعتقادى لان المسلمين يؤمنون بصدق أنهم سوف يحاسبون على سلوكهم هنا على الارض يوم القيامة ، ولانهم يعون تماما دورهم كوكلاء لله على الارض ، ولانهم أيضا يشعرون بسعادة فى الايفاء بواجباتهم الدينية لكسب رضاء الله ، وهو الهدف من وجودهم كله ٠

ومن الممكن لغير المسلمين أن يعجبوا كيف أن الدين لا يزال يمارس مثل هذا التأثير القوى على الناس فى العصور الحديثة ، الى حد تجنب الامثلة الغربية ، فى هذا المجال على الاقل ، بدلا من محاكاتها ، بعكس الاتجاه المعتاد فى معظم المجالات الاخرى ٠

ان البناء الوطيد القائم على الدعامات الاربع التالية ــ وهى دعامات أساسها التعاليم الاسلامية وسنة النبى محمد (ص) المتوارثة من جيل الى جيل ــ للحياة العائلية الاسلامية

هو فى الواقع ما يجعل تلك القيم راسخة ، ويساعدها ، أكثر من التجارب الغربية ، على البقاء • وهذه الدعامات هى : ـ

1) الحياة العائلية كمهد للمجتمع الانسانى تقدم بيت،آمن،وسليم ومشجع للوالدين وأطفالهمـــا •

2) الحياة العائلية **كحارس من الرغبات الشهوانية الطبيعية فى الانسان** ، توجه هذا الدافع القوى الى قنوات صحية •

3) الحياة العائلية هى المكـان الحقيقى لتغذية الفضائل الانسانية كالحـب والعطف والـرحمـــة •

4) الحياة العائلية هى الملجأ الاكثر أمنا ضد جميع المتاعب الداخلية والخارجية •

وتعود قـوة هذه الدعامات الاربع ، التى ترتب عليها ثبات سيماء العائلة الاسلامية بلا تغيير ، الى أنها كلها مشكلة على أساس قانون الاخذ والعطاء بالطريقة التى يتطلبها عصرنا وظروف كل يوم • ويجب ألا يكون منسيا أن فوائد الحياة العائلية لا تصل فقط الى أقارب الدم ، ولكنها تمتد أيضا الى جميع أفــراد العائلة الاسلامية فى العالم كله ، وهو ما يعرف باسم الاخوة الاسلامية •

ولننظر الآن عن قرب الى كل من هذه الدعامات • ففيما يتعلق بالدعامة الاولى ، لكى تكون العائلة مهدا صحيا لمجتمع الانسان ، يجب أن يجد فيها الاطفال ، الذين بهم يتم دوام الجنس البشرى واستمراره ، الدفىء وطول الاناة والدأب على تثقيفهم بكل ما يدور حولهم • ومن أجل هذا الفرض يلزم أن تكون لهم أم تسهـر على رعايتهم ليس كمهنـة لبعض الوقت ولكن كواحد من أهم واجباتها ، وينبغى أن يكون لهم أب عبر عنه سيد أبو العلا مودودى تعبيرا جميلا بقوله انه ، بمقتضى طبيعة الاسلام الابوية ، امام العائلة الذى تستقر على كتفية المسؤولية الدينية فيها ، ويجب عليه أن يدعم عقائد الايمان ، كما يجب أن ترمز سلطته الى سلطة الله فى العالم • ويواصل سيد أبو العلا مودودى كلامه فيقول:بأن الاحترام الذى يتمتع به الرجل فى العائلة يعود فى الحقيقة تماما الى العمـــل المقدس الذى يقوم به فيها، وأن تمرد النساء المسلمات فى بعض نواحى المجتمع الاسلامى

انما وقـــع عندما كف الرجال أنفسهم عن تاديـــة وظيفتهم الدينية ، وفقدوا صفتهم الرجولية والابوية • هذا هو الرأى الجدير بالملاحظة لمفكر اسلامى اشتهر فى العالم كله • وفى الحقيقة فانه بوجود البيت الذى يكون فيه الاب والام واعيـين بدورهما الهـــام ، ومدركين أن عالم الغد سيكون على ما ربيا أطفالهما عليه ، سوف يظـــل أساس المجتمع سليمـــا •

وفيما يتعلق بتربية الاطفال فانى أعتقد أن هذه العملية يجب أن تتم فى اطار أربع مراحل • وأول هذه المراحل مرحلة وضع الاساس ، وقوامها تهيئـة المناخ أو الوسط الاسلامى الذى يعيش فيه الطفل فى حضن العائلة منذ يوم ولادته وحتى بلوغه ســـن العشرين التى يغادر فيها عادة البيت • وكما يعلمنا علـــم النفس الحديث فان الوسط العـائلى يـؤدى أهـم تاثـير له على الطفـل خـلال السنوات الاولى من عمـره • وهناك عوامل كثيرة تساهم معا فى تشكيل الوسط الاسلامى داخل العائلة • وأول هذه العوامل واهمها أن يحب كل من الوالدين الآخر ويحترمه ، وأن يكونا ، وفق الامثلة الاسلامية ، صبورين ، وأن يسهرا بلا كلـل على رعاية أطفالهما • ولكن من المهـــم أيضا أن يمكن الاطفال من الاستماع الى تلاوات جميلة لآيات القرآن (وتوجد فى هذه الايام تسجيلات قرآنية ممتازة) ، وأن يدركوا متى يكون رمضان ، شهر الصوم ، ومتى يحتفل بالاعياد والمواسم الاسلامية الهامة ، وأن يفهموا أن الاقارب والاصدقاء المسلمين يتبادلون عادة الزيارات ، وأن يسمعوا دائما كلمات مثل كلمة « الله » (جل جلاله) وكلمة « محمد » (صلى الله عليه وسلم) تنطق بصوت رقيق • وعلى أى حال فهذا فى الحقيقة مـا يفعله الكثيرون منا • غير ان هناك أمورا أخرى هامة لهيئة الوسط الاسلامى فى العائلة ، منها أن البيت الذى يعيش فيه مسلمون يجب أن يكون مزودا ببعض التجهيزات التى تعطى ثقافة اسلامية حقيقية ومركزة ، فينبغى أن يرى الاطفال بعض النماذج الخطية الاسلامية على الحوائط ، وربما سجادة جميلة هنا وهناك ، وغير ذلك مما لا يمكن وجـوده فى أى بيت غربى • ومن الواجب على المسلمين أيضا ، فى البيت على الاقل ، أن يلبسوا الاردية التى تلبس فى أوطانهم الاصلية ، وأن يخلعوا أحذيتهم حتى ولو عند مجرد دخولهم حجرة الجلوس ، فبهذا يستطيعون هم المحافظة على الاتصال اتصالا مباشرا بارثهم ، ويشعـر

أطفالهم شعورا واضحا بأنهم مسلمون مما يملأهم بالثقة · وأنا أشــــدد على ذلك لانى مسلمة نعيش فى وسط غربى ·

أما المرحلة الثانية فى تربية الاطفال فسوف أطلق عليها اسم مرحلة الرواية · فنحن نعرف من علمائنا أن شعور الاطفال يتشكل بالاستماع فى سن مبكرة للقصص المرعبة والروايات المثيرة ، وأن من الممكن بالحكايات الساحرة جعلهم يسبحون فى آفاق الخيال الواسعة · وهنا يمتد المجال واسعا أمــــام الوالدين اذا توفرت لديها الرغبة الصادقة للعمل فيه · فينبغى عليهما أولا أن يعودا الى دراسة سير الانبياء الاولين كما وردت فى القرآن ، والى قراءة سيرة آخر المرسلين محمد (ص) وأحاديثه الرائعة ، وقصص أبطال التاريخ الاسلامى · وبعد ذلك يمكنهما أن يشكلا من هذا كله ، بعد مزجه بكـل ما فى جعبتهما من حــب وذكاء وبشاشة ، أكثر الحكايات تشويقا والهافا للاطفــال · وبحسب تجربتى فان الاطفال يكونون أكثر شغفا للاستماع الى مثل هذه الحكايات فى سن الثانية حتى الخامسة · ويمكن للام أن تقصها عليهم أثناء قيامها بأداء واجباتها المنزلية · وسوف يتبع ذلك فى معظم الحالات مناقشات لطيفة بينها وبينهم طالما أن كل واحـــد من هؤلاء الاطفال عنده أسئلته ويريد أن يعبر عن أفكــاره الخاصة · وبهذه الطــريقة يمكن أن تتشكل شخصية الطفل على نحو واضح ومحدد ، ويمكن أن تتكون عنده معايير تظـل ملازمة له حتى نهاية عمره ·

ثم تأتى بعد ذلك المرحلة الثالثة من مراحل تربية الطفل من حضن العائلة · ويمكن تسمية هذه المرحلة ـ وهى مؤسسة عـلى المرحلتين الاولى والثانية ـ باســم مرحلـة الواجبات الاسلامية ـ فمن الملاحظ أن الطفل يميل الى محاكاة والديه وهما يصليان ، ولذا ينبغى عليهما أن يضعا فى متناول يده سجادة صغيرة للصلاة يجرى محاولاته عليها ، وفى الغالب فانه سوف يبقى من البداية ساكنا لعدة دقائق قليلة ، ولكن من المؤكد أنه فى الوقت المناسب سوف يتعلم كيف يصلى ويتعود على نمط « وروتين » يومى للصلاة وفق قواعد الاسلام · على أن هناك واجبا دينيا آخر ينبغى على الوالدين الاهتمام بــه عند تربية أطفالهما هو واجب الصوم · حقيقة سوف لا يقدر الطفــل فى البداية عـلى مواصلة الصوم لاكثر من عدة ساعات ، ولكنه مع ذلك ســوف يستمر فى المحاولة حتى

ـ ينجح ـ ولكن ببطء ـ فى صيام نصف يوم ثم يوم كامل • ومن المهم جـــدا هنا أن يهتم الوالدان أيضا بأن يكون تناول وجبات السحـــور والافطار فى احتفالات حقيقية قصيرة يشترك فيها أطفالهم • وكم يكون الطفل فخـورا عندما يسمح له لاول مـــرة بالنهوض مبكرا من الفراش فى الصباح من أجل تناول طعام السحور مع والديه ! وكـم يكون عظيما سروره عندما يتمكن من الاستمرار فى الصوم حتى نهاية اليوم ! وأنا أعتقد بأن الكثيرين من الآباء والامهات سوف يجرون التجربة ، وسوف يرون عندئذ بأن الطفل نفسه سوف يلح فى الرجاء ليسمح له بالصيام مرة أخرى • والى جانب الصلاة والصوم سوف تتهيأ أيضا المناسبات التى يجب على الوالدين استغلالها لتعويد أطفالهما على اعطاء الصدقات • وأهم ما ينبغى عليهما عمله فى هذا المجال ألا يبخلا على هؤلاء الاطفال ببعض قطع النقود اللامعـة اللطيفة لانفاقها ، مـع تعليمهم بأن جانبا من هذه النقـــود ينبغى التصدق به على المعوز أو وضعه فى صندوق التبرعات فى جامع بدلا من انفاقه فى شراء اللعب أو الحلوى • أما فيما يتعلق بواجب الحج ، فيجب اخبار الطفل كيف أن المسلمين يفدون من جميع أنحاء العالم للاجتماع فى الاماكن المقدسة من أجل هـــدف هام هو أن يعبدوا خالقهم ، فى كتلة واحدة قوامها اخـــوة مترابطين ، كما كان يفعل خدام اللـــه ـ بلا انقطاع ـ منذ عهد أبيهم •

ان الطفل سوف يكون الآن مسلما واعيا ، ومن ثم فقد أقيم أساس عريض يمكن أن تستقر عليه المرحلة الرابعة من مراحل تربيته بثبات • هذه هى مرحلة الجهاد • فالطفل عندما يبلغ الخامسة عشرة من عمره يكون قد تعلم أن الحياة على هذه الارض محاولة ، وأن الذين يستطيعون أن يظهروا بنجـاح فى هذه المحاولة هم فقط الذين يخضعون لمشيئة الله باجلال وخشوع عميقين • ومع ذلك فهناك شىء متأصل فى طبيعة الرجال ، وبخاصة الشبان النشيطين الذين يبحثون عن هدف حقيقى لهم فى الحيـاة ، يمكنهم أن يناضلوا من أجله • وبطبيعة الحال فان الاهداف فى الحياة اليومية كثيرة ومتنوعة ، ومنها مثـــلا عدم اهمال الواجبات الدينية ، والنجاح فى الامتحانات المدرسية ، والشفاء من مرض ، والحصول على عمل مفيد أو مهم ، والعثور على زوج محب أو زوجة محبة ، وانجاب أطفال صالحين • غير ان هذه كلها ما هى الا انجازات شخصية ضرورية من أجل اقامـة أساس

سليم ، وسوف يظل الطموح السليم أو الصحى للرجل ، بالرغم من وجودها ، موجها نحو هدف ما أعلى وأسمى • فاذا لم يوجه الى القنوات الصحيحة لبلوغ هذا الهدف سوف يقع بسهولة ضحية اقناع غوغائى ويتطلع الى عبادة « أوثان » خطيرة تمثلها جميع النزعات السائدة ابتداء من القومية الى الشيوعية • وفى الجهاد ، أى النضال من أجل قضية الاسلام ، تتجمع هذه القنوات الصحيحة • فالجهاد يقدم فرصا كثيرة بحيث يجد فيه كل مسلم حقل العمل الذى يناسب ذكاءه ومواهبه • ان من الممكن تأديته ـ وقت الحاجة ـ بالسيف كما بالقلم ، وبالمجرفة كما بالمشرط ، أو حتى بماكينة خياطة أو بمغرفة قدر • انه نضال ضد كل القوى التى تهاجم الاسلام من الداخل أو من الخارج • وسواء شننت هذه الهجمات بقصد السخرية من الاسلام أو لاضعاف تقاليده وعاداته أو لتقويض قوته السياسية ، فينبغى أخذها مأخذ الجد لان هدفها فى النهاية تدمير الجذور الحقيقية لارثنا •

وبعد ، فان عائلة يحافظ فيها على هذه الروح يقظة باستمرار سوف تصبح الضامن الافضل لمجتمع اسلامى سليم ، لانها بهذا سوف تمكن جميع أفرادها من الممارسة الواعية لوكالتهم عن الله فى الارض ، وهذا واحد من أكثر أهداف الحياة العائلية أهمية •

ولقد كان من الضرورى توجيه عناية خاصة لشرح هذه الدعامة الاولى للحياة العائلية المتضمنة لمظهر التربية طالما أن هذا المظهر يهم مستقبل المجتمع الاسلامى كله •

والآن نأتى الى الدعامة الثانية ، وهى دعامة الحياة العائلية كحارس من الرغبات الشهوانية الطبيعية عند الرجل • وأنا أفضل عن عمد استخدام كلمة « شهوانية » بدلا من كلمة « جنسية » التى أسىء استخدامها بدرجة جعلت استخدامها قد يصحف ما أريد أن أقول بدلا من أن يوضحه •

لقد قال رسول الله (ص) : « انى أنا أعلمكم بالله ، وأخشاكم له ، ولكنى أقوم وأنام وأصلى وأفطر وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتى فليس منى » صدق الرسول • وفى القرآن الكريم (سورة 2 آية 187) قيل للرجال « هن لباس لكم ، وأنتم لباس لهن ، علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم فتاب عليكم ، وعفا عنكم ، فالآن باشروهن واتبعوا

ما كتب الله لكم ، صدق الله العظيم . وهكذا يضع الاسلام ـ وهو أسلوب كامل للحياة ـ فى الاعتبار ميول الرجل الطبيعية ، فيفرض الزواج . انه يخبرنا بكلمات قليلة وجميلة كيف ينبغى أن يكون الزوج والزوجة كاللباس يغطى كل منهما الآخر ويحميه ، وكيف أن كلا منهما يجد فى الآخر اشباعا لنوازعه الشهوانية ، ولرغبته فى انجاب الاطفال وفى التبادل المشترك فى الحب والحنان .

وأحب أن أضيف هنا كلمات قليلة وشخصية . فلانى مهتدية للاسلام أسأل أحيانا عن شعورى فيما يتعلق بالزواج فى الاسلام . وانى فى هذا الخصوص أبدى تقديرى لعدة جوانب لاحظت أن الامور تسير فيها بطريقة حسنة .

فأولا ، هناك العادة التى تسمى فى العائلات الاسلامية ، باسم الزواج المرتب . وقد استطعت دائما أن ألاحظ ـ سواء أثناء اقامتى فى دولة اسلامية ، أو من تلاميذى السابقين كثيرى العدد ، ومن أصدقاء مسلمين آخرين تعرفت عليهم منذ أكثر من خمس عشرة سنة ـ أن الحياة العائلية فى حالات الزواج المرتب أكثر استقرارا ودواما منها فى العائلة الغربية العادية ، اذ أن الوالدين أو الاقارب الذين ، ببصيرة وخبرة واسعة ، يقترحون الزيجات لابنائهم وبناتهم ، انما يفعلون ذلك على أساس عريض تراعى فيه الخلفيات العائلية وأمور التعليم والمطامح والميول وأشياء أخرى كثيرة مماثلة عند العروسين . وبالرغم من أن جميع الزيجات الاسلامية تتم تقريبا ، كما نقول نحن فى المانيا ، على طريقة شراء القط فى الحقيبة ، بمعنى أنه لم يجرب مقدما ما اذا كان العروسان صالحين جنسيا أحدهما للآخر ، كما هو مالوف فى الغرب ، فانها تعتبر أكثر نجاحا من الزيجات الغربية .

وثانيا ، هناك مسألة تعدد الزوجات الحساسة . وأود أن أقول هنا بانه قبل أن يزوجنى المسجل لزوجى الاوروبى المسلم حذرنى من الزوجات الاربع المسموح للزوج بهم اذا عشنا فى يوم من الايام فى دولة اسلامية . وفى الحقيقة لقد أصبت فى البداية بفزع لفترة قصيرة . ولكنى سرعان ما علمت بأنه بالرغم من السماح فى الاسلام باتخاذ أكثر من زوجة فان ذلك لا يمارس فى الواقع الا نادرا . وبما أن هذا الحق ـ الذى منح من ناحية استجابة للميل الى تعدد الزوجات المتأصل ولاشك فى بعض الرجال . ومن ناحية

أخرى لظروف غير عادية مثل المرض المزمن أو العقم عند الزوجة الاولى ـ يحـــرم كلية العلاقات الجنسية خارج الزواج ، فأنا أعتبره قرارا حكيما جـدا • ان الرجل المسلم اذا وجد نفسه لهذا السبب أو ذاك عاجزا عن مقاومة دافع الرغبة فى أكثر من زوجــــة ، لا يكون مضطرا الى أن يلجأ الى أى عمل آثم لاشباع هذا الدافع ، ولكنه يستطيع اشباعه تماما بطريقة شرعية ، على أن يتحمل المسؤوليات المترتبة على ذلك ، وهذا فى نظرى هو النقطة الاساسية اذ ليس من السهل ء لىأى رجل أن يتحمل ، فى سبيل ارضاء جشعه ، نفقات أكثر من زوجه والاطفال الذين ينتجون عن زواجه الآخر أو زيجاته الاخرى ، انه سوف يفكر أكثر من مرتين قبل أن يقدم على ذلك ، فى حين نجـــد فى المجتمعات التى تفتقر الى مثل هذه القواعد الحساسة أن من السهل المرعب على الرجل أن يتصل ، بعـد زواجه الاول ، بامرأة أخرى ، ثم يهجرها من غير زواج ، تاركا لها ، وربما لابنها منه ، الذل والبؤس ، بدلا من الكرامة الانسانية ، والامثلة كثيرة أمامنا فلا يحتاج الامـــــر لزيادة فى التعليق على الموضوع •

وثالثا ، هناك أمور الطلاق • وأنا أعتبر أن الحل الاسلامى فيها أفضل من الحلـــول الاخرى التى أعرفها ، ومنها مثلا الحل المسيحى الكاثوليكى • انه اذا وجد زوج وزوجة ، لاى سبب ـ بالرغم من أن ذلك لا يحدث فى الممارسة الا نادرا ـ أن من المستحيل عليهما مواصلة العيش مما تحت سقف واحد ، فلا يوجد قيد كريه يبقيهما معا بالقوة ، ويمكنهما أن ينفصلا فى هدوء ويبحث كل منهما عن شخص آخر ينشد تحقيق سعادته معه • ومن ناحية أخرى اذا وجدت زوجة أن ليس فى مقدورها تحمل اتخاذ زوجها زوجـــة ثانية يمكنها دائما أن تطلب الطلاق ولا يجبرها أحد على تحمل ما يبدو لها أنـــه لا يحتمل • ويمكننا الآن أن نتساءل ، الا يكون أكثر توافقا مع الكرامة الانسانية لو بث الزوجان فى أمورهما من غير أن يضطرا الى اللجوء الى الحيل والمخادعات ؟ فالزوج ، ألا يكون عليه أن يقص على زوجته أكاذيب وهمية كلما أراد أن يقابل صديقته ؟ والزوجة ، ألا تكون فى حاجة الى أن تتظاهر بعدم ملاحظتها لما يدور خلف ظهرها ؟ هذا ويمكن أن نضيف الى ما قلناه فى هذا الموضوع بأنه اذا أعتقد زوج بانه أصبح فوق طاقته أن يتحمل أكثر مما تحمل من بعض العادات السيئة أو من أشياء أخرى فى زوجته ، فلا حاجـــة له فى أن

يعذبها بالمعاملة السيئة ، بل يمكنه أن ينفصل عنها بسهولة ٠ ونفس هذا القول ينطبق على الزوجة أيضا ٠ ان بهذه الطريقة يصبح المجتمع الانسانى أكثر نظافة وصحة ، ولا تصبح البيوت مصدر شقاء للاطفال ، ولا يصبح أحد الزوجين محكوما عليه بأن يحيا حياة طويلة وهو غير سعيد ٠ ويبقى القول بأن هناك عـــددا من القوانين والوصايا متعلقة بالوضع المالى للمرأة المطلقة وأطفالها ، وأمورا أخرى متصلة بذلك ، ولكن ليس هنـــا مجال مناقشتها ٠ وكما يقص علينا أبو داود فقد قال النبى صلى الله عليه وسلم « أبغض الحلال عند الله الطلاق » ٠ وأنا أعتقد بأن هذا الحديث النبوى القوى يعود اليه الفضل أيضا فى حقيقة ان الطلاق ، بالرغم من أهميته فى بعض الحالات ، لا يمارس الا نادرا فى العائلات الاسلامية ٠

ورابعا ، أريد أن أقول كلمات قليلة فيما يتعلق بمنزلة المرأة فى الاسلام ٠ اننا نقرأ فى القرآن الكريم (سورة 2 مادة 228) : « ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف ، وللرجال عليهن درجات ، والله عزيز حكيم » ٠ صدق الله العظيم ٠ ويعتبر أولئك الذين يريدون أن يجدوا خطأ فى التعاليم الاسلامية بأن فحوى هذه الآية ضار بكرامة المرأة ٠ غير أنى مع الرأى القائل بأن هذه الجملة الواحدة تتضمن كل ما هو ضرورى لسعادتى كامرأة ٠ انها تمنحنى كل الحقوق التى أصبو اليها : حق التعليم ، وحـق اقتناء الملكية الخاصة ، وحقى فى أن أكون الحارسة داخل المنزل ، وحتى حقى فى الوظيفة اذا استدعت الظروف ذلك ، وغير ذلك من الحقوق التى لم أذكر الا القليل منها ٠ على أن أهم من ذلك كله أنها تهبنى حق الاعتماد على زوجى سواء فيما يتعلق بوسائل العيش وسبله أو فيما يتعلق بأى قرارات هامة يلزم اتخاذها لصالح العائلة ٠ ومن ناحية أخرى يقع على كاهل الزوج مسؤولية رعاية الاسرة وايجاد أفضل الحلـول الممكنة لمشاكلها بالتشاور مـــع زوجته والاستفادة من كل حكمته ٠ والسؤال الآن ، ألا يكمن فى طبيعة المـرأة أنها ترغب فى زوج قوى وعادل وحكيم ومراع لمشاعر الآخرين حتى يكون كفؤا لاتخـــاذ جميع تلك القرارات المتعلقة بسعادة الاسرة ؟ هذه هى ، فيما أعتقد ، الحياة العائلية المثالية كمـــا رسمها الاسلام ٠ ومما لا شك فيه أن فى جـو مثل هذا الجـو سوف يجد كلا الزوجان

اشباعا فى الامور الجنسية ، وفى جميع حقول الزواج الاخرى ، وفى مقدمتها ما يتخلف عنــه مــن أطفـــال ·

أما فيما يتعلق بالدعامة الثالثة ، وهى دعـــامة الفضائل البشرية كالحب والعطف والرحمة ، فانى سوف أدع القرآن الكريم يتحدث نيابة عنى ، يقول القرآن (فى سورة 46 آية 15) « ووصينا الانسان بوالديه حسنا حملته أمه كرها ووضعته كرها وحمله وفصاله ثلاثون شهرا حتى اذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة قال رب أوزعنى أن اشكـر نعمتك التى أنعمت على وعلى والدى وأن أعمل صالحا ترضاه وأصلح لى فى ذريتى انى تبت اليك وانى من المسلمين » صدق الله العظيم · ويخبرنا القرآن أيضا (فى سورة 17 آية 23 ، 24) « واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا ربكم أعلم بما فى نفوسكم ان تكونوا صالحين فانه كان للتوابين غفورا » صدق الله العظيم · فيالها من روح بالحنان المتبادل أن يخفض لنا ، فى حالة عجزنا ، جناح الـــذل من الرحمة ، نحن الوالدين اللذين كنا دائما نغمر بحناننا الواقى أطفالنا وكبار السن فينا وقت حاجتهم الى هذا الحنان · اننا اذا كنا طيبين صبورين مشجعين متفاهمين فى سلوكنا نحو أفراد أسرتنا ، فان ذلك ولاشك من شأنه أن يخلق فيهم نفس هذه الفضائل التى يمكن أن ننقلها بهذه الطريقة أيضا الى المجتمع الانسانى خارج العائلة · ومن ناحية أخرى فان رب عائلة رحيما ومراعيا لشعور الآخرين سوف يكون صالحا أيضا بالنسبة لاولئك الذين يتصل بهم خارج البيت ، طالما أنه سيكون صادقا وعنيدا عندما يجـد أن عليه حمايتهم ـ شأنهم شأن أفراد أسرته ـ ضد ما يبرز من رذائل بقصد تقويض وتدمير تلـك الفضـــائل ·

ولكى نكمل المناقشة ، فان الدعامة الرابعة تمنحنا داخـل ثنية الحياة العائلية ملاذا مامونا ضد المتاعب أو مصادر القلق الداخلية والخارجية · ففى الوقت الذى فيه يرتاب الناس بعضهم فى البعض الآخر ، ويفكر كل واحد فى نفسه قبل كل شىء ، ويعتبر أن من الجرم اقلاق النفس بمشاكل الآخرين ، فان غـــير المحتاجين هم فقط أولئك الذين يعرفون أن لهم على الاقل مكانا واحدا للملاذ هو العائلة · فهنا ، فى العائلة ، يمكن أن تحصل على نصيحة مخلصة أو على قطعة خبز ، على يد ممدودة للمساعدة أو على فراش ·

وهنا ، فى العائلة ، نستطيع أن نضمن الحماية ضد العالم الخارجى ، ونعرف بأن أفـراد الاسرة الآخرين ينتظرون منا أحسن ــ وليس أردأ ــ ما عندنا ، مما يساعدنا كثيرا على اظهار أجمل صفاتنا وخصائصنا · وهكذا فان العائلة مؤسسة رائعة للمحتاجين كما هى رائعة للقادرين على تقديم المساعدة · ولا توجد مؤسسة اجتماعية أخرى تحمل على كتفيها مسؤوليات مماثلة بمثل هذا النجاح ·

وأخيرا ، كلما يصبح المجتمع أكثر كمالا فى أعين المشاهد السطحى ، كلما تبـــدو انجازاته الاجتماعية كلها ــ وهى انجازات عامة غير شخصية تماما ــ مدعاة للشفقـــة والرثاء فى نظر هؤلاء الذين يعرفون الرعاية الفائقة والدفء فى الحياة العائلية الاسلامية الحقيقيـــة ·

السيد مولود قاسم نايت بلقاسم
فى حديث خاص
مع « الشعب »

لامعارضة بين الإسلام والإستفادة من تجارب الأمم الأخرى على أساس جوهرنا

اجرى الحديث : **محمد فارح**

اجرت الزميلة « الشعب » الصادرة بتاريخ 6 ماى 1976 حديثا مع السيد مولود قاسم نايت بلقاسم ، وزير التعليم الاصلى والشؤون الدينية ، بعد عودته من المؤتمر الاسلامى بلندن ونعيد طبعه كاملا : بمقدمته ، وعناوينه الفرعية كما جاء فى الزميلة المذكورة تعميما للفائدة .
« الأصالة »

لعل هناك كثيرين يعتقدون أن المبادىء، والافكار، والقيم كلـها لا تكتسب قيمتها ولا تنتعش وتثبت وجودها الا بالممارسة والعمل والنزول الى الواقع ، لرسم الطريق أمام الجماعات البشرية. ويرون الحوار الجاد أفضل وسيلة لاثرائها وازالة الصدا عنها ، وكشف جوانبها المشرقة ، ودفع العقول الساكنة أن تتحرك وتتفتح على مطالب العصر وتواجه مشاكله بحلول ملائمة تلبى حاجياته ، وترضى طموح ابنائه . وقد تكون المؤتمرات واللقاءات الفكرية بين العلماء والمفكرين خير طريق للحوار المنشود والمناقشة الهادفة .

وفى الايام الماضية انعقد مؤتمر اسلامى فى بريطانيا ، وحاضر فيه الاخ مولود قاسم نايت بلقاسم وزير التعليم الاصلى والشؤون الدينية ، ويمكن أن يكون هناك من سمع بانعقاده وتساءل عما دار فيه ، وود معرفة هدفه،ولهذا حاولت منذ عودة الاخ الوزير الى الجزائر أن اتصل به لانقل للقراء صورة تقريبية عن هذا المؤتمر ، وظللت أتصيد الفرصة بين اشغاله حتى الاسبوع الماضى حملت اسئلة كثيرة ، وذهبت الى وزارته ، فاجاب عن بعضها مشافهة وارجأ بعضها الآخر الى مناسبة أخرى قد يكون الوقت فيها أوسع وتكون الاعمال أقل ، وبذلك أقتصر الحديث على ما يلى :


١٣٩٦
الدولي

س : السيد الوزير : لقد حضرتم أخيرا المؤتمر الاسلامى الدولى الذى انعقد فى لندن بمناسبة تنظيم المهرجان الاسلامى العالمى بها . والقيتم فيه محاضرة ، فما موضوع محاضرتكم ؟ وما الجوانب التى طرقتموها فيها ؟ وما الاسباب التى دعت الى عقد هذا المؤتمر ؟ ولماذا اختيرت بريطانيا بالذات مقرا لانعقاده ؟ ومن البلدان الاسلامية التى شاركت فيه ؟ وكيف لم يجد مقاومة من البريطانيين مع انهم غير مسلمين ؟ وما المواضيع التى جعلت محاور اساسية له ؟ وهل وجدت اقبالا عليه من غير المسلمين ؟

ج : للاجابة عن هذا السؤال لابد من أنأعود قليلا الى الوراء وبالضبط الى شهر مايو سنة 1973 ، حيث شاركت فى المؤتمر الاول للمراكز والهيئات الاسلامية فى أوروبا الذى انعقد بلندن بدعوة من اللجنة التنظيمية المؤقتة للمؤتمر ، وعن هذا المؤتمر انبثقت هيئة دائمة اسمها المجلس الاسلامى الاوروبى ومقرها فى لندن أيضا ٠

وهذه المرة تلقيت دعوة من السيد سالم عزام ، الامين العام لهذا المجلس ، من أجل المشاركة في المؤتمر الاسلامى الدولى الاول الذى انعقد بدوره بمناسبة المهرجان الاسلامى العالمى الذى احتضنته العاصمة البريطانية وقد اقترح على موضوع محاضرة هو « مفهوم العدالة الاجتماعية فى الاسلام » والقيتها يوم التاسع من شهر أفريل الماضى ، وتتلخص عناصرها فيما يلى : ان العدالة الاجتماعية فى الاسلام تأتى من العدل ، وان هذا العدل يتصل بصميم العقيدة الاسلامية نفسها ويكفى أن نقول : ان الحساب والعقاب فى الاسلام يقومان على الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وان معناه العدل فى الدرجة الاولى ، اذ يكافأ الانسان حسب ما عمل فى دنياه ، ومن هنا رأينا ائمة امثال جار الله الزمخشرى والقاضى عبد الجبار يعرفون مسؤولية الانسان على اعماله أمام الله غدايوم القيامة بحرية الاختيار أو نظرية العدل كما هو معروف ٠

وقد حاولت أن اذكر بمعالم هذه العدالة الاجتماعية نظرية وتطبيقا ، معتمدا فى ذلك على آيات قرآنية، واحاديث نبوية، وعلى امثلة واقعية من سيرة الرسول «ص» وبعض الخلفاء الراشدين وعلى فتاو واجتهادات لبعض كبار علماء الاسلام من حيث أبواب هذه العدالة الاجتماعية ، واركان العدالة الاقتصادية التى هى شرط تطبيقها ، ومقاصد الشريعة من هذه العدالة التى هى مصلحة الامة بالدرجة الاولى ٠ وهذا المبدأ الاساسى صالح لكل زمان ومكان ، الامر الذى يستبعد عن الاسلام كل ما يلصقه به اتباعه الجهلة واعداؤه المتجاهلون من تهم الاستغلال والاذلال والطبقيات والدرجات ، وغير ذلك من التهم الباطلة التى نسمعها من حين لاخر ٠

وقلنا : ان الاسلام ، بالعكس من هذه الادعاءات ، هو دين العدالة الاجتماعية الحقة كما طبقها خاصة الرسول والعمران (عمر ابن الخطاب وعمر بن عبد العزيز) وكما هى فى الشريعة الاسلامية ، مقاصد، ونظريات ، وتطبيقا ، فى العهود الزاهرة للاسلام ، وما تزال صالحة اليوم وغدا مع الاجتهاد ومراعاة الزمان والمكان وأخذ مصلحة الامة فى الدرجة الاولى بالاعتبار، وهو جوهر مقاصد شريعتنا

السمحاء، مما لا يستبعد اطلاقا الاستفادة من تجارب الامم ، الناجحة منها والفاشلة ، بل الاسلام يحثنا على الاستفادة من تجارب الامم على أساس جوهرنا، مهما كانت ديانة هذه الامم أو جنسيتها أو مكانها وزمانها .

اما بالنسبة لاسباب انعقاد هذا المؤتمر فتكمن في توصيات مؤتمر 1973 بنفس المدينة وتتلخص فيما يتعلق بهذه النقطة في ضرورة توعية ملايين المسلمين الموجودين خارج العالم الاسلامي كما في أوروبا الغربية، وأمريكا، واستراليا ومحاولة محو كل ما علق باذهان غير المسلمين ، منذ الحروب الصليبية وخاصة منذ الغزو الاستعماري للعالم الاسلامي في العصر الحديث، من تشويه للاسلام ، واظهاره بغير وجهه الحقيقي .

وحيث انه يوجد في بريطانيا كما في عاصمتها أكثر من مليوني مسلم ومسلمة ، فان انعقاد مثل هذا المؤتمر في هذه العاصمة وانعقاد مؤتمرات اسلامية أخرى في عواصم بلدان أوروبية وغيرها من التي توجد فيها جاليات اسلامية ، دائمة أو مؤقتة ، لما تفرضه ضرورة العناية بهذه الجاليات، فضلا عما تساهم به هذه المؤتمرات في رفع مختلف أنواع اللبس والتشويه والتحريف التي الصقت بالاسلام، وعلقت باذهان غير المسلمين في هذه البلدان .

ولقد شاركت في هذا المؤتمر» اغلب البلدان والجاليات الاسلامية في العالم ، بل ان بعض البلدان الاسلامية التي بقيت مدة طويلة بمعزل عن كل نشاط اسلامي مثل تركيا ارسلت الى هذا المؤتمر بوزيرين اثنين احدهما وزير دولة . وقد يكون السبب في هذا الحرص من تركيا وبعض الدول الاسلامية الاخرى وجود جاليات كبيرة لها في أوروبا الغربية اليوم ، ولكن هذه المشاركة نفسها، بقطع النظر عن هذا الاعتبار، ظاهرة جديدة وبادرة طيبة تستحقان التقدير . أما لماذا لم يجد مقاومة من البريطانيين ، فان الجواب نجده ، ربما ، في أن كثيرا من المواقف المضادة للاسلام في الماضي كانت مرتبطة بالحروب الصليبية، وخاصة بالاستعمار ، وبزوال تلك العهود السوداء بدأت هذه السلبيات تزول ، وربما وجدنا أكثر مؤيد لهذا التفسير في قيام شخصيات بريطانية ممتازة باتخاذ بادرة تنظيم المهرجان الاسلامي العالمي الذي يجري حاليا في لندن بمعارضه، وندواته ومحاضراته ، التي تدوم عدة شهور، وهي محاولة مشكورة لشرح الجوانب المختلفة للفكر الاسلامي والحضارة الاسلامية.

وبخصوص المواضيع التي طرقت في المؤتمر فهي متنوعة تدور كلها حول وضع الامة الاسلامية اليوم في المجال الروحي، والفكري، والتشريعي ، والاقتصادي ، والاجتماعي عامة ، ووضع المرأة خاصة. وهذا الموضوع الاخير طرقته سيدتان أوروبياتان مسلمتان احداهما المانية والثانية بريطانية وينبغي أن أقول انهما طرقتاه بكيفية ممتازة وعرض فائق وفندتا في محاضرتيهما كل ما يلصقه اعداء الاسلام في الداخل والخارج من ابنائه الجهلة وأعدائه المتجاهلين الحاقدين على الاسلام بالشريعة الاسلامية وموقفها من المرأة حيث أشادت السيدتان بكل ما أعطاه الاسلام للمرأة من حقوق، وخصها به من عناية ورعاية ، وهي كلها قيم لا تجدها حتى اليوم في أي تشريع آخر غير الاسلامي

يقدر مصلحتها وخير الاسرة والمجتمع حق التقدير ٠

وبشأن الاقبال من غير المسلمين على هذا المؤتمر ، فباستثناء الجلسة الافتتاحية التي عقدت في أكبر قاعة في أوروبا ، وهي « فيكتوريا هول » ، التي اسمعنا فيها صوت الجزائر ، حيث حضر أكثر من سبعة آلاف ، نصفهم على الاقل بريطانيون ، وحيث تزاحم الناس بالمناكب على الدخول ، فان بقية المداولات جرت في قاعة أخرى أصغر بكثير لم يتمكن كثير من غير المسلمين أن يحضروها لضيق القاعة أولا ، ولشدة الاقبال والازدحام من المسلمين ثانيا، مما حرم كثيرا من المسلمين وغير المسلمين من الحضور ، وهو شيء نأسف له جدا ، ونرجو ألا يتكرر في المستقبل بقدر الامكان ٠

ولئن حرص المنظمون على وضع أجهزة تلفزيونية في قاعات جانبية حول القاعة الرئيسية الا أن عدد المستفيدين من ذلك بقي ضئيلا بالنسبة لعدد المتنافسين على الحضور ٠

وقد وجدنا في القاعة عددا من الجزائريين والجزائريات ممن يدرسون في بريطانيا ٠

الرقص علامة على التفسخ البرجوازي والانحلال الارستقراطي

س : ذكرت «مجلة المجتمع الكويتية » أن المهرجان الاسلامي المنعقد بلندن قد أقيم معظمه للرقص والفنون الشعبية بعد أن اسقطت منه الفقرات الحية التي يمكن أن تخدم الاسلام. فبماذا تعلقون على ذلك ؟

لم يكن العري وشبهه علامة على النهضة، والرقي، والثورة.

ج : أنا شخصيا لم أكن ولن أكون أبدا من أنصار الرقص ولم يسبق لي أن اعتبرته ولن اعتبره من مظاهر الحضارة والرقي والتقدم بل كان دائما على مر العصور في جميع الحضارات علامة على التفسخ البورجوازي ، والانحلال الارستقراطي ، حتى فيما يسمى باعلى صوره الكلاسيكية ، وهذا من العلب الليلية الى ارقى الاوبيرات والباليهات في العالم ٠ ولم يكن العري وشبهه في يوم من الايام من علامات النهضة والرقي ، والثورة ، والتفتح، والتقدم ، والتطور ٠

وفيما يتصل بمهرجان لندن بالذات ، سمعت فعلا أن هناك شيئا من الرقص الشعبي والفلكلوري ، أو سموه كما شئتم ، قامت به فرق من بعض البلدان العربية ، وانا شخصيا لم اره ، اذ بقطع النظر عن رأيي المعروف في هذا وعدم رغبتي في مشاهدة مثل تلك العروض ، فالوقت الضيق الذي تركه لي المؤتمر فضلت أن اخصصه للمعارض الرائعة الممتازة في متحفي العلوم والفنون اللذين قدما لنا كنوزا من فكر الاسلام وحضارته ، ورأينا هناك ما اذن سمعت ، وعين قرأت ولكن ما رأت قبل اليوم ولا خطر على قلب بشر ، حيث اجتمعت كنوز فاخرة ، نادرة، لاول مرة في مكان واحد ، لمن يريد أن يأخذ فكرة تجسيمية ولو مصغرة عن فكر الاسلام وحضارته، تتمثل في آلات واجهزة هي غاية في الصنع ، والدقة ، والتقنية، وفي الوقت نفسه آية في الجمال ، والروعة والابداع !

وقل الشيء نفسه عن تلك المخطوطات النادرة المدفونة التى ليست فقط من تراث الاسلام فى ازهى عصوره ، ولكنها ملك للانسانية كلها ، اذ كانت المنطلق للنهضة الاوروبية في العصر الحديث،وبالتالى لارقى ما وصلت اليه البشرية المتقدمة اليوم ، ونقصد بها تلك الصفحات الخالدة التى سطرها امثال الفارابى ، وابن سينا ، وابن الهيثم ، والبيرونى ، والخوارزمى ، وابن الجزار ، وابن رشد ، وأبى حمزة الجزائرى ، وما أكثرن امثالهم فى سجلنا الخالد !

ومن هنا فلم أر فى لندن الرقص ، والشطيح ، والفركسة فى اطار هذا المهرجان ، ولكن رأيت الاجهزة التى كان يشتغل بها ابن ماجد ، وأولوغ باى ، والرازى، وابن القاسم، ورأيت مخطوطاتهم ومخطوطات امثالهم ، ممن ذكرنا ومن لم نذكر ، واقول بكل بساطة وايجاز شكرا لمنظمى المهرجان، وكم نتمنى لو تكثر مثل هذه البوادر .

س : ألا يفهم من انعقاد هذا المؤتمر بلندن ان المفكرين والعلماء المسلمين عجزوا عن ايجاد حلول لمشاكلهم الدينية والفكرية فحملوها الى غيرهم ليساعدهم على حلها ؟ أو أن المسؤولين في أوطانهم رفضوا حوارهم ففضلوا الانتقال الى غير أوطانهم ؟

ج ــ لا أظن هذا ولا ذاك ، ولكن أذكر فقط بما قلته آنفا من أن الباعث الرئيسى على مثل هذه المؤتمرات خارج العالم الاسلامى ينبغى أن يستهدف بالدرجة الاولى توعية المسلمين الموجودين هناك أولا، وبالدرجة الثانية، رفع اللبس ومحو الافكار المسبقة التى لا تزال عالقة بأذهان الكثير من غير المسلمين عن الاسلام والحضارة والفكر الاسلاميين ، ومن ثم فليست هذه المؤتمرات ولا ينبغى أن تكون للبحث فى الخارج عن حلول لمشاكل العالم الاسلامى ولا يليق بالمسلمين أن ينتظروا من غيرهم حلولا لمشاكلهم بل حلولهم تكمن لديهم ، وفى أرضهم ، وعلى أساس واقعهم وأصالتهم، مع الاستفادة من تجارب الامم ، على أن هذا لا ينفى فائدة أى حوار خصب، ولا يقلل من قيمة أى صراع فكرى حى ، بل الاسلام يحضنا على ذلك ويأمرنا بالسير فى الارض ، والنظر ، وبالتفكر والتدبر ، وبالجدال الحسن .

س : يخيل الى انكم رجعتم بانطباعات شخصية عن أعمال هذا المؤتمر ، فما هى هذه الانطباعات وهل تتوقعون ان تكون ايجابياتها أكثر من سلبياتها ؟ ولماذا ؟

ج ــ أظن أننى أستطيع ان استخلص من اقبال العمال والطلبة المسلمين فى بريطانيا على هذه الندوات ، ومن شدة اهتمامهم البادى على وجوههم، وفى أسئلتهم ، وتعليقاتهم ، وفى تتبعهم عن كثب لواقع الامة الاسلامية اليوم ، وفى نضج الكثير منهم ان لم أقل الاكثرية ، حسبما يبدو لى من انطباع سريع ، وفى تلهفهم على ضرورة حدوث تطورات جذرية فاصلة سريعة فى أمة الاسلام تحقق عدالة مجتمعها وتجعلها فى مصاف ان لم يكن فى مقدمة أرقى الامم ، أن شباب هذه الامة يقظ ربما أكثر من أى وقت مضى ، وأنه يبعث لا على التفاؤل فحسب بل على التأكد من قرب زوال رواسب عصور الهمود ، والجمود ، والخمود ، وما تلاها من عهود الاستعمار ، والاستغلال ، والاذلال ، والاطمئنان الى طلوع فجر هذه الامة من جديد واشراق شمس الحرية الحقة ، والعدالة التامة الشاملة ، والعزة

الكاملة فى ظـــل أصالتهـا وقيمها الصحيحة الخالدة ·

س : ألم تلاحظوا أوجـــه شبه بين هذا المؤتمر وملتقيات الفكر الاسلامى التى تنظمها وزارتكم كـــل سنــة ؟ وما الجوانب التي يلتقيان فيهـا أو يختلفان ؟

ج ـ لا أظـــن أن هناك أوجه شبه أو سبيلا للمقارنة بين الجانبين الا فى بعـض النقاط التى جاءت فى جدول أعمال المؤتمر وسبق لنا ان طرقناها وناقشناها بتوسع في ملتقيات الفكـــر الاسـلامى بالجزائر ونشرنا أغلبهـــا ، والباقى فى طريق النشر · فجو الملتقيات فى الجزائر هو حوار موسع ، مطول ، منهجى متتابع ، منتظـم بين أسـاتذة جامعيين وبحـاثة من جهــة ، وطلبة جامعيين ، ومن السنتين النهائيتين للتعليم الثانوى من جهــة أخرى ، اذ تنعقد هــذه الملتقيات سنــويا ، وتتكــامل مواضيعها وتستنفد نقاطها ، بينما الاطار فى مؤتمر لندن لــم يسمــح الا بالمحاضرات وأسئلة محدودة العـــدد الى درجــة التضييق والانعـدام الكلى للتعليقات والتعقيبات ، ولكن نرجو أن يستكمل هذا فى المستقبل لاننا لا ننسى اننا فى الجزائر على أبواب الملتقى العاشر ، بينما مؤتمر لنــدن هــو الثانى فقط ، اذا مــا ضممنا اليه اجتماع سنة 1973، وان صعوبات قــد اعترضت المنظمين فى لندن،ولا ننسى انهم نظموا هذا المؤتمر فى بلد أجنبى ·

واختـــتم هذه الكلمـات بالتذكير بما اعلنا عنه سابقا اننا لا نزال نفكر فى تنظيم ملتقى أو ملتقيات لجـاليتنا في أوروبا بعين المكان ، ولئن كنا ننــوى التركيز فى هذه الملتقيات بالدرجة الاولى على الطلبة فان البـــاب سيكون فيهــا مفتــوحا لغـيرهم مــن المواطنين والمسلمين خصوصا وغيرهم عموما ، دائما بروح الحوار الحر والجدال الخصب ، كمــا هى روح ملتقيـاتنـا ومنهجيتهـا حتــى الآن فــى الجــزائــر ·

عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات

لزكرياء القزوينى

El Moudjahid 1975
24.3.

LE RESPECT D'AUTRUI

Les locataires des « Asphodèles » - Ben Aknoun - Alger

Nous voudrions, par la présente, attirer l'attention des autorités compétentes sur un problème auquel nulle famille algérienne et musulmane ne pourrait rester insensible. Il s'agit des attroupements indécents qui se forment, chaque soir aux abords de la cité universitaire de jeunes filles qui fait face à notre cité.

Il est vrai qu'une cité universitaire de cette envergure (plusieurs centaines de locataires) est une concrétisation importante de la démocratisation de l'enseignement supérieur dans notre pays. Mais encore eut-il fallu veiller à un strict respect des mœurs. Nous comprenons, bien sûr, un certain esprit libertaire à nos étudiants et étudiantes. Nous ne leur en voulons absolument pas pour cela. Mais qu'ils essaient un peu — ou plutôt elles, puisqu'il s'agit d'étudiantes — de se mettre à notre place. C'est simple, pour des raisons faciles à comprendre, il nous est impossible de nous mettre en famille au balcon tant certaines attitudes sont choquantes. C'est chaque soir un défilement ininterrompu de voitures de toutes marques et de toutes immatriculations, des comportements vraiment indécents et qui ne sont rien d'autre qu'une atteinte à la bonne moralité. Notre gène est encore plus grande quand nous recevons des invités. Nous sommes sûrs que c'est là le fait d'un petit groupe de résidentes et que la grande majorité de leurs camarades sont d'accord avec nous.

Dans ces conditions, nous faisons d'abord appel à la compréhension et au bon sens des résidentes de la cité pour qu'elles n'affichent pas d'attitudes indécentes et pour qu'elles invitent leurs amis ou camarades d'études à un peu plus de respect envers les familles qui habitent en face d'elles. Les autorités, pour leur part, devront prendre les mesures qui s'imposent pour préserver notre dignité. C'est pourquoi nous adressons un appel pressant en ce sens à MM. les responsables du ministère de l'Enseignement supérieur et de la wilaya d'Alger.